SHUSAKO ENDO

روايات
NOVEL



28.5.2016

شوساكو إندو

الصَّمت

ترجمة:
كامل يوسف حسين







رواية

شوساكو إندو

....

الصَّمت

ترجمة:
كامل يوسف حسين







محمد خطاب

الصمت / رواية
شوساكو إندو / مؤلّف من اليابان
ترجمة: كامل يوسف حسين/ من مصر
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٦



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨



دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس :٥٦٨٥٥٠١
E - mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف:
فؤاد سليمان وهبي

التنفيذ الطباعي:
رشاد برس / بيروت لبنان

ISBN 9953-36--841-4

قبل أن تقرأ

هذا كتاب للتأمل .

والتأمل هنا رحيل شرس عبر التخوم ، والتخوم التى يدعونا القاص اليابانى شوساكو إندو إلى اقتحامها هى مجموع القضايا الأساسية ، التى تؤرق ضمير الإنسان اليابانى ، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، ومناط الدعوة ضرورة إعادة النظر فى المقولات التى تشكل النسيج الخالص لهذا الضمير .

وما يعاد النظر فيه عبر «الصمت» لايعدو أن يكون جوهر الرؤية الثيولوجية ذاته : الله ، الموت ، الخطيئة ، الذنب ، والجسر الممتد عبر التخوم ، طرحا ، ومناقشة ، فتحديا لهذه المفاهيم ، هو التساؤل عما إذا كانت الرؤية الحالية لهذه القضايا هى التصور الأكثر صدقا لها ، من ناحية ، والأنسب لمسيرة المجتمعات المعاصرة ، فى مرورها بالمنعطف الرابع للقرن العشرين ، من ناحية أخرى .

وإذا كنا نميل إلى الإحجام عن الاستطراد فى تناول العمل الماثل بين يدى القارئ ؛ باعتبار أن النص هو خير متحدث عن نفسه ، فإننا فى الوقت نفسه نعتقد أن المهمة التى تفرض نفسها هنا هى تبين الاطار العام لعالم إندو الروائى ، ومتابعة ما فى مسيرة هذا العالم من استمرارية أو انقطاع ، عبر محاولة القاص اليابانى الممكنة — المستحيلة لاقتحام التخوم .

ولد شوساكو إندو فى طوكيو ، عام ١٩٢٣ ، ونال درجة علمية فى الأدب

الفرنسي من جامعة كيبو ، وحصل على منحة دراسية من الحكومة اليابانية ، مكنته من مواصلة الدراسة لعدة سنوات في ليون بفرنسا ، عاد إثرها إلى اليابان، حيث شق طريقه في غمار الساحة الأدبية اليابانية . ورفعته سلسلة متوالية من الروايات وكتب الرحلات والمقالات النقدية إلى المكانة ، التى أصبح فيها واحدا من قلة من الروائيين اليابانيين ، يتنافسون على عرش الرواية اليابانية ، الذى شغر بانتحار يوكيو ميشيما ، وذلك إثر حصوله على سلسلة من الجوائز الأدبية البارزة، في مقدمتها جوائز أكوتا جاوا ، مينيشي، شينتشو ، وتانيزاكى ، وترجمت أعماله إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والسويدية ، وعدد كبير من اللغات الأخرى .

ولكن أليس من حق القارئ العربي أن يستشرف آفاق عالم إندو قبل أن يقرأه في لغته ؟ يعد عام ١٩٥٨ الذى شهد صدور رواية «البحر والسم» من المعالم البارزة في مسيرة إندو الأدبية ، ولعل ما حظيت به هذه الرواية من تقدير داخل اليابان وخارجها ، شأن العديد من أعمال إندو ، لايعود إلى التكنيك المستخدم فى نسج جزئياتها ، بقدر ما يعود إلى توهج القضية التى يجرى طرحها ، وتركزها على محاولة بلورة مفهوم جديد لمقولة الخطيئة .

مدخلنا إلى رواية «البحر والسم» [1] إطار يحاكى ما نراه شائعا فى روايات التحرى ، فالفضول يقود مريضا إلى محاولة استكناه أسرار حياة طبيب بارع ، يعمل فى الريف ، فى عزلة وغموض ، يتنافيان وقدراته ، ومع استمرار رحيلنا فى حياة الطبيب تسقط منا شخصية التحرى ، أو المريض الفضولى ، فكأن الاطار سقط منه ضلع كامل ، فى غمار مسيرة الرواية . ولعل ذلك يرجع ، بشكل ما، إلى ما جرى به العرف فى الساحة الأدبية اليابانية ، من نشر الأعمال في المجلات

(١) صدرت هذه الرواية ، من ترجمتنا ، فى عام ١٩٨٥ ، ببيروت ، عن دار التنوير للطباعة والنشر .

والدوريات، ثم جمعها ، فى مرحلة لاحقة ، بين دفتى كتاب . وفى هذا العمل ، سيدهشنا أن الطبيب الوحيد ، ذلك القابع مهملا فى أعماق الريف ، الذى أبدى حسا مرهفا بما فى الخطيئة من أهوال ، قد وصل إلى مرحلة الجمود ، حينما بدأت مجموعته في القيام بعملية تشريح للأحياء من الأسرى الأمريكيين ، لكشف آفاق جديدة فى عالم الجراحة ، وبعد سنوات طويلة ، نجده لايزال يتردى فى جحيم هذه الأهوال .

والرواية التى حملت اسم إندو إلى آفاق أبعد ، فى عالم الشهرة ، هى الماثلة بين يدى القارئ ، والتى قال عنها القاص الانجليزى الشهير جراهام جرين إنها : «فى رأيي واحدة من أجمل الروايات فى عصرنا » ، تنتقل من تشريح مفهوم الخطيئة ، إلى وضع مفهومى الألوهية والدين موضع إعادة التناول ، فى خطوة تعيد إلى أذهاننا خلاصة ما طالعناه من جمهورية أفلاطون إلى «تقرير لجريكو» ، الذى خط فيه العملاق اليونانى نيكوس كازانتزاكيس خلاصة تجربته فى عالم البشر ، قبيل رحيله عنه .

فى مقابلة مع إندو ، أجراها جارى ويلز ، ونشر مضمونها فى «نيويورك ريفيو أوف بوكس» ، يقول الروائى اليابانى : «لقد جعلتنى أمى فى الثالثة عشرة من عمرى ، أرتدى ملابس غربية ، لا تناسبنى ، ومنذ ذلك اليوم أحاول ، دونما نجاح، أن أجعل من هذه الملابس كيمونو» .

وتلك حقا مشكلة الضمير اليابانى ، كما يتصورها إندو ، على نحو رمزى ، فهو يتساءل عما إذا كان مفهوم الرب ، كما تنقله الكاثوليكية الى الضمير والوجدان والعقل اليابانى، هو المفهوم الصحيح ،وعما إذا كانت الكاثوليكية ذاتها شجرة تضرب ، لدى تفرعها فى اليابان ، جذورها فى الأرض ، أم أنها تنمو فى مستنقع ، وسرعان ما تذوى ، وتنهار .

إن القس فى رواية «الصمت» يصارع فى كل لحظة هزيمته ، ولكن هذه الهزيمة هى ، فى تصور إندو ، تمجده ، وإذا ما قدر له ان يدهس الوجه المنقوش على الايقونة ، فإنه يؤكد جدارة المسيح . ووجه المسيح الباسم ، عبر الأيقونة التى دهستها آلاف الأقدام ، لا يلومنا ، وإنما يؤكد لنا أن المسيح لم يبعث إلا ليحمل عن الفقراء والمضطهدين والضائعين المغتربين انسحاقهم . وبكلمة ، لقد ولد المسيح لتداس صورته . وفى غمار هذا كله ، يوضع مسيح الكنيسة الكاثوليكية ، الملتف بالذهب والحرير ، موضع الشك والتساؤل .

فى رواية «الأحمق العجيب» ، يطرح إندو ، لأول مرة ، إشارة إلى مخرج محتمل من المستنقع ، الذى قد يلحق الهزيمة ببطل «الصمت» ، كما يكشف كذلك عن حس بالغ الرهافة بالفكاهة والسخرية اللماحة ، ويضرب صعدا فى عالم السرد الروائى . فالبطل جاستون بونابرت ، وهو زائر فرنسى شاب لليابان ، يصدم مضيفيه تاكمورى وأخته تومو، بحماقته البالغة ، وسذاجته التى لاتعرف الحدود ، لكنه بالمقابل يملك هذا الحب النادر ، للبشر والكائنات كافة ، الذى يدفعه إلى حتفه ، ويدفع الآخرين معه إلى مواجهة أنفسهم ومصارعة تحدى التغير .

وإندو يواصل النفخ فى جمرات الذنب ، التى تتوهج فى الضمير اليابانى، عبر روايته الصادرة عام ١٩٥٤ بعنوان «حينما أصفر» ، ويشدد على أن اليابان لم يكن فيها ما يدعو للشعور بالذنب ، خلال الحرب العالمية الثانية فحسب ، وإنما فى حياتها الراهنة كذلك . فالبطل أوزو يتذكر شبابه ، قبل الحرب، فيما هو يراقب مسيرة ابنه ، فى محاولته تلميع اسمه ، فى مجال الطب، وبالمقابل هناك «فلاتفتيش» صديق البطل، المتناقض ، والمقيت ، والغارق فى عشق مجنون لفتاة ، يعرف تمام المعرفة ألا سبيل إلى استحواذه عليها ، ولا يدرك أوزو عمق الصلة بين

حياته وحياة «فلا تفتيش» ، إلا حين يطلعه الطموح الوحشي ، الذي يأكل فؤاد ابنه، على جوهر الترابط بين الحياتين .

وفي رواية من أكثر رواياته إحكاما ، من الناحية الفنية ، هي رواية «البركان» يوضح إندو التضارب الحاد بين مراكمة الثروات وبين إعادة النظر في أعماق مفاهيم الضمير الياباني ، بما في ذلك القدر والعناية الالهية . والشخصيات الرئيسية هنا قس مسيحي ، يرغب في بناء دار تابعة للكنيسة فوق جبل ، تتضارب الأقاويل حول ما إذا كان البركان الذي يتوجه خامدا ، أم أنه يوشك على أن يدفع بحممه إلى البحر . وبالمقابل ، يأمل كاهن مرتد أن يثور البركان ، لعله يحطم قشرة الإيمان السطحية ، ويخلق إيمان الأعماق . ويبذل رجل الأعمال الياباني النشط جهده لتلميع صورة السلام فوق الجبل . أما رجل الأرصاد الجوية المخضرم فيتصور حياته امتدادا لحياة البركان . ورغم هذا كله ، فإن البطل الحقيقي يظل البركان نفسه ، ويبقى التحدي الذي يطرح علينا قائماً ، حتى السطر الأخير من العمل ، ويظل السؤال معلقا مع ثورة البركان ، التي لاتقع أبدا، وإن كان يمكن أن تقع في أي لحظة .

وفي عمل يعده النقاد المهتمون بالأدب الياباني من أكثر الأعمال قدرة على اثارة الاهتمام والجدل ، هو روايته الأخيرة «الساموراي» يستمد إندو مادته ، شأن الحال في «الصمت» ، من حادثة تاريخية واقعية ، ففي أكتوبر ١٦١٣ انطلق أربعة من الساموراي ، راحلين عبر البحر إلى المكسيك ، في سفينة أعدت خصيصا لهذا الغرض ، وبصحبتهم راهب اسباني كمترجم لهم ، وكان الهدف من هذه البعثة الغريبة الحصول على امتيازات تجارية في الغرب ، مقابل حق المبشرين الأوروبيين في التبشير بالمسيحية على أراضي اليابان ، ومع وصول البعثة إلى طريق مسدود في المكسيك ، رحلت إلى أسبانيا وايطاليا ، ورغم

تحول الساموراى الأربعة إلى المسيحية ، واستقبال فيليب الثالث عاهل أسبانيا والبابا بولس الرابع لهم ، فإن رحلتهم لم تثمر شيئا ، فعادوا إلى اليابان في ١٦٢٠ .

وقد استخدم إندو هذا الفصل ، الذى أوشكت يد النسيان أن تطويه ، من تاريخ اليابان ، أساسا تنطلق منه روايته ، ورغم التزامه بالهيكل التاريخي، فقد حوّل مغامرة الساموراى الأربعة إلى سجل يمس القلب للرحلة الروحية التى قام بها أحدهم ، وهو هاسيكورا روكيومون ، وللصراع الضارى الذى يعيش فيه الراهب رفيق الرحلة .

غير أن الجانب الذى يستحق إلقاء ضوء مكثف حقا ، فى عالم شوساكو إندو، أكثر من غيره ، يتمثل فى عمل غير روائي هو كتابه «حياة المسيح» .

يبدو هذا الكتاب ، الذى يقع فى مجلد صغير الحجم ، محدود الصفحات ، كما لو كان ، عند النظرة الأولى ، مؤلفا تعليميا ، أوليا ، موجها إلى غير المؤمنين بالمسيحية ، لكن الكتاب ، في جوهره ، وكما لاحظ أحد النقاد ، هو إعادة كتابة لمؤلف فرانسوا مورياك ، الذى يحمل العنوان نفسه : «حياة المسيح» ، وقد كان كتاب مورياك ، بدوره رد فعل لكتاب إرنست رينان ذائع الصيت ، الذى يحمل العنوان ذاته كذلك.

لقد تحدث رينان فى كتابه عن المسيح ، فصوره عاشقا للطبيعة ، شاعرا ، طلقا ، يتغنى بها ، شخصية رعوية ، ترقد الأسود فى رحابها إلى جوار الحملان ، وتستحيل بدورها إلى حملان هادئة صغيرة مرحة . وما أحدثه مورياك كان طرح هذه المشاهد ذاتها ، وقد لفها الليل ، فالمسيح هنا يتحرك ليلا فى قلوب البشر المعتمة ، لايجلب العقل ليقنع ، وإنما المحبة لتغفر .

وإندو يقلب موازين الاضاءة ، فى حياة المسيح ، لأنه يرى أن البراءة الوهاجة، التى تاق رينان إليها ، هى العدو الحقيقى للمسيح ، وينتقد بشدة المبشرين ، الذين قدموا المسيح لليابان ، باعتباره الأب المنتقم ، فى التقاليد اليهودية والغربية ، ويشدد على الجانب الضعيف ، بل والأحمق ، فى شخصية المسيح ، بل هو لا يتردد فى القول بأن صورته إنما خلقت لتدوسها أقدام المعذبين . ولما كانت التقاليد اليابانية والضمير اليابانى يرفضان تقديس ما داسته الأقدام ، ويأبيان مواجهة الحرج ، باعتباره موتا آخر ، فإن إندو يضع كلا من جوهر هذه التقاليد ، ونسيج هذا الضمير ، وأبعاد هذه القداسة ، جميعها ، موضع التساؤل والمراجعة .

وهكذا ، فإن «صمت» إندو هو صمت صارخ ، مترع بالتساؤلات ، مفعم بالرحيل الشاعر نحو آفاق جديدة منفتحة .

المترجم

مُفتتح

بلغ النبأ الكنيسة في روما ، أن كريستوفاوفيريرا ، الذى أرسلته جمعية اليسوع فى البرتغال إلى اليابان ، قد ارتد عن المسيحية ، بعد تعرضه للتعذيب فى «الحفرة» ، فى نجازاكي . كان داعية مخضرما ، يحظى بأسمى آيات التوقير ، أمضى ثلاثة وثلاثين عاما في اليابان ، وشغل منصب الأسقف السامى ، وكان مصدرا للإلهام ، بالنسبة للقس وللمسيحيين المخلصين على السواء .

وكان عالما متضلعا فى اللاهوت ، يتمتع بمقدرة كبيرة ، في عهد الاضطهاد شق طريقه إلى إقليم كاميجاتا لمواصلة عمله كداعية . ومن هذا الإقليم ، بعث بخطاب إلى روما ، يفيض بروح شجاعة لاتقهر . لم يكن ثمة مجال للظن بأن مثل هذا الرجل سيتخلى عن عقيدته ، أيا كانت الظروف الرهيبة التى تفرض عليه . تساءل الناس في جمعية اليسوع ، وكذلك فى الكنيسة بعامة ، عما إذا لم يكن الأمر بأسره نبأ مختلقا ، ابتدعته قريحة الهولنديين ، أو اليابانيين .

لم يكن الأمر راجعا إلى أن الكنيسة فى روما كانت تجهل الظروف المتأزمة ، التى كانت البعثة اليابانية تمر بها ، فلم تدع الرسائل التى بعث بها الدعاة مجالاً للشك فى هذا . ومن ١٥٨٧ قلب الحاكم هايديوشى سياسة أسلافه رأساً على عقب، وبدأ اضطهادا مفزعاً للمسيحية ، بدأ الأمر أول ما بدأ حينما عوقب ستة وعشرون قسا ومعتنقا للمسيحية ، فى نيشيزاكا بنجازاكي ، أعقب ذلك طرد المسيحيين على امتداد البلاد من دورهم ، وتعذيبهم ، ثم اعدامهم بضراوة ، واتبع الشوجون توكوجاوا السياسة ذاتها ، فأمر بطرد الدعاة كافة من اليابان فى عام ١٦١٤

تحدثت التقارير ، التي بعثها المبشرون ، عن الكيفية التي تم بها ، في السادس والسابع من أكتوبر في ذلك العام عينه ، جمع سبعين قسا يابانيا وأجنبيا في كيباتشي بكيوشو ، وأرغموا على أن يستقلوا خمس سفن شراعية صينية ، كانت في طريقها إلى ماكاومانيلا . أبحروا في طريقهم إلى المنفى . كان يوما مطيرا ، والبحر عاصفا ، في لون الرماد ، فيما كانت السفن التي لفها المطر مدرارا تشق طريقها خارج المرفأ ، مارة إلى جوار قنة الجبل الناتئة في البحر ، وتحتجب وراء الأفق .

غير أن سبعة وثلاثين قسا أعرضوا عن مرسوم النفي القاسي هذا ، ورفضوا التخلي عن رعيتهم ، ومكثوا سرا في اليابان . كان فيريرا واحدا من أولئك القسس ، الذين اعتصموا بالسرية . واصل ابلاغ رؤسائه ، عن طريق الرسائل ، باعتقال الدعاة والمسيحيين والعقاب الذي أنزل بهم ، ولا تزال باقية اليوم رسالة كتبها من نجازاكي في ٢٢ مارس ١٦٣٢ إلى الأسقف القائم بجولة تفقدية أندرو بالميرو ، مدليا فيها بوصف مسهب للأوضاع السائدة في ذلك الوقت :

«في رسالتي السابقة ، أطلعت نيافتكم على موقف المسيحية في هذه البلاد ، والآن سأمضي قدما في ابلاغكم بما وقع منذ ذلك الحين . أسفر الأمر كله عن اضطهاد جديد ، قمع جديد ، معاناة جديدة ، دعوني أبدا الصورة التي أرسمها هنا بقصة للرجال الورعين الخمسة الذين اعتقلوا منذ عام ١٦٢٩ جراء تدينهم ، إن اسماءهم هي بارتلميو جوتيرز ، فرانشيسكو دي جيسوس ، فانسنت دي سان انطونيو ، المنتمي إلى سلك رهبنة القديس أوغسطين ، أنطونيو ايشيدا ، من جمعيتنا ، وجابرييل دي سانتا مجدلينا الفرنسسكاني .

حاول تاكيناكا أونيمي، حاكم نجازاكي ، اجبارهم على أن يرتدوا عن دينهم والهزء بديننا الحنيف ومعتنقيه ، إذ كان يأمل بأنه على هذا النحو سيطيح بشجاعة المؤمنين ، لكنه سرعان ما أدرك أن الكلمات وحدها لن تهز أبدا ثبات

أولئك القسس ، ولذا اضطر الى اتباع مسلك مختلف ، أى إلقائهم فى جحيم الماء المغلى فى أونزين .

أصدر أوامر بأن يجلب القسس الخمسة إلى أونزين ، وأن يحيق بهم العذاب ، إلى أن يتخلوا عن دينهم ، على ألا يعدموا بحال . وبالاضافة إلى القسس الخمسة، أمر بتعذيب بياتريس داكوستا ، زوجة انطونيو داسيلفا وابنتها ماريا ، حيث إنهما بدورهما ، ورغم محاولات الاقناع كافة ، رفضتا التخلى عن دينهما .

وفى الثالث من ديسمبر ، غادر الجمع نجازاكى ، فى الطريق إلى أونزين ، حُملت المرأتان فى محفتين ، فيما وضع الرجال الخمسة على ظهور الخيل ، وعلى هذا النحو ، ودعوا المدينة . لدى وصولهم إلى الميناء ، على مبعدة من نجازاكى قيدت أذرعهم وأيديهم ، وغللت أقدامهم ، ووضعوا على سطح سفينة ، مقيدين فى إحكام إلى أحد جوانبها .

بلغوا فى ذلك المساء مرفأ أوباما ، عند سفح أونزين . فى اليوم التالى ، تسلقوا الجبل ، حيث زج بالسبعة ، كل على حدة ، فى كوخ صغير وظلوا ليلا ونهارا فى عزلتهم . أذرعهم مقيدة والاغلال تحيط بأقدامهم فيما ضرب الحراس نطاقا من الحراسة حولهم . واصطف الحراس كذلك على امتداد الطريق الى الجبل ، ولم يسمح لأحد ، دون تصريح من المسئولين ، باجتياز ذلك الطريق .

فى اليوم التالى، بدأ التعذيب بالطريقة التالية . واحدا إثر الآخر عزل السبعة عمن يحيط بهم ، وجئ بهم إلى حافة بحيرة متقدة الماء ، وأتيح لهم النظر إلى الماء الغالى ، وهو يلقى برذاذة عاليا فى الهواء . عندئذ أهيب بهم التخلى عن تعاليم المسيح ، وإلا عانوا فى أبدانهم ذاتها الألم المخيف الذى يبعثه الماء الغالى الممتد أمامهم . جعل الطقس البارد البخار المتصاعد من البحيرة ، التى غطت الفقاقيع سطحها ، يبدو مفزعا حقا ، وكان من شأن مرآه فحسب أن يجعل رجلا قويا

يصاب بالاغماء ، لولا رحمة الله . لكنهم جميعا ، بفضل من الله ورحمة ، أبدوا شجاعة منقطعة النظير ، بل وطلبوا إيقاع العذاب بهم ، معلنين فى ثبات أنهم لن يتخلوا عن دينهم الحنيف . ولدى سماع المسئولين لهذا الرد الجسور ، مزقوا ملابس السجناء ، وقيدوهم من أيديهم وأرجلهم إلى أعمدة ، واغترفوا الماء الغالى بمغارف ، وصبوه على أجسادهم المعراة . كانت هذه المغارف ذات صف من الثقوب ومليئة بها، حتى تستغرق هذه العملية وقتا يعتد به ، ويطول أمد المعاناة.

تحمل أبطال المسيح هذا العذاب الرهيب ، دون إجفال أو تراجع ، وحدها الصغيرة ماريا ، التى قهرها فيض معاناتها ، انهارت إلى الأرض من فرط العذاب . صاحوا : «ارتدت .. ارتدت» . حملوها إلى الكوخ ، أعادوها ، على جناح السرعة ، إلى نجازاكي . أنكرت ماريا أنها أرادت الارتداد ، بل توسلت إليهم حقا أن يعذبوها مع أمها والباقين ، لكنهم لم يلقوا بالا إلى توسلاتها .

ظل الستة الآخرون ، على الجبل ، طوال ثلاثة وثلاثين يوما . خلال هذا الوقت، كان القسيسان أنطونيو وفرانشيسكو وكذلك بياتريس قد عذب كل منهم ست مرات في الماء الغالي . عذب الاب فانسنت أربع مرات ، والأبوان بارتلميو وجابرييل مرتين لكل منهما غير أنه ، فى غمار هذا كله ، لم تند أنة ألم أو تنهيدة عن أى منهم .

أبدى الأبوان أنطونيو وفرانشيسكو وكذلك بياتريس داكوستا بصفة خاصة ، والذين لم تفلح أفانين العذاب والوعيد والاغراءات من كل الأنواع فى التقليل من جسارتهم ، شجاعة جديرة بالرجال . وبالإضافة إلى التعذيب بالماء الغالى أخضعت بياتريس للمزيد من التجريد ، بإجبارها على الوقوف ، طوال ساعات ، فوق صخرة صغيرة عارية ، أمام استهزاء وإهانات العامة ، لكنها لم تتراجع ، حتى حينما بلغ سخط جلاديها أقصاه .

لم يكن بالمستطاع تعذيب الآخرين ، بالنظر إلى ضعف حالتهم الصحية ، بضراوة بالغة ، حيث لم يكن الحاكم يرغب فى إعدامهم ، وإنما فى جعلهم يرتدون، ولهذا السبب حقا مضى إلى حد جلب طبيب للجبل للقيام على شأن الجروح .

غير أن أونيمى أدرك أخيرا أنه لن يحظى بالفوز أبدا ، بل كان الأمر على العكس ، فقد أبلغه اتباعه ، لدى رؤيتهم لشجاعة القسس ، أن ينابيع أونزين كافة ستجف قبل أن يكون بالإمكان اقناع رجال بمثل هذه القوة بتغيير عقيدتهم ، لذا قرر إعادتهم إلى نجازاكى ، فى الخامس من يناير ، أودع بياتريس دارا سيئة الصيت ، فيما زج بالقسس فى السجن المحلى ، ولا يزالون هناك .

وكان من شأن هذا الكفاح بأسره نشر مذهبنا فى صفوف الجمهور ، وتدعيم إيمان معتنقي المسيحية ، وأسفر الأمر كله عما يخالف مقاصد الطاغية» .

هكذا كانت رسالة فيريرا . وما كان بوسع روما أن تصدق أن هذا الرجل يمكن ، أيا كان العذاب الرهيب الذى يعرض له ، أن يدفع الى التخلى عن عقيدته، وأن يعفر وجهه بالتراب امام الخارجين من رحاب الدين .

فى ١٦٣٥ تجمع أربعة قسس حول الأب روبينو فى روما ، كانت خطتهم أن يشقوا طريقهم إلى اليابان ، التى تعيش نضالا مستميتا فى مواجهة الاضطهاد ، للقيام بأعمال الدعوة سرا ، وللتكفير عن ردة فيريرا ، التى جرحت بعمق بالغ كبرياء الكنيسة .

فى البداية ، لم يحظ مشروعهم الجنونى بموافقة رؤسائهم ، فعلى الرغم من أن السلطات الكنسية قد تعاطفت مع الحماسة والحمية الحوارية ، التى دفعت إلى وضع مثل هذه الخطة ، إلا أنها شعرت بالتردد فى إرسال المزيد من القسس إلى

مثل هذه البلاد، وإلى بعثة يكتنفها مثل هذا الخطر . من ناحية أخرى ، كانت تلك بلادا غرست فيها البذرة الطيبة كأوفر ما يكون منذ أيام فرانسيس كزافيه ، وكان تركها دون قادة روحيين ، والتخلي عن المسيحيين بها ، وتركهم لقدرهم ، أمرا لايخطر على البال . فضلا عن هذا ، فإنه فى أوروبا تلك الأيام لم يكن اجبار فيريرا على التخلى عن عقيدته ، فى هذه البلاد النائية ، عند حواف العالم ، فشلا فرديا ، وإنما هو هزيمة ، تبعث الشعور بالهوان ، بالنسبة للعقيدة ذاتها ، ولأوروبا ككل . تلك كانت طريقة التفكير السائدة ، هكذا فبعد متاعب ومصاعب شتى سمح للأب روبينو وزملائه أخيرا بالابحار .

غير أنه بالاضافة إلى هذه المجموعة ، كان هناك ثلاثة قسس آخرون ، يعتزمون دخول اليابان سرا ، بالطريقة ذاتها ، لكنهم كانوا برتغاليين ، وكان السبب الذى يحدوهم للرحيل مختلفا ، إذ كانوا من طلاب فيريرا ، وقد تلقوا العلم على يديه ، فى دير كامبولايد العتيق . بالنسبة لهؤلاء الرجال الثلاثة ، فرانشيسكو جاربى ، جوان دى سانتا مارتا ، سباستيان رودريجيز ، كان من المستحيل تصديق أن معلمهم فيريرا ، الذى يعجبون به أشد الاعجاب ، عفّر وجهه بالتراب ، كأنه كلب ، أمام اليابانيين حين واجه احتمال أن يلقى استشهادا مجيدا ، وبهذه المشاعر خاطبوا السلك الرهبانى البرتغالى .

سيمضون إلى اليابان ، ويتحرون الأمر بأعينهم . ولكن فى هذه الحالة ، كما فى ايطاليا ، تمهل رؤساؤهم فى إبداء الموافقة . غير أنهم أخيرا ، وقد غلبهم إلحاف القسس الشبان ، وافقوا على إرسال هذه البعثة الخطرة إلى اليابان . كان ذلك فى عام ١٦٣٧ .

انطلق القسس الشبان الثلاثة ، بالتالى ، يعدون لرحلتهم الطويلة الشاقة. كان من المعتاد ، فى تلك الأيام ، بالنسبة للدعاة البرتغاليين الذين يمضون للشرق ، أن

يلحقوا بالأسطول المنطلق من لشبونة إلى الهند . كان رحيل هذا الأسطول الهندى إحدى الوقائع الأكثر اثارة ، على امتداد العام ، في لشبونة . انتصب امام نواظر الرجال الثلاثة ، في ألوان صاخبة الحياة ، مشهد مشرق ، هو من الدنيا فى منتهاها ، ويابان تمتد فى أقصى أطرافها . حين يفض المرء أطراف الخريطة ، يرى تجسيد افريقيا ، ثم الهند ، تعقبها الجزر التى لاحصر لها ، وبلاد آسيا متناثرة جميعها ، ثم فى أقصى الشمال الشرقى ، ومثلما يرقانة الفراشة تماما ، يمتد شكل اليابان الدقيق . لكى يصل المرء إلى هذه البلاد عليه أولا أن يمضى إلى جوا فى الهند ، ثم عبر البحر لأميال عديدة ، ولأسابيع وشهور على المرء أن يواصل المسير . منذ زمان القديس فرانسيس كزافيه ، كانت جوا البوابة التى يلجها العمل في الدعوة بكامله في الشرق، بها معهدان دينيان ، يدرس فيهما الدعاة الاوروبيون الأوضاع فى البلد الذى يقصدونه . وفى بعض الأحيان ، كان الدعاة يضطرون للانتظار ستة أشهر ، وربما عاما ، قبل أن تتاح لهم سفينة ، تقلهم إلى مقصدهم .

جالد القسس الثلاثة ، بكل قوتهم ، للإلمام بالظروف السائدة فى اليابان ، قدر استطاعتهم ، ومن حسن الطالع أن العديد من التقارير ، التى أرسلها الدعاة البرتغاليون منذ عهد لوى فروا ، كانت متوافرة ، فكشفت لهم النقاب عن الكيفية التى تبنى بها الشوجون الجديد أيمتسو سياسة القمع ، على نحو فاق ما لجأ إليه أبوه وجده ، ومنذ عام ١٦٢٩ ، وبصفة خاصة فى نجازاكى ، أوقع الحاكم تاكيناكا أونيمى بالمسيحيين أكثر ضروب المعاناة الفظيعة تجردا من الإنسانية، حين ألقى بهم فى بحيرات الماء الغالي ، وهو يدعوهم إلى التنكر لعقيدتهم وتغيير دينهم . قيل إنه فى اليوم الواحد كان عدد الضحايا يبلغ أحيانا مالا يقل عن ستين أو سبعين ضحية ، وبما أن فيريرا هو الذى بعث بهذا النبأ ، فما كان يمكن

أن يدور الشك حول صحته . وقد أدرك الدعاة الجدد على أى حال أنهم ينبغى ، من البداية ، أن يتسلحوا بالادراك وبالقناعة بأن منتهى رحلتهم الشاقة قد يضعهم في مواجهة قدر أكثر اثارة للرهبة من أى من ضروب المعاناة، التى تحملوها في الطريق .

ولج سباستيان رودريجيز في ١٦١٠ في بلدة تاسكو ، الشهيرة بنشاطها التعديني ، رحاب حياة الرهبان ، في السابعة عشرة من عمره . زامله جوان دى سانتا مارتا وفرانشيسكو جاربي ، وكلاهما صديق له ، في الدراسة بمعهد كامبولايد الديني . منذ الأيام الأولى للدراسة بالمعهد الثانوى ، أمضوا أوقاتهم عاكفين على الدرس . وعاشت في وجدانهم جميعا ذكريات متوهجة ، عن معلمهم الكهل فيريرا ، الذى درسوا اللاهوت على يديه .

كان فيريرا هذا بذاته في مكان ما الآن من اليابان . هل تغير ذلك الوجه بعينيه الزرقاوين الصافيتين .. هل تغير على أيدى الجلادين اليابانيين ؟ ذلك كان السؤال الذى طرحوه على أنفسهم . استعصى عليهم أن يصدقوا أن هذا الوجه يمكن أن يكون مشوَّهاً ، الآن ، جراء الاهانات التى انهالت عليه ، وما كان بمقدورهم أن يظنوا أن فيريرا قد أشاح عن الرب ، ونأى عنه بجانبه ، ونبذ تلك الرقة الرقيقة التي كانت تسم أفعاله جميعها . أرادوا أن يبلغوا اليابان ، من أى سبيل ، وأن يعرفوا كنه حقيقة المصير الذى قدر لفيريرا .

في الخامس والعشرين من مارس ١٦٣٨، أبحر الاسطول الهندى من نهر تاجوس ، وسط دوى المدافع ، التى أطلقت من قلعة بيليم . كان الدعاة الثلاثة على متن السفينة سانتا ايزابيلا ، حيث صعدوا إلى سطح سفينة القيادة ، بعد أن باركهم الأسقف جواو داسكو . حينما بلغوا مصب النهر الغربى ، وانطلقوا في

رحاب زرقة البحر ، التى عانقتها الظهيرة ، انحنوا على جانب السفينة ، يرقبون القنة الناتئة والجبل الملتمع كالذهب . ثمة ، امتدت جدران دور المزارع حمراء اللون ، الكنيسة ، ومن برجها حملت الريح دوى الأجراس ، التى قرعت تحية وداع للسفن الراحلة إلى عباب البحر .

الآن ، إلى رحلتهم حول افريقيا ، فى الطريق إلى الهند . بعد ثلاثة أيام من الرحيل ، لطمتهم عاصفة هوجاء ، على الساحل الغربي لافريقيا .

في الثاني من أبريل ، بلغوا جزيرة بورتوسانتو ، بعدها وصلوا جزر الماديرا ، فى ٦ ابريل بلغوا جزر الكنارى ، حيث صادفوا أمطارا لاتنقطع ، تهمى من السماء ، التى لاتخدش سكونها هبة ريح . في السكون العارى تماما من الرياح ، كانت الحرارة أقصى مما يحتمله البشر . عندئذ ، وبالإضافة إلى كل ما يعانونه ، انتشر المرض بينهم . على سطح «سانتا ايزابيلا» وحدها ، وفي مخادعها ، رقد ما يزيد على مائة ضحية يتوجعون . عكف رودريجيز ورفيقاه مع البحارة على العناية بالمرضى ، وتقديم العون فى حجامتهم .

الخامس والعشرون من يوليو ، عيد القديس جيمس ، دارت السفينة أخيرا حول رأس الرجاء الصالح . في هذا اليوم ، هبت من جديد رياح هوجاء ، فتحطم قلع السفينة ، وهوى على سطحها ، بصوت عال ، استرعى حتى المرضى مع رودريجيز ورفيقيه لإنقاذ القلع الامامي من الخطر ذاته . ما إن أفلحوا فى محاولتهم ، حتى ارتطمت السفينة بصخرة ، ولو أن السفن الأخرى لم تكن قريبة ، فتهرع بالعون ، لقدر «لسانتا ايزابيلا» أن تغرق لساعتها ، فى ذلك الموضع .

بعد العاصفة هدأت الرياح ، جثم القلع عاريا من الحياة . وحده ظله قاتم السواد سقط على وجود وأجساد المرضى ، الراقدين كالأموات على السطح . على

هذا النحو ، انقضت الأيام بعضها فى أثر بعضها الآخر ، ووقدة الشمس المتألقة تنصب سياطا على البحر ، الذى لا ترقش وجهه تجعيدة موجة .

أطالت هذه الاحداث الفاجعة أمد الرحلة ، حتى ندر الطعام والماء ، أخيرا فى التاسع من أكتوبر ، بلغوا مقصدهم : جوا .

تمكنوا ، بعد الوصول ، من الإلمام بأنباء أكثر تفصيلا عن اليابان ، بالمقارنة بما كان متاحا فى الوطن . قيل لهم إنه منذ يناير من العام الذى أبحروا فيه قام خمسة وثلاثون ألف مسيحى بانتفاضة فى شيمابارا . وفى غمار الصراع الذى نشب آنذاك مع قوات الباكوفو ، ذبح المنتفضون حتى آخر رجل ، رجالا ، نساء ، شيبا ، شبابا ، ذبحوا جميعا . كنتيجة للحرب ؛ أقفرت المنطقة ، حتى أن العين ما كانت لتقع على ظل بشرى ، فيما طورد المخلفون من المسيحيين ، واحدا إثر الآخر . غير أن النبأ الذى صدم رودريجيز ورفيقيه ، أشد ما تكون الصدمة ، كان قيام اليابان ، كنتيجة لهذه الحرب ، بقطع علاقاتها التجارية ومعاملاتها كافة مع بلادهم ، فقد حظر على السفن البرتغالية دخول مرافىء اليابان .

بلغ هؤلاء القسس الثلاثة ماكاو ، مدركين أن السفن البرتغالية ليس بمقدورها حملهم إلى اليابان . فداخلهم اليأس .

كانت مدينة ماكاو ، فضلا عن كونها قاعدة العمليات البرتغالية فى الشرق الأقصى ، قاعدة للتجارة مع الصين واليابان ، ومن ثم كان هناك احتمال أن ضربة من ضربات الحظ الحسن يمكن ، إذا ما انتظروا هناك ، أن تساعدهم فى مواصلة الرحيل .

ما أن وصلوا ماكاو ، حتى تلقوا نصيحة واضحة من الأسقف فالينانو ، القائم

بأعمال التفتيش هناك ، في ذلك الوقت . قال إنه لا موضع للحديث الآن عن الدعوة في اليابان ، كما أنه لايعتزم ارسال أي داعية إلى بلاد تحدق بها مثل هذه الأخطار . إذ ينبغي أن يقال إنه منذ العهد الذي بدأ فيه الاضطهاد في اليابان عهدت بادارة الاسقفية التابعة لجمعية اليسوع في اليابان بكاملها إلى هذا الرئيس ، فاليناو ، الذي أسس قبل عقد من الزمان ، في ماكاو ، كلية لإعداد الدعاة المتجهين إلى الصين واليابان .

فيما يتعلق بفيريرا ، الذي كان الرجال الثلاثة يعتزمون البحث عنه ، عقب وصولهم إلى اليابان ، أدلى فاليناو بما يلي : منذ عام ١٦٣٣ انقطعت الانباء كافة عن البعثة السرية ، فجأة وبشكل بات ، حكى البحارة الهولنديون العائدون من نجازاكي أن فيريرا أسر ، وعذب ، في الحفرة ، عقب ذلك ساد الغموض كل شئ ، واستحال بحث الوقائع الصحيحة . كان مرد ذلك أن البحارة الهولنديين غادروا اليابان في اليوم ذاته الذي علق فيه فيريرا بالحفرة . الشئ الوحيد الذي أمكن أن يقال عن يقين هو أن فيريرا تعرّض لمحكمة تفتيش ، على يد إينوى ، سيد شيكوجو ، الحاكم الذي عُيّن حديثا . وعلى أى حال ، فإن ارسالية ماكاو لايمكنها أن توافق على سفر القسس إلى اليابان ، في مثل هذه الظروف . ذلك كان الرأى الصريح ، الذي أعرب عنه فاليناو .

بمقدورنا اليوم أن نطالع بعض رسائل سباستيان رودريجيز في مكتبة «معهد الدراسات التاريخية للأراضى الأجنبية» بالبرتغال . تبدأ أولى هذه الرسائل في الوقت الذي حدّث فيه فاليناو رودريجيز ورفيقيه عن الموقف في اليابان .

الفصل الأول
رسالة سباستيان رودريجيز

السلام على المسيح والثناء له .

كنت قد أبلغتك كيف أننا وصلنا إلى جوا ، فى التاسع من أكتوبر ، الآن فى الفاتح من مايو ، بلغنا ماكاو . فى غمار هذه الصعوبات والمشاق جميعها ، التى تكبدناها جراء الرحلة ، حل الاعياء البالغ بجوان دى سانتا مارتا ، ويبدو أنه أصيب بالملاريا ، هكذا ، فإننى وفرانشيس جاربى نعمل بأقصى ما فى وسعنا فى كلية الارسالية هنا . ويقينا أننا قوبلنا بترحاب رائع .

غير أن المشكلة هى أن الأب فالينانو عميد الكلية ، الذى أنفق عقدا من الزمان هنا ، يعارض تماما رحلتنا إلى اليابان . فى غرفته المطلة على الخليج ، حدثنا تفصيلا ، وهاك لب ما قاله : « إننى مضطر لرفض إرسال المزيد من المبشرين إلى اليابان . فالرحلة عبر البحر بالغة الخطورة ، بالنسبة للسفن البرتغالية ، وستصادفون العوائق شتى ، قبل أن تطأ أقدامكم تلك البلاد » .

ليست معارضته مجافية للمنطق تماما ، وذلك فى ضوء الحقيقة القائلة بأن الحكومة اليابانية قامت منذ ١٦٣٦ ، وفى ضوء تشككها فى أن البرتغاليين كانوا على صلة ما بتمرد شيمابارا ، بقطع العلاقات التجارية كافة معهم ، وبصورة شاملة . لم يقتصر الأمر على هذا ، وإنما فى غمار الرحلة من ماكاو كانت البحار القريبة من اليابان تعج بالسفن الحربية الانجليزية والهولندية ، التى دأبت على فتح النار على سفننا التجارية .

قال جوان دي سانتا مارتا ، طارفا بعينيه ، محموما : مع ذلك فإن ارسالياتنا السرية يمكن بعون الله أن تكلل بالتوفيق . في تلك الأرض الموبوءة فقد المسيحيون قسسهم ، وغدوا مثل قطيع أغنام بلا راع ، لابد لأحد أن يمضي ليهبهم الشجاعة، وليتيقن من أن شعلة الإيمان الواهنة لن تنطفيء .

لدى سماع هذه الكلمات ، مر ظل عابر بوجه فالينانو ، فالتزم الصمت . يقينا أنه كان حتى اليوم حائرا بين واجبه كرئيس ومصير المسيحيين التعساء المضطهدين ، من ثم لم ينبس العجوز بكلمة ، وأراح جبينه على يديه .

من غرفته ، كان بمقدور المرء أن يشاهد مرفأ ماكاو ، في البعيد ، كان البحر داميا ، تحت الشمس الغاربة ، طفت سفن شراعية سوداء على سطح الماء ، متناثرة هنا وهناك ، محاكية لطخا سوداء .

– ثمة شئ آخر ، لدينا واجب إضافي ، فنحن ننشد العثور على الحقيقة ، في شأن معلمنا فيريرا .

– لم نحط بالمزيد عن فيريرا ، والأنباء المتعلقة به غامضة ، على أي حال ليس لدينا ، في الوقت الراهن ، أي خطط لتبين وجه الحقيقة من الزيف ، فيما قيل عنه.

– أهو حي ؟

– حتى هذا لا نعرفه ..

قالها فالينانو ، رفع رأسه ، وندت عنه تنهيدة عميقة ، وهو يضيف :

– فجأة انقطعت التقارير ، التي كان يبعث بها إلي في انتظام منذ عام ١٦٣٢، وليس بمقدورنا ، في الوقت الراهن ، أن نقول شيئا عما إذا كان قد أصيب بمرض، هلك في أعقابه ، أو أنه يرقد في سجن الخارجين من رحاب الدين أو –

كما تتصورون – ظفر بشهادة مجيدة ، أو أنه لا يزال حيا ، يحاول ارسال تقرير ما ، دون أن يستطيع ذلك .

لم يتفوه فاليناتو بكلمة واحدة ، عن الشائعات التي دارت حول أن فيريرا قد انهار ، تحت وطأة عذاب أعدائه ، كان شأننا يتوق إلى تفنيد مثل هذه الاتهامات الوهمية ، التي كيلت لصديقه القديم .

تحدث فاليناتو ، الآن ، ببعض التأكيد :

– فضلا عن ذلك .. فقد ظهر في اليابان حاليا شخص ، هو مصدر رعب حقا للمسيحيين ، اسمه اينوى .

تلك كانت المرة الأولى التي نسمع فيها اسم اينوى . استطرد فاليناتو ، قائلا إنه بالمقارنة بوحشية اينوى يبدو رجل مثل تاكيناكا ، الحاكم السابق لناجازاكي ، الذي ذبح العديد من المسيحيين ، شخصا ساذجا .

لكي نطبع على أسطح ذاكراتنا اسم هذا الياباني ، الذي سنلقاه يقينا ، عقب نزولنا ساحل اليابان ، مرارا وتكرارا رحنا نردد المقاطع الغريبة :

إ يـ – نو – ى .

توافرت لدى فاليناتو معلومات كثيرة عن هذا الرجل ، من التقرير الأخير الذي بعث به المسيحيون في كيشو . غدا عمليا ، منذ تمرد شيمابارا ، العقل المفكر لحملة اضطهاد المسيحيين ، كان على العكس من سلفه تاكيناكا ، خبيثا كالحية، حتى أن المسيحيين الذين لم يعفروا وجوههم بالتراب ، حتى الآن ، في مواجهة التهديدات وأفانين العذاب ، راحوا يتساقطون واحدا إثر الآخر أمام ألاعيبه الماكرة .

أضاف فاليانو :

- والحقيقة المحزنة أنه كان من معتنقى ديننا ، بل إنه ممن عمدوا بالكنيسة .

ربما يكون بمقدورى تزويدكم بالمزيد من المعلومات عن هذا الجلاد ، فيما بعد ، لكن ما أريد أن أحدثك عنه الآن هو أن فاليانو ، رغم كونه رئيسا حذرا ، قد تأثر بإلحافنا أخيرا ، وبصفة خاصة من جانب جاربى ، ووافق على إرساليتنا السرية إلى اليابان . هكذا سبق السيف العزل . من أجل هداية اليابان ، ومجد الرب ، شققنا طريقنا إلى الشرق ، الآن نواجه مستقبلا تكتنفه يقينا مخاطر ومصاعب ، أعظم من تلك الرحلة البحرية حول افريقيا وعبر المحيط الهندى ، ولكن «وإذا اضطهدوكم فى مدينة ، فاهربوا إلى غيرها » فى فؤادى تصاعدت دوما كلمات سفر القيامة ، حول أن الكبرياء والمجد والقوة لله وحده .

سبق لى أن حدثتك بأن ماكاو تقع عند مصب نهر شوكيانج العظيم ، شيدت على إحدى الجزر العديدة التى تملأ مدخل الخليج ، وشأن مدن الشرق كافة ، لا يحيطها سور ، بحيث يستحيل تحديد موقع تخومها . تمتد دور الصينيين كالغبار ، ولكن أيا كان عدد مدن وبلدان وطننا التى تتصورها ، فلن يتاح لك تخيل ما هى عليه . ويقال إن عدد السكان حوالى عشرين ألفا ، لكن هذا الرقم غير صحيح ، على وجه التقريب ، والأشياء الوحيدة هنا ، التى يمكن أن تذكرك ببلادنا ، هى قصر الحاكم والمتاجر البرتغالية والشوارع المرصوفة ، ثمة قلعة مسلحة بالمدافع ، تشمخ مواجهة الخليج ، ولكن من حسن الطالع أنه لم يقع حتى اليوم ما يدعو إلى اطلاقها .

لم يبد الجانب الأعظم من الصينيين اهتماما بتعاليمنا ، ويقينا فإن اليابان فى هذا الصدد ، على نحو ما قال القديس فرانسيس كزافيه ، «أكثر بلاد الشرق ملاءمة للمسيحيين» غير أنه - وبالمفارقة - نتيجة لمنع الحكومة اليابانية لسفن

اليابان من الانطلاق الى أراض أجنبية سقط احتكار الحرير فى الشرق الأقصى بأكمله فى أيدى التجار البرتغاليين في ماكاو ، حتى أن دخل هذا الميناء الاجمالي يتوقع أن يرتفع إلى اربعمائة سيرافيم (١) بالمقارنة بمائة سيرافيم فى العام الماضي والعام قبل الماضى .

لدي اليوم انباء رائعة لك . نجحنا بالأمس فى مقابلة ياباني ، فى السابق ، كان هناك ، فيما يبدو ، عدد كبير من اليابانيين ، من رجال الدين ، والتجار ، يأتون إلى ماكاو ، ولكن مع اغلاق اليابان في وجه العالم الخارجي ، توقفت مثل هذه الزيارات ، بل إن القلة الذين كانوا هنا عادوا إلى بلادهم ، وحتى حينما سألنا فاليانو ، تلقينا الرد القائل بأنه ليس هناك ياباني في الجزيرة ، رغم ذلك ، عثرنا بالمصادفة المحضة على يابانى ، يقيم وسط الصينيين ، فى هذه البلدة ، دعنى أحدثك كيف التقيناه .

بالأمس – وكان يوما مطيرا ، على نحو فظيع – زرنا القطاع الصينى من المدينة ، لنرى إن كان بوسعنا ، بشكل من الأشكال ، أن نحصل على مركب ، يشق طريقه إلى اليابان سرا . أردنا العثور على قبطان وبحارة . ماكاو تحت المطر .. إن المطر يجعل هذه البلدة التعيسة أكثر تعاسة ، كان رماد كاب يلف المكان بأسره ، فيما هجر الصينيون ، الذين تكاكئوا فى دورهم الصغيرة – التي تبدو كأوجار الكلاب – الشوارع القذرة ، حتى خلت من أى ظل لحياة بشرية . حينما أحدق فى مثل هذه الشوارع أفكر (أتساءل لم ؟) فى أهجية الحياة الانسانية ، فيلفنى الحزن .

مضينا إلى دار الصينى ، الذى جرى تعريفنا به ، وتحدثنا عن شأننا ،

---

(١) السيرافيم : هو ضرب من العملات الذهبية ، رفيعة القدر ، ويشير قاموس أكسفورد فى طبعته المدمجة، الى أن الاسم ربما كان مشتقا من العملة العربية المعروفة باسم «الشريفي»

فأبلغنا، على وجه القطـــع ، بأن هناك يابانيا فى ماكاو ، يرغب فى العودة إلى وطنه . استجابة لطلبنا ، انطلق فتاه الصغير ، بحثا عن اليابانى .

ماذا أقول عن هذا الرجل ، أول يابانى ألقاه فى حياتى ؟ مترنحا جراء السكر، دلف سكير متعثرا إلى الحجرة ، كان فى حوالى الثامنة أو التاسعة والعشرين من العمر ، يرتدى خرقا ، كان اسمه كيشيجيرو ، حينما رد أخيرا على أسئلتنا ، علمنا أنه صياد من منطقة هايزن ، قرب نجازاكى ، كان قد ضل طريقه فى البحر، قبل انتفاضة شيمابارا الشهيرة ، فالتقطته سفينة برتغالية ، لست أدرى ما إذا كان ذلك يرجع إلى خماره ، بدت أمارات الخبث على محياه ، كانت عيناه تدوران فى محجريهما ، وهو يتحدث .

- أمسيحى أنت ؟

ند السؤال عن جاربى ، لكن الرجل لزم الصمت فجأة ، كأنه بطلينوس [1] لم نستطع أن نفهم لِمَ جعله سؤال جاربى تعسا إلى هذا الحد . فى البداية ، لم يكن يريد الحديث اطلاقا ، لكنه أخيرا استسلم لإلحافنا ، وشرع شيئا فشيئا يحكى قصة اضطهاد المسيحيين فى كيوشو ، وها هى ، فى قرية كوراساكى بمنطقة هايزن ، شاهد أربعة وعشرين مسيحيا يخضعون للعقاب بالمياه ، على يد ديمبو المنطقة [2] . ثبتت أعمدة خشبية فى البحر ، غير بعيد عن الشاطئ ، وقيد المسيحيون اليها . حينما كان المد يقبل ، كان الماء يرتفع حتى علامة معينة ، ثم ينحسر . تدريجيا حل الإعياء البالغ بالمسيحيين ، بعد نحو أسبوع لقوا مصرعهم ، جراء هذا العذاب الأليم . ترى

(١) البطلينوس : حيوان من الرخويات أو السمك الصدفى يضرب به المثل فى الصمت (هـ . م).

(٢) الديمبو: هو لقب للنبالة فى اليابان الاقطاعية يعادل لقب البادن الأوروبى. وقد ألفى فى العصور الحديثة، لاحظ أن هذا اللقب كان يرتبط، غالبا الى جانب النبالة، بالقيادة الحربية، والتمسك بالتقاليد العسكرية .

هل اســتطاع نيــرون طاغـية روما ذاته أن يبتــدع مثل هذا الأسلوب الضارى فى القتل ؟

مع اسـتمرار حوارنا ، لاحظنا شيئا غريبا ، بينما كان كيشيجيرو يصف هذا المشـهد ، الذى يقف له شـعر المرء ، انقلبت سـحنتـه ، وفـجـأة تداعى إلى رحـاب الصمت ، لوح بيده ، كأنما انتصبت ذكرى مروعة من الماضى لتطارده ، وإنى لاتساءل عما إذا لم يكن بعض أصدقائه ومعارفه بين هؤلاء الذين تعرضوا للتعذيب بالماء ، ربما كنا قد وضعنا أصبعنا على جرح ناغر ، كان ينبغي ألا يمس .

طرح جاربى السؤال مجددا بإلحاح : « طيب . أنت مسيحى على أى حال ؟ ألست كذلك ؟

قال كيشيجيرو هازا رأسه : «لست كذلك . كلا . لست كذلك » .

– إنك ، على أى حال ، ترغب فى الرجوع لليابان ، ولدينا المال لشراء مركب ولجمع قبطان وبحارة ، لذا إذا احببت العودة الى بلادك».

عند هذه الكلمات ، تألقت فى خبث ، هاتان العينان اليابانيتان ، السكيرتان ، مصفرتا القذارة . ظل صاحبهما مقعيا ، على ركبتيه ، فى ركن الحجرة ، وبصوت مرتعد ، كأنما يتحدث دفاعا عن نفسه ، توسل طالبا السماح له بالعودة إلى بلاده، ولو لرؤية أقاربه المحبوبين ، الذين ظلوا فى الوطن فحسب .

على هـذا النحـو ، بدأت تعاملاتنا مع هذا الشـخص عصبى المزاج ، فى الـغـرفـة المعتمـة ، القــذرة ، واصـلت ذبابة الطنــين والدوار . على الأرض ، جثمت زجاجات الساكي [1] الفارغة ، التى كان عاكفا على ما بها . لكنه أمر طيب أن نلتقى بهذا الشــخص ، ذلك أننا حينما نرسو على ساحل اليابان ، لن نعرف

(١) الساكى شراب يابانى مسكر ، يعد من الأرز المخمر ، ويقوم عادة حارا ، يقارب تأثيره ، الأنواع القوية من شراب العرقى المعروف .

يميننـــا مـــن يســـارا ، ينبـغي لأحـد أن يؤوينا . سـيـتـعين علينا أن نتـصل بالمسـيـحيين ، الذين يمكنهــم حمـايتنا . هكذا فـإن بوسـعنا اتخـاذ هذا الرجل كدليل أول لنا .

لفترة طويلة ، جلس كيشيجيرو مواجها الحائط ، ضاما ركبتيه ، وغارقا في التفكير في الشروط التي عرضناها عليه ، ثم وافق . الأمر بالنسبة له مـغامرة ، تحفل بالاخطار ، لكنى أظن أنه يحس بأنه إذا ما ضـاعت منه هذه الفرصة ، فلن يتمكن أبدا من العودة لليابان .

يبدو بفضل الأب فاليناني كمـا لو كنا ، على أي حـال ، نوشـك على الوصول إلى مركب شراعي ضخم ، ولكن كم هي هشة وعـابرة خطط البـشر ، فقد بلغنا اليوم نبـأ التهام النمل الأبيض للمركب . ويصـعب هنا الحصـول على الحديد والقطران .

أعكف يوميا على كتـابة هذا التقرير شيئا فشيئا ، حتى أنه يبدو كيوميات دون تاريخ ، فـعليك بالصبر في قراءته . قبل أسبـوع ، حدثتك بأن المركب الذي أفلحنا في الحصول عليه التهمـه النمل الأبيض على وجـه التقريب ، لكننا الآن والحمد لله، وجدنا طريقة لقهـر هــذه العقبة ، لسوف نطلي داخل المركب ، ثم نبـحر إلى تايوان، فـإذا مـا بدا أن هذا الإجراء الوقائي لايزال فـعالا ، سنمـضي مباشرة إلى اليابان ، ونسـأل الله الحماية ، حتى لاتصادفنا عاصـفة هائلة ، في بحر الصين الشرقي .

عندي هذه المرة أنباء سيئة لك . سبق أن أخبرتك بأن سانتنا مـارتا ، الذي أجهدته الرحلة البحرية الطويلة المؤلمة تماما ، يبدو كما لو كان قد أصيب بالملاريا ، الآن ، مـرة أخرى ، عـادته حمى وبيلة ، تصـحبـها رعـشـة ، تعم البدن كله ، لزم الفراش بإحدى حجرات الكلية الدينية ، لن يكون بمقدورك ، وقد سبق لك أن عرفته

فى عنفوان صحته قبلا ، أن تتخيل كيف أصبح مهزولا ، على نحو بائس ، ومحطم البدن ، عيناه غائمتان ، محمرتان ، إذا ما وضعت منشفة مبللة على رأسه تغدو حارة ، كأنما غمست فى ماء حار ، وذهابه لليابان ، وهو فى مثل هذه الحال ، أمر لايخطر بالبال . يقول فالينانو إننا إذا لم نتركه ليعالج ، فليس بوسعه السماح لنا بالقيام بالرحلة .

قال جاربى ليبعث العزاء فى نفس مارتا : سنمضى نحن أولا ، نمهد الطريق ، حتى يمكنك القدوم ، فيما بعد ، حينما تبل من مرضك .

ولكن هل بمقدور أحد أن يتنبأ بما سيقع ؟ لربما يحيا حياة آمنة سعيدة ، بينما يعتقلنا الخارجون شأن الكثيرين من المسيحيين .

ظل مارتا صامتا . كست لحية كثيفة نامية ذقنه وصدغيه ، راح يحدق فى النافذة ، ما الذى دار فى ذهنه ؟ بمقدورك ، وأنت الذى عرفته طويلا ، أن تفهم يقينا مشاعره ، اليوم ، الذى صعدنا فيه على سطح السفينة ، وتلقينا بركة الأسقف داسكو ، وأبحرنا خارجين من نهر تاجوس ، تبعته رحلة طويلة رهيبة ، حل بسفينتنا الظمأ والمرض ، ولم تحملنا كل هذا ؟ لماذا شققنا طريقنا إلى هذه البلدة المتداعية فى الشرق الأقصى ؟

نحن القسس طائفة حزينة من البشر ، على نحو ما ، ولدنا فى هذا العالم ، لخدمة الإنسانية ، ليس هناك من هو أكثر تعاسة فى توحده من القس الذى لايضطلع بمهمته . كان مارتا ، خاصة منذ وصولنا إلى جوا ، يستشعر اخلاصا بالغا للقديس فرانسيس كزافيه ، كل يوم فى صلاته بكنيسة القديس فى الهند كان يدعو الله أن يتيح له الذهاب إلى اليابان .

رحنا ندعو الله ، كل يوم ، لعله يسترد صحته سريعا ، لكن حالته لم تتحسن ،

غير أن الله يهب الإنسان مصيرا يفوق ما يمكن للمعرفة البشرية أن تتصوره أو تبتدعه . حان موعد رحيلنا ، لم يبق عليه إلا أسبوعان ، فليجعل كل شئ على ما يرام .

العمل في اصلاح المركب يتقدم سريعا . تجعله الألواح الجديدة ، التي اضفناها إليه ، عقب المتاعب التي سببها النمل الأبيض ، يبدو مختلفا تماما ، يبدو الأمر كما لو أن البحارة الخمسة والعشرين ، الذين وجدهم لنا فالينانو ، سيحملوننا إلى ساحل اليابان ، يلوح هؤلاء الصينيون ناحلين ، بائسين ، كمرضى لم يمسوا طعاما منذ شهور ، لكن قوة أيديهم ، الصلبة كالأسلاك ، لا يصدقها العقل ، بوسعهم أن يرفعوا بهذه الأيدى المعروقة ، أثقل صناديق الطعام في يسر، تبدو سواعدهم مثل قضبان حديدية ، ونحن على أي حال ، لا ننتظر إلا ريحا مواتية لكي نبحر .

أما عن الياباني ، كيشيجيرو ، فإنه يختلط بالبحارة الصينيين ، يحمل المتاع ، يعاون في اصلاح الشراع ، لكننا لا نهدر فرصة لمراقبة شخصية هذا الياباني ، الذي قد يتوقف عليه مستقبلنا بأسره ، عن كثب ، أدركنا الآن أي شخص خبيث هو ، وينبع خبثه من ضعف شخصيته . اصغ إلي ما حدث قبل أيام ، حينما كانت تقع عليه عينا المشرف الصيني ، كان يتظاهر بالعمل بكل قوته ، ما أن يبتعد المشرف ، حتى يبدأ على الفور في التكاسل ، في البداية لم يقل البحارة الآخرون شيئا ، لكنهم حينما طال الأمر ، ما عاد بوسعهم الاحتمال ، فانهالوا عليه ضربا ، ليس ذلك في ذاته بالأمر المهم ، لكن ما أذهلنا هو أنه عندما ضربه ثلاثة من البحارة ، فطرحوه أرضا ، وركلوه في غلظة ، علاه شحوب الموت ، جثا على الرمل حيث سقط ، توسل طالبا العفو ، على أقبح صورة بمقدورك تصورها .

مثل هذا السلوك أبعد ما يكون عن أي شئ بوسعك أن تدعوه بالصبر المسيحي ، لكن جبن هذا المستخذي كان على هذا النحو تماما ، رفع رأسه الذي دفن في الرمال ، وصاح بشئ ما باليابانية ، كان الرمل يغطي أنفه وخديه ، ولعاب قذر ينسال من فمه ، الآن أدركنا لم صمت فجأة كالبطلينوس حينما أتينا أول مرة على ذكر المسيحيين اليابانيين ، ربما حين يتحدث يعاني خوفا مفزعا من كلماته ، أيا ما كان الأمر ، فإن هذه المشاجرة ، التي دارت من طرف واحد ، انتهت ، حينما تدخلنا لصالحه أخيرا ، فساد الهدوء كل شئ ، ومنذ ذلك الحين وكيشيجيرو يحيينا بابتسامة مستخذية .

- أمسيحي أنت حقا ؟ شرفاً أأنت كذلك؟

كان سؤالاً نموذجياً من أسئلة جاربي ، لم يخل من لمسة مريرة. لكن كيشيجيرو أكّد بشدة ، وقد بدت عليه الدهشة، أنه كذلك . كان جاربي قد صدق ، بسذاجة بالغة ، جملة وتفصيلاً ، حديث الكثيرين من المبشرين عن «هذه الأمة ، التي لا يهاب أبناؤها حتى الموت» صحيح ، بالطبع ، أن هناك يابانيين تحملوا التعذيب المتواصل خمسة أيام ، دون أن يهتز يقينهم، لكن هناك بالمثل مستخذين، غارقين في الجبن، مثل كيشيجيرو. وإلى مثل هذا الرجل علينا أن نعهد بأنفسنا، بعد أن نبلغ اليابان. كان قد وعد بتوصيلنا إلى المسيحيين، الذين سيقدمون لنا المأوى، لكنني أتساءل ، الآن وقد رأيت سلوكه، إلى أي حد يمكن الوثوق به. لكن لا تظن أنه بسبب النحو الذي أكتب به أننا قد فقدنا طاقتنا وحماسنا . بل الأمر على العكس من ذلك. فحينما أفكر في أنني قد عهدت بمستقبلي إلى شخص من نوع كيشيجيرو لا يسعني الا أن أغرق في الضحك . حينما تتأمل الأمر ، تجد أن اليسوع عهد بمصيره إلى أناس لا يوثق بهم . على أي حال ، فليس هناك بديل، في ظروفنا الراهنة ، عن الوثوق بكيشيجيرو ، لذا فدعنا نثق به.

ثمة أمر واحد يبعث على القلق حقاً. إنه سكّير على نحو مفزع ، حين ينتهي يوم عمله، ينفق كل فلس يتلقاه من يد المشرف على الساكي، وسلوكه حينما يطاله الخمار يدخل في باب ما لا يقال، ليس بوسعي الا أن أستخلص أن ثمة ذكرى تطارده، ثمة شيئا يحاول نسيانه بالشراب.

يتردد في ليل ماكاو الصوت الحزين المتطاول للنفير، حين ينفخ فيه لنوبة حراسة القلعة. هنا ، كما في الوطن ، يجري منح البركة في الكنيسة بديرنا، بعد العشاء، ثم يدلف القسس والاخوة بالدير، وكل يحمل شمعته في يده، إلى غرفهم وفق العادة المتبعة.

مضى الخدم لتوهم، عبر الفناء. أطفئت الأنوار، في غرفتي جاربي وسانتا مارتا. تلك حقاً أقصى بقاع الأرض.

أجلس في نور الشمعة، ويداي فوق ركبتي ، أحدق أمامي. أواصل في ذهني تقليب فكرة أنني في أقصى بقاع الأرض، في مكان لست تعرفه، ولن تزوره طوال عمرك، شعور راجف يملأ كياني، وتحت أهدابي تنتصب ذكرى تلك الرحلة الطويلة الرهيبة، فيمتلىء صدري ألماً. يقيناً أن وجودي في هذه البلدة الشرقية، النائية تماماً، مجهولة الذكر، يحاكي حلماً. أو إذا بدأت في التفكير بأنه ليس حلماً ، أحس بأني أود أن أصرخ بأنه معجزة. أصحيح أنني في ماكاو؟ ألست في حلم؟ ليس بمقدوري تصديق هذا الأمر كله.

على الجدار صرصار ضخم. وصوته المزعج يخدش صمت الليل الجليل.

«اذهبوا إلى العالم كله، واعلنوا البشارة إلى الناس أجمعين، كل من يؤمن ويتعمد يخلص ، ومن لا يؤمن يهلك».

تلك كانت كلمات المسيح ، الناهض من الأموات ، لحوارييه، الذين التفوا به

لتناول العشاء. الآن فيما أذعن لهذا الأمر، ينهض وجه المسيح بإزاء عيني. كيف يبدو وجه المسيح؟ هذه النقطة يتجاوزها الانجيل في صمت. تعلم حق المعرفة أن المسيحيين الأوائل كانوا يظنون المسيح راعيا. العباءة القصيرة ، الرداء البسيط دونها، يد تمسك قائمة الحمل ، فيما الأخرى تلتف حول عصا. هذا الشكل مألوف في بلادنا ، فنحن نراه منعكساً في الكثيرين من الناس الذين نعرفهم. تلك هي الكيفية التي تصور بها المسيحيون الأوائل وجه المسيح الرقيق. ثم في الكنيسة الشرقية، يجد المرء الأنف الطويل والشعر المجعد واللحية السوداء. هذا كله يخلق مسيحا شرقيا. أما فنانو العصور الوسطى فقد صور الكثيرون منهم وجها للمسيح متألقا بسلطان ملك. غير أن الوجه الليلة لاح لي وجه لوحة محفوظة في بورجوسان سيبالخرو. لا يزال متجددا في ذاكرتي العهد الذي رأيت فيه، للمرة الأولى، هذه اللوحة، حينما كنت طالباً بالمعهد الديني. كانت إحدى قدميه في القبر وفي يده اليمنى يمسك صليبا ، يواجه الرائي مباشرة ، وعلى ملامحه ارتسم تعبير التشجيع الذي علاه حينما أمر حوارييه ثلاث مرات: «ارع خرافي، ارع خرافي، ارع خرافي...» . إنه وجه يحفل بالقوة والبأس، استشعرت حباً عظيماً لذلك الوجه، فتنت دائماً بوجه المسيح، تماماً مثلما يفتتن رجل بوجه محبوبته.

أخيراً، لم تبق إلا خمسة أيام فحسب على رحيلنا. ليس لدينا على الإطلاق متاع نحمله لليابان ، إلا قلوبنا. لا تشغلنا إلا الاستعدادات الروحية وحدها . يا للحسرة ! لست أشعر بميل للكتابة عن سانتنا مارتا . فلم يهب الرب لرفيقنا المسكين بهجة استرداد عافيته. لكن كل ما يفعله الله هو خير لنا. يقينا أن الرب يعد في خفاء البشارة ، التي ستكون ذات يوم من نصيبه.

الفصل الثانى
رسالة سباستيان رودريجيز

عليك سلام الله .

المجد للمسيح .

لست ادرى كيف أتحدث ، في خطاب واحد قصير ، عن الأحداث التى لاتحصى ، والتى حفلت بها حياتى خلال الشهرين الماضيين ، فضلاً عن أننى، فى وضعى الراهن، لا أعلم ما إذا كانت هذه الرسالة ستصلك من عدمه . لكن حالتى المزاجية غدت على نحو لا يمكننى معه الامتناع عن الكتابة، ذلك أنى أشعر بأن من واجبى أن أترك لك شيئاً مكتوباً على الورق.

بورك مركبنا، لثمانية أيام من مغادرتنا ماكاو ، بطقس صحو، على نحو غير مألوف، كانت السماء صافية الزرقة وانتفخ الشراع بالريح. كان بمقدورنا أن نشاهد جماعات السمك الطائر تتألق كالفضة ، فيما هى تتقافز خارجة من رحم الأمواج، كل صباح كنت أنا وجاربى نقيم قداساً ، على سطح السفينة متقدمين بآيات الشكر لله على رحلتنا الآمنة . لكن الوقت لم يطل بنا قبل أن تلطمنا عاصفتنا الأولى. فى السادس من مايو ، بدأت ريح قوية تهب من الجنوب الشرقى . كان البحارة رجالا مخضرمين ، أنزلوا الشراع ، رفعوا شراعا أصغر فى مقدمة المركب، لكننا الآن كنا فى عماء الليل ، والشىء الوحيد الممكن هو التخلى عن مركبنا للرياح والأمواج . فى الوقت نفسه، أصاب صدع عظيم مقدمة المركب ، وشرع الماء فى التدفق اليها . عكفنا طوال الليل تقريباً على محاولة رأب الصدع ونزح المياه.

ما أن أطل الفجر، حتى هدأت العاصفة، فما ملكت أنا وجاربى والبحارة إلا أن القينا بأنفسنا، فى إعياء بالغ، بين أكياس المتاع، ورحنا نحدق فى السحب الغليظة، القاتمة، الراحلة نحو الشرق. ثم، استيقظت فى فؤادى ذكرى القديس فرانسيس كزافيه، يقيناً أنه كان بدوره فى الهدأة، التى تعقب مثل هذه العاصفة، يحدق فى السماء الحليبية ، ثم فى الأعوام الثمانية التى أعقبت ذلك كم من المبشرين والكهنة المتفقهين أبحروا حول ساحل افريقيا مرورا بالهند ، عبروا هذا البحر ذاته ، ليبشروا بالانجيل فى اليابان . هناك الأسقف سيركيرا، هناك اورجانتينو جوميز ، لوبيز ، جريجور ريو.

لو أن المرء بدأ فى تعدادهم لما بلغ النهاية. كان من بينهم البعض مثل جيل دى ماتا، ممن لاقوا حتفهم فى سفينة غارقة، وأعينهم عالقة باليابان. الآن ألمت بفكرة عن الانفعال الهائل الذى ملأ صدورهم، ومكنهم من تحمل هذا العناء الرهيب. حدق هؤلاء المبشرون العظام جميعاً فى كل من السحب الحليبية، والسحب الغليظة، القاتمة ، الراحلة نحو الشرق . ترى أى أفكار كانت تعن لهم فى مثل هذه الأوقات؟ بوسعى أيضاً أن أتصور هذا.

إلى جوار متاع المركب، كان كيشيجيرو، استطعت سماع صوته . خلال العاصفة، لم يقم هذا الجبان الجدير بالاشفاق بأى محاولة، على وجه التقريب، لتقديم المساعدة للبحارة. الآن رقد تاعس الشحوب، وسط المتاع. تناثر حوله قئ أبيض، راح يغمغم بشئ ما، باللغة اليابانية.

نظرنا مع البحارة بازدراء إلى هذا الرفيق. كنا أكثر اعياء من أن نهتم بيابانيته المتلعثمة، لكنى بالمصادفة التقطت متداخلة فى تراكيب جملة الكلمات «الرحيمة» و«سانتاماريا». يقينا أن هذا الشخص، الذى كان يحاكى خنزيرا دفن وجهه وسط قيئه، لفظ مرتين كلمتى «سانتا ماريا».

تبـادلت أنا وجاريبي نظرات خاطفة . أمن الممـكن أن يعتنـــق ديناً ... هذا البائس الذي لم يكتف طــوال الرحلة بعـــدم تقـــديم المســاعـدة ، وإنما كـان مـصـدراً ملموساً للمتاعب . لا . مســتحيل ، فالإيمــان لا يمكن أن يحّول إنساناً إلى مثل هذا الجبان.

رفع كيشيجيرو وجهاً اتسخ بقيئه، وحدجنا بنظرة ألم ، ثم بخبثه المعتاد تظاهر بعدم فهم النظرات المتسائلة، التي كنا نثبتها عليه. ابتسم ابتسامته المستخذية. كانت له أكثر الضحكات التي يمكنك تصورها تزلفاً وخنوعاً. كانت تخلف دائماً شعوراً مريراً في حلوقنا.

قال جاريبي ، رافعاً صوته :

- إني اسألك فاعطني رداً واضحاً . أمسيحي أنت أم لا ؟

أومأ كيشيجيرو برأسه بقوة ، نظر البحارة الصينيون ، من مكانهم وسط أكياس المتاع ، للأمر كله بمزيج من الفضول والازدراء . إذا كان كيشيجيرو مسيحيا فَلِمَ يمضي إلى حد إخفاء الأمر برمته حتى عنا نحن القسس؟ كان تخميني أن هذا الرفيق الرعديد يخشى أننا لدى وصولنا إلى اليابان قد نسلمه للمسئولين ، كاشفين النقاب عن حقيقة كونه مسيحياً ، ومن ناحية أخرى ، إذا لم يكن مسيحياً حقاً ، فكيف يمكن تفسير الرعب الذي ندت به كلمات «الرحيمة» وسانتا ماريا» عن شفتيه . إن هذا الشخص يثير اهتمامي ، على أي حال، وأحس يقيناً بأنني سألم بسره شيئاً فشيئاً .

لم يلح أثر للأرض حتى اليوم ، ما من دلالة على وجود جزيرة ، امتدت السماء المدلهمة بلا انتهاء، في بعض الاحيان كانت أشعة الشمس تبلغ المركب ، حتى لتثقل على الجفون. غلبتنا الكآبة، فتعلقت أعيننا بالبحر البارد ، حيث كانت نواجذ الأمواج تأتلق مثلما براعم بيضاء . لكن الله لم يتخل عنا .

على حين غرة علت صيحة صاكة من بحار ، كان قابعاً كالميت فى مؤخرة المركب . هناك من الأفق الذى كان أصبعه يشير اليه أقبل طائر محلقاً . جاء هذا الطائر الذى حلق عبر المحيط ، ليرتاح على الشراع ، وقد أنهكته ، وأودت بعافيته ، عاصفة البارحة . تلت ذلك أغصان لا حصر لها اقبلت طافية على سطح الماء . كان هذا برهاناً حقاً على أن الأرض التى تقنا اليها شوقاً ليست بعيدة ، لكن فرحتنا انقلبت سريعاً إلى شعور بالخطر . لئن كانت تلك هى اليابان حقاً ، فإن علينا التأكد من أننا لم نرصد ، حتى من قبل أصغر المراكب . يقيناً أن بحارة مثل هذا المركب سيهرعون فى الحال لإبلاغ المسئولين بأن مركباً ، يقل أجانب ، يقترب من الساحل على جناح الأمواج .

جثمت أنا وجاريى وسط المتاع، مثلما كلبين ، فيما كنا ننتظر حلول الظلام ، رفع البحارة شراعاً صغيراً فى مقدمة المركب، وقاموا بمحاولات جسورة للبقاء بعيداً عن القنن، التى لاحت مثل الساحل الرئيسى.

أقبل منتصف الليل . تقدم المركب فى سكون . من حسن الطالع أن لم يكن ثمة قمر فى السماء، التى بدت فاحمة السواد . لم يعثر أحد علينا ، نهد الساحل الرئيسى أمامنا ، لاحظنا أننا نلج مباشرة مرفأ، نهضت جبال منحدرة على جانبيه، الآن غدا بوسعنا كذلك أن نلمح جميعاً من الدور تكاكأت فيما وراء الشاطىء . كان كيشيجيرو أول من خاض الماء نحو الشاطيء، تبعته ، أعقبنا جاريى بالخطو فى الماء البارد كالثلج . أهذه هى اليابان ؟ أم هى جزيرة تتبع بلاداً أخرى ؟ لم يكن لدى أى منا صراحة فكرة عن هذا الأمر .

اختفينا صامتين، فى حفرة صغيرة ، فيما مضى كيشيجيرو ليستطلع الموقف. اقترب وقع أقدام من حيث جثمنا . بينما تشبثنا بثيابنا المبللة ، وأمسكنا انفاسنا،

رأينا أمامنا مباشرة ، شبح امرأة عجوز ، متلفعة ، تحمل سلة على ظهرها . لم تلحظ وجودنا ، ومضت لطيتها ، انداح وقع قدميها في الليل . مرة أخرى ، هبط الصمت القاتل على الشاطئ . استعبر جاربي قائلاً : «لن يرجع . لن يرجع . أين تراه ذهب ذلك الرعديد خفيف العقل ؟».

لكني كنت أفكر في مصير أكثر رهبة. إنه لم يهرب، وإنما مضى ، شأن يهوذا؛ ليخوننا، سرعان ما يظهر مجدداً، ومعه الحراس .

قال جاربي ، مرتلاً من الكتاب المقدس : «فجاء يهوذا إلى هناك بجنود وحرس أرسلهم رؤساء الكهنة والفريسيون ، وكانوا يحملون المصابيح والمشاعل والسلاح».

رحنا نفكر في ليل حديقة الجثمانية ، حينما أسلم اليسوع نفسه ، دونما تراجع للرجال ، لكن الوقت تمطى بصلبه ، في بطء بالغ ، حتى كادت روحي تزهق . كان الأمر مفزعاً حقاً ، تحدر العرق عن جبيني ، منسابا إلى عيني ، ثم هل وقع أقدام. كانت جماعة من الناس تدنو ، ونور مشاعلهم يتقد كئيباً في العتمة ، اقتربوا أكثر فأكثر .

دفع أحدهم بمشعله إلى الأمام، وفي ضوئه لاح الوجه القبيح ، مسوداً وأصهب معاً، لعجوز ربعة، فيما أحاط به خمسة أو ستة من الشباب، راحوا يطلون علينا بعيون خائفة .

– أبت .. أبت ! [1]

رشم العجوز الصليب، فيما لفظ هاتين الكلمتين، رنت في صوته غنة رقيقة من الأسى لمحنتنا . أما بالنسبة لنا فإن كلمة «أبت» هذه، التي نطقت بلساننا

---

(١) الكلمة المستخدمة في النصّ الأصل هي Padre ، لاحظ أن لها المعنى نفسه في اللغات البرتغالية والاسبانية والانجليزية (هـ . م) .

البرتغالي المحبوب، كانت شيئاً لم نحلم بسماعه أبداً في هذا المكان . غني عن القول أن العجوز ما كان بمقدوره أن يلم بأكثر من هذا من البرتغالية ، لكنه رشم أمام أعيننا الصليب ، مظهرا رابطة تجمعنا معا، كان هؤلاء حقاً مسيحيين يابانيين . نهضت من الرمل ، كأني في دوامة . أخيراً وضعت قدمي على أرض يابانية . اكتسحني ادراك هذه الحقيقة بقوة هائلة .

كان كيشيجيرو يقف ، متخاذلاً ، خلف الأخرين، بابتسامته المستخذية المعهودة ، كان يبدو دائماً كجرذ، على أهبة الهرب لدى أي طارىء. أدميت شفتي من فرط الشعور بالعار . لقد اتخذ اليسوع عابري السبيل موضعاً لثقته، لأنه أحب البشر كافة ، وها أنذا تخامرني الريبة بهذا الانسان الواحد ، كيشيجيرو.

- هلما . واصلا المسير!

كان العجوز هو الذي يتحدث ، راح يستحثنا هامساً:

- ليس بمقدورنا أن ندع الأغيار يروننا.

«الأغيار» كلمة أخرى من لغتنا يعرفها الآن المسيحيون. لقد علمهم أسلافنا منذ عهد كزافيه هذه الكلمات، أي عرق وعناء اقتضاه دفع المحراث في هذه الأتربة القاحلة ثم تخصيبها وزرعها ، حتى بلغت هذه المرحلة الراهنة . نعم غرست البذرة، فأنبتت فارعة . الآن كانت مهمتي الكبرى مع جاربي أن نكلأهما بالرعاية ، حتى لا تذوي وتهلك.

في تلك الليلة ، أبقونا مختبئين ، تحت سقف دارهم الخفيض . قريباً كانت ثمة حظيرة للماشية تنتقل منها الرائحة الخبيثة إلى حيث رقدنا . غير أنهم راحوا يؤكدون لنا ألا خطر هناك . لكن كيف استطاع كيشيجيرو أن يعثر على المسيحيين بمثل هذه السرعة ؟

في اليوم التالي ، قمت أنا وجاريي ، قبل أن يطل الفجر ، بتبديل ثيابنا ، ارتدينا ملابس فلاحين، رقينا مع اثنين من الفتيان، الذين قابلناهم ليلة الأمس ، جبلاً يمتد خلف القرية. أراد المسيحيون اخفاءنا هناك كان لديهم ثمة مكان أكثر أمناً ، كوخ حطاب. انبسطت غمامة كثيفة على الغابات ، وجثمت فوق الدرب الذى كنا نسلكه. سرعان ما استحالت الغمامة رذاذاً .

حينما بلغنا مقصدنا ، سمعنا للمرة الأولى ، اسم المكان الذى ألفينا أنفسنا فيه . كان قرية صيد يقال لها توموجي ، لا تبعد كثيراً عن نجازاكي ، تضم حوالي مائتي عائلة ، وقد عُمّد الجانب الأكثر من أبناء القرية بالفعل فى الكنيسة.

تساءلت :

- وكيف تجرى الأمور الآن؟

- نعم يا أبت!

قالها موكيشي ، وهو شاب كان برفقتنا ، تبادل هو وصديقه النظرات ، استطرد قائلاً:

- ليس بمقدورنا الآن أن نفعل شيئاً . لئن كشفت حقيقة أننا مسيحيون لقُتلنا جميعا.

كيف أصف الفرحة التي غمرت وجهيهما ، حينما وهبناهما الصليبين ، اللذين كنا نعلقهما حول رقبتينا . انحنى كل منهما ، حتى أوشك أن يمس الأرض ، ضغطا الصليبين على جبينيهما ، وغابا طويلاً فى صلاة. كانا يفتقدان مثل هذه الصلبان ، فيما يبدو ، من سنوات عديدة .

- أمن الممكن أن يكون بين ظهرانينا قس؟

تشبث موكيشي بيدى ، وهو يتحدث :

– وماذا عن الرهبان ؟

غنى عن القول أن هؤلاء الناس لم تقدر لهم مقابلة قس أو راهب ، طوال ست سنوات . إلى ست سنوات خلت ، ظل راهب يابانى هو ميجيل ماتسودا وراهب من الجزويت هو ماتيودى كورروس على اتصال بهذه القرية وما جاورها ، عن كثب، غير أنهما فى نوفمبر ١٦٣٣ ، وإذ شفهما الكدح والعناء ، انطلقا معاً إلى رحاب ينالان فيه خير الجزاء.

– لكن ما الذى حدث خلال هذه السنوات الست؟ ماذا عن العماد والأسرار المقدسة ؟

كان جاربى هو الذى طرح هذا التساؤل . وقد هز رد موكيشى جوانحنا، حتى أعمق أغوارنا ، وإنى لراغب حقاً فى أن أرفع إلى رؤسائى عن طريقك ما قاله – وليس لرؤسائى وحدهم وانما للكنيسة بأسرها فى روما . فيما هو يتحدث ، رحت أستعيد كلمات الانجيل عن بذرة ما تقع على أرض طيبة، فتنمو، وتعطى أكلها ، فى كل سنبلة عشر حبات ، ثلاثون حبة، ستون حبة أو مائة حبة، ذلك أنهم دون قسس أو رهبان يقفون إلى جوارهم، وفى غمار آلام حملة اضطهاد رهيبة ، على يد الحكومة، شادوا سرا صرح تنظيمهم من أجل تدبر أمر الأسرار المقدسة، فأبقوا على شعلة إيمانهم متقدة.

على سبيل المثال ، فى تومـوجى تألف هـذا التنظيم على النحو التالى تقريباً . اختيرا أحد الكهول من المسيحيين ليعهد اليه بمهام القس (أدبج لك هنا ، دون أى تعديل ، ماقاله موكيشى لى) يشغل العجوز الذى قابلناه البارحة عند الشاطىء أرفع المناصب (يدعونه «جيساما») يحيا حياة ورعة ، ويعهد اليه بمهمة عماد الأطفال . يلى الجيساما مجموعة من الرجال ،

يعرفون باسم « توساما » ، مهمتهم تعليم المسيحيين وقيادتهم في الصلاة . ثم هناك مساعدون يعرفون باسم «ميديشي»، والجميع منخرطون في صراع الحياة والموت هذا للحفاظ على جذوة الايمان متوهجة.

- وهذا كله يحدث في توموجي وحدها..؟

طرحت هذا السؤال متحمسا ، أضفت :

- أعتقد أن القرى الأخرى تبقي صرح الايمان على النحو ذاته ، وبهذا التنظيم عينه .

في هذه المرة هز موكيشي رأسه . لم يقدر لي أن أعلم ، إلا في وقت لاحق ، أنه في هذه البلاد ، حيث لعلاقة الدم أهمية قصوى ، يمضي سكان القرية الواحدة ، رغم ارتباطهم الوثيق فيما بينهم ، إلى حد النظر بعين العداء إلى سكان القرى الأخرى .

- نعم ، أبت ! لا استطيع إلا الحديث عن أهل قريتنا وحدها ، فالمبالغة في الاتصال بالقرى الأخرى قد تنتهي بتوجيه الاتهام الينا أمام المحاكم.

لكني ألححت في رجاء موكيشي وأصدقائه أن يهتموا بأمر القرى الأخرى كذلك. كنت أشعر بأنه ينبغي بأسرع ما يمكن ابلاغ الآخرين بأنه من جديد أقبل قس حاملاً صليبه في يده إلى هذه الأرض القفر ، التي تخلى عنها الجميع.

منذ ذلك الوقت ، سارت حياتنا بشكل أو بآخر وفق النهج التالي ، في قلب الليل كنا نقيم القداس ، على نحو ما كان أسلافنا يفعلون في سراديب الموتى ، ثم حين يطل الصباح كنا نصعد الجبل مرة أخرى ، ونظل في مخبئنا بانتظار مقدم أي من المسيحيين ممن قد تطيب لهم زيارتنا . كل يوم كان اثنان منهم يجلبان لنا طعام يومنا . كنا نصغي للاعترافات ، ندلي بالنصح ونعلمهم كيف يؤدون الصلاة . خلال النهار ، كنا نبقي باب كوخنا الصغير

محكم الاغلاق ، ونحذر الاتيان بأدنى صوت ، خشية أن يسمعنا عابر سبيل . غنى عن البيان أننا ماكنا لنوقد ناراً ، حتى لا يلمح أحد اثر الدخان ، ثم تحسبا لكل طارىء ، حفر موكيشى وصديقه نوعاً من الكهوف تحت أرض الكوخ ذاتها..

ليس مما يدخل فى نطاق المستحيل أن ثمة مسيحيين لا يزالون موجودين فى القرى والجزر الواقعة إلى الغرب من توموجى ، لكننا ما كان بوسعنا أن نتحرك خارج الكوخ نهاراً .. رغماً عن ذلك ، فقد عقدت العزم ، مهما كانت النتائج ، على السعي وراء القطيع المتوحد ، الذى هجره الرعاة لعلى أعثر عليه .

الفصل الثالث
رسالة سباستيان رودريجيز

في هذه البلاد ، يفتتح شهر يونيو الموسم المطير، قيل لي إن الأمطار تنهمر متواصلة طوال مايزيد على الشهر ، ولربما حين يهطل المطر يخفف المسئولون من وطأة رقابتهم : لذا فإنني أعتزم انتهاز هذه الفرصة ، لأضرب في المنطقة المجاورة، باحثاً عمن بقي من المسيحيين. أريدهم أن يعرفوا بأسرع مافي الإمكان أنهم لم يتركوا بمضيعة.

أبداً لم يقدر لي أن أعرف بمثل هذا العمق كم هي مجدية حياة القس، فهؤلاء المسيحيون يشبهون فلكاً في عاصفة ، دونما خارطة يستدل بها، وإني لأراهم دون قس أو راهب واحد يشجعهم ويعزيهم يفقدون الأمل تدريجياً ، ويضربون في عماء تائهين .

بالأمس هطل المطر مرة أخرى . وليس هذا المطر بالطبع إلا رسولاً ينبيء عن مقدم الحرارة ، لكنه طوال اليوم يحدث صوتاً كئيباً ، فيما هو يهمي في الأجمة المحيطة بكوخنا ، تهتز الأشجار ، وترتعد ، فيما قطرات المطر تنساب بين فروعها. عندئذ أحاول أنا وجاربي ، لاصقين وجهينا إلى الشقوق الرفيعة في الباب الخشبي، أن نحدق في العالم المحيط بنا، فلا نبصر إلا المطر والمزيد من المطر، عندئذ نستشعر الغضب يتصاعد في صدرينا . إلام تستمر هذه الحياة؟ ضاق صدرنا معاً ، وتوترت أعصابنا يقيناً ، حتى أن أياً منا إذا أتى أدنى هفوة كان الآخر يرمقه بعينين أفعمتا لوما ، وما تلك إلا نتيجة أعصاب شدت يوما بعد الآخر كوتر قوس .

لكن دعني الآن أقدم لك المزيد من المعلومات التفصيلية عن هؤلاء الناس، أهالي قرية توموجي . إنهم فلاحون فقراء ، يحتالون على العيش بزراعة البطاطس والقمح، في حقول محدودة الرقعة، ليست لديهم حقول لزراعة الأرز، حينما ترى كيف زرعت الأرض عالياً حتى منتصف الجبل المواجه للبحر يذهلك لا الحذق الذى لا يعرف الوهن لهؤلاء الناس ، وإنما قسوة الحياة التي ورثوها. رغماً عن ذلك ، فإن حاكم نجازاكي يحصّل منهم عوائد متفاقمة التصاعد ، الحق أقول لك إن هؤلاء الفلاحين كدحوا طويلاً، طويلاً ، كالخيل والماشية ماتوا حتى أنفهم . ان السبب في أن ديننا قد توغل في هذه الأرض ، مثلما الماء ينداح في الأرض العطشى، هو أنه منح هذه الجماعة من البشر دفئاً انسانياً ، ما عرفوه من قبل قط، للمرة الأولى التقوا أناساً يعاملونهم كمخلوقات بشرية . كانت رقة الأباء الانسانية وكرمهم هى التي مست أفئدتهم .

لم ألتق بعد أهل توموجي كافة ، فاتقاء للمسئولين، لا يصعد إلا اثنان فقط من أهل القرية إلى كوخنا الصغير كل ليلة . الحق أقول إنه رغماً عنى فإننى لا أتمالك من الضحك حينما اسمع الكلمات البرتغالية واللاتينية المدغومة في أفواه هؤلاء الفلاحين الجهلة: «الرب» «الملائكة» و«الرحيم» وما إلى ذلك ، إنهم يدعون سر الاعتراف المقدس «العراف» أما السماء فيدعونها «علين» أما الجحيم فهى «جهنم» ليست أسماؤهم هى وحدها التي يصعب تذكرها ، لكن وجوههم جميعا تبدو سواء بسواء. الأمر الذى يسبب حرجاً غير قليل ، فنحن نخلط بين ايشيزو وسايسوكى ، وتتشابه علينا أوماتسو مع امرأة أخرى تدعى ساكاى .

سبق لى أن حدثتك قليلاً عن موكيشي ؛ لذا أود الآن أن آتى على ذكر اثنين من المسيحيين . ايشيزو رجل فى حوالى الخمسين من العمر ، يأتى إلى كوخنا ليلاً ، يعلو سيماه دائماً ما يدعوك للظن بأنه حانق ، لا ينبس ببنت شفة ، خلال

شهوده القداس، وبعد الفراغ منه. غير أنه فى الحق ليس حانقاً على الاطلاق، فليس ذلك إلا التعبير الذى يعلو طبيعياً محياه ، هو فضولى على نحو فذ ، يرقب بدقة كل حركة وإيماءة آتيها أنا أو جاربى ، بعينيه الضيقتين ، اللتين تؤطرهما التجاعيد .

قيل لى إن أوماتسو هى شقيقة ايشيزو الكبرى، فقدت زوجها ، منذ عهد بعيد، وهى أرملة الآن ، جاءت مرتين إلى كوخنا مع ابنة أخيها سين حاملة على ظهرها سلة طعام لنا . شأن ايشيزو ، هى دائبة السؤال، راحت تحدق فى أنا وجاربى مع ابنة أخيها، فيما كنا نتناول وجبتنا ، ويالها من وجبة! بمقدورك أن تتخيل كم هى بائسة ... مجرد حبات قلائل من البطاطس المقلية وماء ، وفيما كنت أنا وجاربى نتبلغ بها ، راحت المرأتان تنظران إلينا ، ضاحكتين ، باغتباط باد .

ذات مرة ، صاح جاربى محتداً :

- أنحن غريبان حقاً ؟ هل طريقتنا فى الأكل مضحكة إلى هذا الحد؟

لم تفهما كلمة مما قال ، لكنهما انفجرتا ضاحكتين ، وقد تجعد وجهاهما كالورق .

لكن دعنى أحدثك بالمزيد ، عن ذلك التنظيم السرى، الذى أنشأه المسيحيون. سبق لى أن أوضحت لك ما يتعلق بشأن مركزى الجيساما والتوساما ، من حيث إن الأول مسئول عن سر قربان العماد ، وأن الثانى يقوم بمهمة تعليم المؤمنين الصلاة وتلقينهم تعاليم الدين . وقد وضع شاغلو مركز التوساما ، فضلا عن ذلك، تقويماً سنوياً يضم كل أعياد الكنيسة ، وهم يعلمون المؤمنين وفقاً لهذا التقويم، ومما يقولون يستفاد أنه يتم الاحتفال بأعياد الميلاد والجمعة الطيبة والفصح جميعها من قبل أولئك التوساما . غنى عن القول إنهم لا يستطيعون اقامة قداس فى هذه الأيام ، حيث إنه لا يوجد قسس، لكنهم يرفعون أيقونة فى احدى الدور،

ويرتلون صلواتهم أمامها (إنهم يؤدون صلواتهم باللاتينية مثلنا تماماً ... «أبانا الذي» و«السلام لك يامريم» وما إلى ذلك) وفي فترات الراحة بين صلواتهم ، يتحدثون عن أي شيء وعن كل شيء. لا أحد يعلم متى يمكن أن يقبل المسئولون مقتحمين الدور ، لكن إذا ما حدث ذلك فإن كل شيء معد، بحيث يمكن المسيحيين القول بأنهم كانوا في لقاء ما بعضهم مع البعض الآخر.

منذ انتفاضة شيما بارا ، بذل حاكم هذا الاقليم جهداً بالغ الدقة لمطاردة المسيحيين المختفين، في كل يوم يدور المسئولون متفقدين كل قرية بدقة، في بعض الأحيان يقتحمون فجأة داراً ، وفي وقت لا يتوقعه أحد .

على سبيل المثال ، صدر منذ العام الماضي مرسوم يحظر على أي كان إقامة سور أو فاصل بين داره ودار جاره . أرادوا أن يتمكن الجميع من الاضطلاع على دخيلة بعضهم البعض، حتى إذا لاحظ امرؤ في سلوك جاره ما يريب أبلغ عنه في التو . وكل من يبلغ عنا نحن معشر القسس يتلقى مكافأة مقدارها ثلاثمائة قطعة فضية .أما بالنسبة لمن يرشد عن راهب فالمكافأة هي مائتا قطعة فضية، وكل من يبلغ من مسيحي يتلقى مائة قطعة . ولست بحاجة إلى إبلاغك أي إغراء يشكل مثل هذا المبلغ ، بالنسبة لهؤلاء الفلاحين المعدمين ؛ من ثم فإن المسيحيين لا يثقون بأحد ، على وجه التقريب ، من أهالي القرى الأخرى .

أخبرتك بالفعل أن موكيشي وايشيزو لهما وجهان تجردا من أي تعبير . الآن أدرك السر في ذلك ، فهما لا يستطيعان أن يسجلا على صفحتي وجهيهما أي أسى ، أو حتى أي فرح ، لقد جعلت سنوات التقية الطويلة وجوه هؤلاء المسيحيين كالأقنعة . هذا أمر مرير ومحزن حقاً . لم حمل الله مسيحيينا بمثل هذا الوقر ؟ ذلك أمر لم أفلح في فهمه .

في رسالتي التالية ، سأحدثك عن بحثنا عن فيريرا ، وكذلك عن إينوي

(أتذكر ؟ إنه الرجل الذي قال عنه فالينانو ، في ماكاو ، إنه أول من ينبغي أن نحسب له حسابا) رجاء ابلاغ آيات توقيري ووعدي بالصلاة لأجل الرب لوشيوس دي سانكتس .

هطل المطر كرة أخرى اليوم . رقدت أنا وجاربي ، في الظلمة ، على القش الذي نتخذه فراشاً ، قمل صغير يزحف على عنقي وظهري ، فيغدو النوم مستحيلا ، يلتزم القمل الياباني الهدوء نهاراً ، لكنه في الليل يجوب أجسادنا . يا للقمل الوحشي الذي لا يرعى حرمة لأحد .

لم يحدث أن رقي الجبل أحد إلى كوخنا في مثل هذه الليلة المطيرة ؛ من ثم أتيحت لنا فرصة لا لنريح جسدينا فحسب ، وإنما كذلك أعصابنا المشدودة حد التمزق ، من خلال التوتر اليومي . مصغياً إلى صوت المطر المتساقط من الأشجار في الأجمة ، عادت أفكاري تحوم مرة أخرى حول الأب فيريرا .

كان فلاحو توموجي يجهلون كل شئ عنه تماماً . لكنه من المؤكد أنه حتى ١٦٣٢ كان الأب يقوم بالبشارة سراً في نجازاكي ، غير بعيد عن الموضع الذي كنا فيه ، في ذلك العام ، على وجه الدقة . انقطع كالوتر كل اتصال بينه وبين فالينانو في ماكاو . ترى ألا يزال حيا ؟ أيمكن أن يكون صحيحا ، على نحو ما تتخرص الشائعات ،إنه عفر جبينه في التراب كالكلب أمام الخارجين من رحاب الدين ونبذ كل ما وهب حتى الآن حياته من أجله ، وبفرض أنه حي أتراه بدوره يصغي لصوت هذا المطر الباعث على الاكتئاب ؟ وبأي مشاعر ؟

فجأة ، التفت إلي جاربي الذي كان غارقا حتى الأذن في معركته مع القمل تخففت من عذابي بقولي : «لئن استطاع أحدنا الذهاب إلى نجازاكي ، فربما عثرنا على مسيحيين يعرفون الأب فيريرا» .

في الظلمة كف جاربي عن تقلبه والتوائه وسعاله . ثم عقب قائلا :

– إذا أمسكوا بنا فستكون تلك هي النهاية ، تلك ليست مشكلة كلينا فحسب وإنما الخطر يمتد إلى هؤلاء الفلاحين حولنا . على أي حال ، لا تنس أننا السناد الأخير للانجيل في هذه البلاد .

ندت عنى تنهيدة عميقة ، رفع جسده عن القش ، وركز نظرته عليّ ، بمقدوري أن أحدس النحو الذي يفكر به . مرت أمام عيني وجوه موكيشي وايشيزو وصغار توموجي واحداً إثر الآخر . لكن أما يستطيع أحد المضي إلى نجازاكي بدلا منا ؟ كلا . لن يحل هذا بدوره شيئاً . إن لهؤلاء الناس أقارب وعوائل ، يختلف وضعهم تماماً عن وضع قس لا زوجة له ولا أطفال .

غامرت بطرح سؤال :

– ماذا لو طلبنا من كيشيجيرو الذهاب إلى نجازاكي ؟

ندت ضحكة جافة عن جاربي . استعدت كذلك ذلك المشهد على سطح المركب ..

شبح كيشيجيرو الرعديد ، بوجهه المدفون في القذر ، ضاما يديه ، سائلاً البحارة الرحمة .

قال رفيقي معقباً .

– جنون ، فليس بوسعك أن تثق به مقدار شعرة .

عندئذ غرقنا في صمت طويل . راح المطر يلطم بانتظام سقف كوخنا الصغير ، مثلما ينساب الرمل عبر ساعة رملية شفيفة . ها هنا يتوحد الليل والعزلة .

غمغمت :

– ونحن بدورنا سيمسكون بنا ، شأن فيريرا .

رد جاربى مسرعاً :

- ما يعنينى أكثر من ذلك هو تلك الحشرات الزاحفة على امتداد جسمى .

منذ قدومه إلى اليابان ظل على استبشاره دوماً ، لربما كان يحس بأنه من خلال التفاؤل والمرح يمكن أن يمنح الشجاعة لنا معاً . الحق أقول لك إن شعورى أنهم لن يوقعوا بنا . ما الانسان إلا مخلوق غريب ، يراوده دوماً شعور ، فى قرار مكين من فؤاده ، بأنه أيا كان الخطر الذى سيواجهه ، فإنه سيفلح فى تجاوزه ، يشبه الأمر ، على وجه الدقة ، حينما تتصور فى يوم مطير أشعة خافتة من سنا الشمس تتألق على تل ناء . ليس بمقدورى تخيل نفسى لحظة يضع اليابانيون أيديهم علىّ . ففى كوخنا الصغير يساورنى شعور بالأمان الأبدى ، ولست أدرى لم الأمر كذلك . إنه شعور غريب .

أخيراً أقلعت السماء ، بعد ثلاثة أيام ، لم يكف المطر خلالها عن الهطول ، بمقدورنا الحكم بذلك فحسب من الشعاع الأبيض ، الذى ينسل من سنا الشمس ، متخللاً ثغرة فى الباب الخشبى لكوخنا .

قلت :

- دعنا نخرج لحظة !

أومأ جاربى موافقاً ، بابتسامة فرحة .

حينما فتحت الباب ، الذى بلله المطر انساب تغريد الطيور من وسط الأشجار ، مثلما غدير يترقرق ، لم يسبق لى قط أن شعرت على هذا القدر من العمق بفرحة أن يكون المرء حياً . اقتعدنا الصخور قرب الكوخ ، ونزع كل منا الكيمونو الذى يرتديه . بدا القمل المتشبث بطيات الثوب كتراب أبيض تماماً ، فيما رحت أسحقه واحدة بعد الأخرى بقطعة من الحجر . أحسست باختلاجة

من البهجة تستعصى على الوصف . أترى هذا هو ما يشعر به المسئولون حينما يمسكون بالمسيحيين ويوردونهم موارد الهلاك ؟

لا يزال بعض الضباب يتلكأ في الغابات ، لكن السماء الزرقاء تلوح بوهن من خلاله . بعد طول الاعتكاف في كوخنا . ها أنذا أقف في العراء ، كرة أخرى ، أحدق متشوفاً نحو عالم البشر ، فيما أخوض غمار معركة حامية الوطيس مع القمل .

- ليس ثمة ما نخافه .

تألقت أسنان جاريبى البيضاء ، فيما هو يبتسم ابتسامة مرحة ، معرضاً صدره أشقر الشعر لأشعة الشمس ، أضاف :

- لا أدرى لم كانت أعصابنا متوترة على هذا النحو ، علينا مستقبلاً أن نمنح أنفسنا ، في بعض الأحيان على الأقل ، مسرة حمام شمس .

هكذا ، ظلت السماء يوماً بعد الآخر على صفائها ، وفيما ازدادت ثقتنا بأنفسنا غدونا أكثر جرأة تدريجياً ، كنا نسير معاً ، عبر المنحدرات في الغابة ، وقد فضحتنا رائحة الوريقات الندية والطمى . كان جاريبى الطيب يدعو كوخ الحطاب «الدير» . حينما نمضى في جولة ، يقول ضاحكاً :

- لنعد للدير، ولنتناول وجبة من الفطير والحساء الطيب الدسم ، لكن علينا ألا نقص أمرها على اليابانيين !

كنا نستعيد ذكرى الحياة التي عشناها معك في دير سانت كزافيه ، في لشبونة ، غنى عن البيان أنه لم تكن لدينا هنا زجاجة نبيذ أو قطعة لحم ، والغذاء الوحيد الذى نحصل عليه هو البطاطس المقلية والخضر المسلوقة ، التي كان

فلاحو توموجي يجلبونها لنا . لكن القناعة بأن كل شئ على ما يرام ، وأن الله سيشملنا بحمايته ، أوغلت أعمق فأعمق في سويداء قلبي .

ذات مساء ، وقع شئ مثير للاهتمام ، كنا جالسين كالمعتاد نثرثر فوق صخرة بين كوخنا والغابة ، فجأة اندفع طائر جرم محلقاً من وسط الأشجار في أشعة الشمس الغاربة ، رسم قوساً عظيماً في السماء ، ثم دفّ نحو التلال النائية .

- أحدهم يراقبنا .

قالها جاربي ، بأنفاس لاهثة ، وعينين تسمرتا بالأرض ، وقد اخشوشن صوته واحتد ، أضاف :

- لا تلتفت ، ابق على ما أنت عليه تماماً !

من فوق تل يستحم في سنا الشمس المحتضرة ، بعيداً هوناً عن الأجمة ، التي دفّ الطائر لتوه مبتعدا عنها ، وقف رجلان يحدقان باتجاهنا ، أدركنا على الفور أنهما ليسا من فلاحي توموجي الذين نعرفهم حق المعرفة ، جلسنا متصلبين كالصخور ، دون أن تختلج فينا عضلة واحدة ، مرددين ابتهالاً ألا تكشف الشمس الغاربة وجهينا .

- أثمة أحد هناك ؟

رفع الرجلان بأعلى التل عقيرتيهما ، مناديين عالياً ، عاودا الهتاف :

- أثمة أحد هناك ؟

- إنهما يهبطان التل ، ويقبلان إلى هنا .

همس جاربي في صوت خفيض ، جاثماً في مكانه على نحو ما كان ، أضاف:

- لا ، لايقبلان ، إنهما يعودان من حيث جاءا.

هبطا الوادى ، متضائلين ، فيما هما يتداحان فى البعيد . لكن الحقيقة ظلت قائمة ، تقول بأن رجلين وقفا على التل ، فى نور الشمس الغاربة ، ولسنا ندرى أو قد شاهدانا أم لا .

فى هذه الليلة عينها ، رقى الجبل إيشيزو ومعه رجل يدعى ماجويشى كان واحداً من التوساما ، فيما أوضحنا ما وقع فى ذلك المساء ، ضاقت عينا ايشيزو ، ومضت تمحص الكوخ شبراً شبراً . أخيراً انبعث واقفا فى صمت ، وبعد حوار قصير مع ماجويشى ، شرع الرجلان فى نزع ألواح الأرضية . راحت فراشة تحوم حول المصباح الزيتى ، وهما يعملان ، التقط ايشيزو فأسا كان معلقاً على الباب الخشبى وشرع فى حفر الأرض ، طفا ظلا الرجلين على الحائط المقابل، وهما يعملان الفأس فى الأرض بمهارة ، حفرا حفرة كبيرة تسعنا معاً ، وضعا فيها بعض القش ، ثم أغلقاها بألواح الأرضية مرة أخرى . ذلك ، فيما يبدو ، هو مخبأنا مستقبلاً ، إذا ما جد طارىء.

منذ ذلك اليوم ، التزمنا أقصى الحذر ، محاولين ألا نظهر خارج الكوخ على الاطلاق ، وفى الليل ما كنا لنستخدم أى ضوء كائنا ما كان .

وقعت الحادثة الثانية ، بعد خمسة أيام من تلك التى سبق لى تسجيلها . كان الليل قد أوغل، عكفنا سراً على تعميد طفل أحضرته أوماتسو ورجلان يشغلان مركز التوساما . كان ذلك هو عمادنا الأول ، منذ مجيئنا إلى اليابان . طبيعى أنه لم تكن لدينا شموع أو موسيقى فى كوخنا الصغير .. فالأداة الوحيدة فى الحفل كانت كأساً صغيرة مكسورة الحافة من أكواب الفلاحين .. استخدمناها للماء المقدس . لكنها كانت أكثر تأثيراً من طقس القربان المقدس فى أى كاتدرائية رؤية ذلك الكوخ الصغير البائس والطفل يبكى ، فيما الاوماتسو يلاطفه ، ورجل يقف

بالباب حارسا ، هزت البهجة عطفي ، بينما كنت اصغي إلى صوت جاربي الوقور، مرتلاً صلوات العماد . هذه هي السعادة ، التي لا يمكن إلا لمبشر في أرض أجنبية أن يستشعرها . حينما انساب الماء على جبين الوليد، جعد هذا وجهه، وانخرط في البكاء عالياً ، كان رأسه صغيرا وعيناه ضيقتين ، كان وجه فلاح بالفعل ، سرعان ما يحاكي وجه موكيشي وايشيزو ، لسوف يكبر هذا الطفل ، مثل آبائه واجداده ، ليحتال لعيشه ، في ظل وجود بائس في مواجهة البحر المعتم ، في هذه الأرض العصية ، القفر ، سيعيش بدوره كالحيوان، ومثلما الحيوان سيلقى حتفه. لكن المسيح لم يمت من أجل ذوى الرفاه والحسان ، ذلك أن الأمر العسير هو الموت من أجل البائسين ومن فسدت حياتهم .. كان ذلك هو الادراك الذي تكشفت لي حجبه ، فلاحت تفاصيله بدقة ، في ذلك الحين.

حينما رحلوا اضطجعت في القش منهكاً، كانت رائحة الزيت الذي جلبه الرجال الثلاثة لاتزال سارية في الكوخ . من جديد دب القمل ، وبدأ ، على ظهورنا وسيقاننا . غفوت ، لكن غطيط جاربي المتفائل ، الذي كان غارقاً في النوم سرعان ما أيقظني ، بعد وقت بدا لي قصيرا . عندئذ أحدهم كان يدفع باب الكوخ ، محاولا فتحه قليلاً ، قليلاً. في البداية، ظننت أنها قد لاتعدو أن تكون الرياح، تهب من الوادي بأسفل ، عبر الأشجار، دافعة الباب. زحفت بهدوء منسلاً من القش، وفي الظلام وضعت أصابعي على ألواح الأرض التي كان تحتها المخبأ السري، الذي حفره ايشيزو .

الآن توقف دفع الباب، وغدا بالوسع سماع صوت رجع يتناهي خفيضاً ، حزيناً:

- أبت ، أبت ..!

لم تكن تلك هي اشارة التعرف المتفق عليها مع فلاحي تomوجي ، كانوا

قد وافقوا على الطرق ثلاث مرات بصوت هادىء على الباب . الآن استيقظ جاربي بدوره أخيراً ، دون أن يأتي حركة ، ارهف سمعه ، بانتظار الصوت التالي:

- أبت ! كل شيء على مايرام ، لا تخف منا!

تردد الصوت الحزين في مسمعنا كرة أخرى .

في عماء الظلمة ، أمسكنا أنفاسنا صامتين . ترى أي مسئول مجنون هذا الذي ينصب شركاً لنا على هذا النحو؟

- ألن تصدقنا ؟ نحن فلاحون من فوكازاوا ، طالت لهفتنا للقاء قس ، نريد أن نعترف بخطايانا.

ساءهم صمتنا ، فكفوا عن دفع الباب ، كان بوسعنا أن نصغي محزونين لوقع أقدامهم تتراجع في الليل . أمسكت بالباب الخشبي بيدي ، واندفعت في سبيلي إلى الخروج . نعم لسوف أمضي. حتى وإن كان هذا شركاً ، حتى إذا كان هؤلاء الرجال من الحراس ، فإن ذلك لا أهمية له ، قال صوت يخفق مجنوناً في أغوار فؤادي : « إن كانوا مسيحيين فماذا إذن ؟ إنني قس ، ولد ليكرس حياته لخدمة الإنسان ، أي عار سيلحق بي، إن تخليت عن مهمتي ، جراء خوف جعلني رعديداً.

- قف أيها الأحمق ...!

صاح بها جاربي ضارياً .

- لست بالأحمق - هذا واجبي .

حينما انتزعت الباب ، ألفيت أشعة القمر البيضاء الشاحبة تغمر الأرض والأشجار في سنا فضي . أي ليل هذا .

جثم رجلان ، في خرق مهلهلة ، مثلما الشحاذين ، كأنهما كلبان ، رفعا نواظرهما نحوي مغمغمين

- أبت ، ألن تصدقنا !

لاحظت أن قدم أحدهما كانت ملوثة بالدم ، حيث جرح نفسه ، فيما هو يصعد الجبل . كانا كلاهما واهنين ، وعلى وشك الانهيار اعياء ، لم يكن هذا مثيراً للدهشة، حيث شقا طريقهما إلى هنا ، قادمين من جزر جوتو على بعد ٢٠ فرسخا، أى مسيرة يومين .

- كنا فوق الجبل منذ فترة ، قبل خمسة أيام اختبأنا هناك ، ونظرنا فى هذا الاتجاه.

أشار أحدهما إلى التل الواقع وراء كوخنا . هكذا فإن هذين الرجلين هما اللذان كانا يراقباننا فى ذلك المساء.

أدخلناهما الكوخ ، وحينما قدمنا لهما البطاطس المجففة التى جلبها لنا ايشيزو ، أمسكاها فى شراهة بأيديهما ، ودفعاها فى فيهما كالحيوانات ، بدا جليا أنهما لم يصيبا طعاماً منذ يومين .

وعندئذ شرعنا فى الحديث . من بحق الله اخبرهما بأننا هنا ... كان هذا هو سؤالنا الأول .

- أبت ، لقد سمعنا بالأمر من مسيحى بقريتنا ، اسمه كيشيجيرو.

- كيشيجيرو ؟

- نعم يا أبت !

كانا لا يزالان جاثمين ، مثلما حيوانين ، فى ظل المصباح الزيتى ، ونثار البطاطس عالق بشفاههما ، كان أحدهما أدرد على وجه التقريب ، لكنه كان يفتر عن السنة أو الاثنتين اللتين بقيتا له ، ويضحك كالطفل، بدا الآخر متصلبا ومتوتراً، فى حضرة قسين اجنبيين .

أخيراً قلت :

- لكن كيشيجيرو ليس مسيحياً .

- أوه ، إنه لكذلك ، يا ابت ، كيشيجيرو مسيحي.

ذلك رد لم نتوقعه تماماً ، مع ذلك فقد سبق أن تساءلنا عما إذا لم يكن هذا الشخص مسيحيا في نهاية المطاف .

لكن الموقف بأسره شرع يتغير تدريجياً . الآن بدا على قدر كاف من الوضوح:

كان كيشيجيرو مسيحياً ، سبق أن ارتد عن المسيحية . قبل ثماني سنوات وشي به وبعائلته كافة ، كانوا مسيحيين جميعاً ، واش بدافع الحسد ، ودفع بهم إلي التحقيق . حينما أمروا بوطء صورة المسيح بأقدامهم ، رفض اخوته وأخواته جميعاً إتيان ذلك . ووحده كيشيجيرو صرخ فزعاً ، بعد تهديدات قليلة من الحراس قائلاً بأنه نكص عن دينه . زج باخوته وأخواته على الفور في غيابات السجون ، لكن كيشيجيرو نفسه ، وان اطلق سراحه ، لم يعد إلي قريته .

في يوم الاعدام بالمحرقة ، شوهد وجهه المستخزى في وسط الجمع ، الذى أحاط بساحة التنفيذ ، ثم انسحب ذلك الوجه ، واحتجب عن الأنظار ، ملطخاً بالوحل ، وبادياً مثل كلب مسعور ، إذ عجز صاحبه عن تحمل مشهد استشهاد اخواته .

من هذين الرجلين سمعنا عجباً . في الناحية المعروفة باسم أودوماري نجح الفلاحون في الهرب من رقابة المسئولين ، وظلوا على مسيحيتهم عن بكرة أبيهم، لم يقتصر الأمر على أودو ماري ، فقد كانت نواحي وقرى مياهرا ووزاكى وايجامي، رغم مظهرها الخارجي البوذى ، مسيحية في الحقيقة ، وهي حقيقة

توشك أن تكون معلنة . كانوا منذ وقت طويل ينتظرون اليوم الذي يعبر فيه القسس البحر البعيد مرة أخرى لمساعدتهم ومنحهم البركة .

- أبت ، لم نشهد قداساً ، وما اعترفنا بخطايانا ، كنا نرتل صلواتنا فحسب.

قالها الرجل دامي القدمين .

- أقبل سريعاً إلى قريتنا ، ياأبت ، إننا نعلم صغارنا ترتيل صلواتهم ، وهم بانظار اليوم الذي تجيء فيه .

فتح ذو الاسنان الصفراء فمه المتثائب ، مثل كهف هائل الغور ، أومأ برأسه موافقاً . اختلج بصيص المصباح الزيتي ونوى . ما كان بمقدوري أنا وجاربي أن نرفض مثل هذا التوسل . لقد كنا غارقين في الجبن حتى الآن ، كان أمراً محرجاً أن نفكر في ضعفنا بالمقارنة بشجاعة هذين اليابانيين ، اللذين رقدا في الجبال، وأدميا أقدامهما ليصلا إلينا .

كانت السماء شهباء ، هب نسيم الصباح الحليبي على كوختنا ، رغم كل إلحاحنا، رفضا أن يأويا إلى القش ، لينالا قسطا من الراحة ، وأغفيا مقعيين ، وأيديهما حول ركبهما ، وأخيراً اخترقت أشعة الشمس الشقوق ، بين ألواح كوخنا الخشبية .

بعد يومين ، ناقشنا مع مسيحيي توموجي مسألة ذهابنا إلى جوتو . أخيراً تقرر أن يبقى جاربي فيما أحاول أنا الاتصال بمسيحيي جوتو لمدة خمسة أيام، لم يبدو تحمساً كبيراً لهذه الخطة، بل ان بعضهم غامر بالاشارة إلى أن الأمر بكامله مؤامرة لإيقاعنا في شراك ينصب لنا .

حل اليوم المحدد ، انسلوا لمقابلتنا عند الشاطيء، كنت ارتدى ثياب فلاح

ياباني. أقبل موكيشي ورجل آخر لوداعي في المركب ، الذي أعدوه عند الشاطيء. تجرد الليل من القمر، لاح البحر غارقاً في الظلمة، والصوت الوحيد الذي كان من الممكن سماعه هو حركة المجاديف المنتظمة ، لكن الرجل الذي كان يقودهم لم ينبس ببنت شفة . فيما أبحرنا نحو البحر عريض الصدر ، غلظت الأمواج ، وارتج المركب.

تملكني فجأة خوف رهيب ، شك، ريبة . ألن يبيعني هذا الشخص الماثل هناك؟ لقد حذرني أهالي توموجي ، وهم على حق لِمَ لم يأت ذو القدمين الداميتين ؟ والآخر الأدرد؟ حدقت في الوجه الياباني الماثل أمامي . كان جامداً ، مجرداً من أي تعبير . شأن وجه بوذا، فغلب الخوف على مشاعري . مع ذلك ، فإني ذاهب حتماً ؛ إذ وعدت بأني سأذهب .

امتد البحر المعتم ، ضارباً أطنابه في رحاب الليل ، تعرت السماء من النجوم. ثم بعد رحيل دام ساعتين في الظلام ، استشعرت الشبح الأسود لجزيرة ، يتحرك متثاقلاً إلى جوارنا . أخبرني رفيقي أن تلك هي كاياشيما ، وهي جزيرة قريبة من جوتو.

بلغنا الشاطيء . أحسست بالتشويش الذهني ؛ جراء دوار البحر والاعياء والتوتر . كان ثلاثة صيادين بانتظار مقدمنا ، حينما تطلعت اليهم . ألفيت وسطهم وجه كيشيجيرو بالابتسامة العريضة المستخذية ذاتها ، التي عرفتها قبلاً . لم يكن ثمة ضوء في القرية ، لكن كلباً في مكان ما راح ينبح في سعار شديد .

لم يبالغ الادرد في وصفه لتوق فلاحي جوتو وصياديها إلى مقدم قس . فحتى الآن مازلت غارقاً في العمل تماماً ، بل لا يتاح لي وقت لاغفو قليلاً . إنهم يأتون داري واحداً إثر الآخر متجاهلين تماماً خطر المسيحية، أعمد الأطفال ، وأصغي لاعترافات الكبار ، وحتى حين أثابر طوال اليوم كله لا أفرغ منهم جميعاً . إنهم

يذكروننى بجيش يزحف عبر صحراء قاتلة الظمأ ، ثم يصل إلى واحة تفيض بالمياه .. على هذا النحو جاءوا إلى ظمأى ، تواقين إلى الانتعاش ، تحتشد الدار الريفية المتداعية التى استخدمها كنيسة بأجسادهم ، وعلى هذا النحو يعترفون بخطاياهم ، أفواههم دانية من مسمعى تمج رائحة كريهة ، تكاد تدفعنى إلى القىء ، بل ان المرضى يزحفون إلى هنا للقائى .

- أبت ، أما تصغى إلى ؟ ... أبت ألن تسمع منى؟

وهكذا يمضى الأمر .

لكن أشد الأمور طرافة هو كيشيجيرو، فلم يعد الرجل ذاته الذى عرفناه ، وإنما أضحى بطل القرية ، الذى رفع حتى مصاف النجوم ، وهو يمضى متشامخاً برأسه فى الهواء ، على أى حال أعتقد أنه لا بأس بتباهيه، إذ لولاه لما جئت إلى هنا على الاطلاق . لكن ماضيه - ردته وما إلى ذلك - يبدو نسيا منسيا . وانى لأتساءل عما إذا لم يكن هذا السكير قد هول فى حديثه للمسيحيين من أمر ماحدث فى ماكاو ورحلتنا البحرية ، وربما زعم أن وصول القسين الأجنبيين إلى اليابان هو من انجازه الشخصى.

ومع ذلك فلست أميل إلى لومه . وإنى لأمقت لسانه الذرب . لكنى لا أستطيع إنكار أنى مدين له إلى حد كبير ، وقد دعوته مستحثاً للاعتراف، فاعترف بانكسار بخطايا حياته الماضية كافة .

أمرته بأن يضع فى ذهنه دائماً كلمات المسيح : «من اعترف بى أمام الناس، اعترف به أمام أبى الذى فى السماوات ، ومن أنكرنى أمام الناس، أنكره أمام أبى الذى فى السماوات».

عند ذلك تراجع كيشيجيرو ، شأن كلب طالته السياط، ولطم جبينه بيده ندما .

إن هذا الرفيق رعديد بطبيعته ، ويبدو أنه عاجز تماماً عن التذرع بأدنى قدر من الشجاعة ، غير أن له إرادة طيبة ، وقد حدثته بوضوح بالغ بأنه إذا أراد أن يقهر تهافت إرادته وجبنه ، الذي يجعله يرتعد فرقاً في مواجهة أدنى أشكال العنف، فإن علاجه لا يكمن في الساكي ، الذي يواصل العكوف عليه ، وإنما في قوة الإيمان.

لم يكن الشعور الذي خامرني منذ بعض الوقت مجافياً للصواب . ما الذي ينشده الفلاحون اليابانيون عندي؟ إن هؤلاء الناس، الذين يكدحون ويعيشون كالدواب ، يجدون للمرة الأولى في تعاليمنا درباً يمكنهم على امتداده أن يلقوا جانباً بالأغلال التي تشد وثاقهم ، الرهبان البوذيون يعاملونهم كالقطيع ، ولوقت طويل عاشوا مذعنين لمثل هذا القدر .

عددت اليوم ثلاثين من الكبار والصغار ، لا ينتمون جميعاً إلى هذا المكان، ذلك أن المسيحيين شقوا طريقهم عبر الجبال من مياهارا وكوز وشيما وهاراتسوكا قادمين إليّ ، ثم أصغيت إلى خمسين اعترافاً عقب قداس الأحد ، الذي أقمته للمرة الأولى، رتلت الصلوات ، وتلوتها باليابانية مع الناس . راح الفلاحون يحدقون فيّ، وعيونهم تتوهج بالحياة وبالفضول ، فيما كنت أتحدث هناك غالباً ما كان ينبعث في مخيلتي وجه ذلك الذي ألقى عظة الجبل ، وإني لأتصور الناس الذين اقتعدوا الأرض ، أو جثوا مسحوري اللب بكلماته . أما أنا فقد فتنت بمحياه، لأن الكتاب المقدس لم يأت على ذكره ، ولأنه لم يرد له ذكر في الكتاب المقدس، على وجه الدقة ، فإن خيالي يحظى بالتفاصيل كافة . منذ نعومة أظافري ضممت هذا الوجه إلى صدري ، مثلما يحتضن عاشق وجه محبوبه ، وحينما كنت طالباً بالمعهد الديني ، كان وجهه السمح ينبعث في صدري ، إذا مسني الأرق .

على أي حال ، وأياً كان الأمر في هذا الصدد ، فإنني أدرك كم هي خطيرة هذه الاجتماعات ، فعن قريب أو بعيد ربما يبلغ التحرك بكامله أسماع المسئولين .

لم يبلغني هنا أيضاً شيء عن فيريرا . قابلت رجلين مسيحيين ، مكتهلين، سبق لهما مشاهدته . خلاصة حوارنا أنه كان قد أنشأ داراً ، في مكان يدعى شينماتسو قرب نجازاكي ، لإيواء القطاء والعجزة ، كان ذلك بالطبع ، قبل أن تتفاقم حملة الاضطهاد ، ولكن من مجرد سماع حديثهما انبعثت ذكرى معلمي القديم متراائية أمام عيني .. اللحية صهباء اللون ، العينان الغائرتان هونا في محجريهما ... بدأت اتساءل عما إذا كان قد خالط هؤلاء المسيحيين اليابانيين المعوزين، على النحو ذاته الذي خالطنا به نحن طلابه ، ووضع يده على اكتافهم بالدفء الودود نفسه .

طرحت عامداً سؤالاً ، حول هذه النقطة :

– أكان ذلك الأب قاسي الطبع؟

حدجني أحد العجوزين بناظريه ، وهز رأسه بشدة نافياً ، كان ما ند عن شفتيه المرتجفتين قوله :

– لا ، لا ، لا لم أقابل أبداً مثل هذا الشخص العطوف الهادىء في حياتي.

قبيل عودتي إلى توموجي ، أوضحت لهؤلاء الناس كيف يقيمون تنظيماً، كالذي سبق أن وصفته لك ، أي ذلك التنظيم الذي ابتدعه أهالي توموجي سراً ، حينما حرموا من القساوسة تماماً ، هكذا علمتهم كيف يختارون من بينهم الجيساما وينصبون التوساما ، ففي ظروفهم الراهنة تعد تلك هي الطريقة

الوحيدة لاستمرار تلقين التعاليم لصغارهم وأطفالهم . وقد عكفوا حقاً على هذا النهج بحماس عظيم ، وعندما حان تحريرهم لمن يضطلع بأعباء الجيساما والتوساما ، بدأوا في الجدال فيما بينهم كانهم أهل لشبونة في زمن الانتخاب، ومن بينهم ، بالطبع واصل كيشيجيرو في عناد ترشيح نفسه لأي من مناصب الشرف .

ثمة نقطة أخرى مهمة ، فقد واصل الفلاحون هنا ، شأن أقرانهم في توموجي، الإلحاف عليّ طالبين صليباً صغيراً أو أيقونة أو شيئاً من هذا القبيل ، وحينما أجبت بأنني خلفت كل هذه الأشياء ورائي ، بدت سيماء الانسحاق عليهم ، أخيراً اضطررت إلى اخراج مسبحتي وفك حباتها واعطاء واحدة منها لكل منهم ، لكن موقفهم يجعلني قلقاً بشكل ما، ويلح عليّ التساؤل عما إذا لم يكن ثمة خطأ في نظرتهم للأمور .

بعد ستة أيام، عدت ، سراً ، في المساء ، إلى سطح المركب الصغير، وجدفنا عائدين ، عبر البحر المعتم ، في رحاب الليل ، رحت اصغي لصوت المجاديف المكرور، وهي تنغمس في الماء ، وهدير البحر . يلطم جوانب المركب، فيما كان كيشيجيرو يقف في مؤخرة المركب مدندناً بأغنية في رقة لنفسه . منذ خمسة أيام مضت ، حينما ، اقبلت إلى الجزيرة ، على متن هذا المركب ذاته ، تملكني خوف غامض حل بي فجأة ، أما الآن فلا يسعني أن أغالب الابتسام إذ استعيد ذكرى هذا الذعر الأحمق . على أي حال انتهى الأمر الآن ، وعلى هذا النحو استرسلت أفكاري.

الحق أن كل شيء سار على أفضل ما يفوق أكثر توقعاتي ايغالاً في الخيال منذ وصولنا لليابان . لم نضطر إلى تجشم عناء أي مغامرة خطرة ، نجحنا في العثور على جماعات جديدة من المسيحيين ، حتى الآن لم يدر المسئولون بوجودنا،

بل وصل بي الأمر حد تصور أن الأب فالينانو في ماكاو كان مبالغاً في تخوفه من الاضطهاد من جانب اليابانيين . فجأة ، أفعمت صدري بمشاعر البهجة والسعادة ، والشعور بأن حياتي لها قيمة وأنها تحقق شيئاً . إنني أقدم بعض النفع لأناس هذه البلاد الواقعة في أطراف الأرض - هكذا حدثتني خواطري - أناس وبلاد لن يكون بمقدورك أبداً فهمهم.

ربما بسبب هذا الشعور بأن كل شيء على مايرام ، بدت رحلة العودة أقصر كثيراً من رحلة الذهاب ، لذا فحينما احتك المركب بشدة معانقا الشاطيء ، لم أكد أصدق أننا قد بلغنا توموجي بالفعل .

اختبأت على الشاطيء وحيداً ، في انتظار موكيشي وصديقه ، شعرت فجأة بأن هذا الاجراء الوقائي لا معنى له بالمرة ، وواصلت التفكير في الليلة التي بلغت فيها أنا وجاربي هذه البلاد .

وقع أقدام على الرمال .

- أبت ...!

غمرتني البهجة ، فانبعثت واقفاً لأشد على يد الآخر بيدي ، التي علقها الرمال.

- أبت ، اهرب .. سريعاً ، سريعاً ، امض بعيداً !!

قالها موكيشي بسرعة هائلة ، وهو يدفعني أمامه.

- الحراس في القرية ..

- الحراس ..؟

- نعم ، يا أبت ، الحراس ، بلغهم النبأ.

هز موكيشي مسرعاً رأسه نافياً ، وقال :

- لم يلاحظوا بعد أننا نخفيكم .

هكذا أسرعت عدوا في الاتجاه المضاد ، مبتعداً عن الناحية ، وموكيشي وكيشيبجيرو يتئبطاني مسرعين ، مضينا إلى الحقول ، محاولين الاستتار عن العيون، فيما كنا نشق طريقنا عبر الحنطة إلى كوخنا الصغير.

رذاذ رقيق نثته السماء . لقد بدأ موسم المطر في اليابان .

الفصل الرابع
رسالة سباستيان رودريجيز

هكذا ، فإن بمقدوري مرة أخرى أن أبعث برسالة لك ، سبق أن حدثتك عن عودتي من جوتو ، وكيف أن رجال الحكومة كانوا ينقبون القرية ، ولا يسعني إلا شكر الله لنعمائه ، إذ كفل السلامة لي ولجاربي .

من حسن الحظ أنه قبل أن يبلغ رجال الحكومة البلدة ، جعل التوساما الجميع يخفون ، بأقصى سرعة ، الأيقونات والصلبان جميعها ، وكل ما يمكن أن يثير الشك . في هذه الظروف كانت منظمة «الكوريا» رائعة ، فحينما وصل رجال الحكومة ، واصل الجميع العمل في الحقول بوجوه تقطر براءة ، رد الجيساما على الأسئلة بجأش رابط ، تجلت حكمة الفلاحين في قدرتهم على التظاهر بأنهم حمقى . بعد تحقيق دام طويلا ، شعر رجال الحكومة ، الذين نال منهم التعب ، بالرضا ، فانصرفوا .

حدثنا ايشيزو وأوماتسو بهذه القصة ، بفخر جلي ، فيما هما يصفان التفاصيل ، كانت شفاههما تنفرج عن أسنانهما ، وتند عنهما ضحكات ملؤها البهجة ، أي براءة في الاحتيال تلك التي ارتسمت على ملامحهما .

مع ذلك ، فقد بقيت مشكلة محيرة : هل وشى أحد بنا ؟ يقينا لا يمكن أن يكون أحد أبناء القرية قد فعل هذا ، إلا أنهم بأنفسهم شرعوا شيئا فشيئا في التشكك أحدهم في الآخر ، وقد بدأ القلق يراودني ، خشية انقسامهم فيما بينهم شيعا وأحزابا .

إذا نحينا هذا جانبا ، فإنني الآن ، وقد عدت من جديد إلى القرية ، استشعر صفاء غامرا . النور يملأ كوخنا ، وبوسعي سماع صياح الديكة ، منبعثا من سفح التل ، والزهور الحمراء فى أوج تفتحها ، تنتشر على سطح الأرض ، مثلما سجادة بديعة .

منذ الرجوع إلى تومـوجي ، وكيشيجيرو يحظى بمكانة مرموقة هنا أيضا . إنه يسير مختالا ، يزور الدور ، يتحدث مباهيا عن الأحوال فى جوتو ، يحكي لابناء القرية أى استقبال لقيته هناك ، وكيف أنه هو حظي بتقدير بالغ ، لأنه أحضرني الى هناك .. وحينما يمضي فى الحديث ، يقدم له أهل القرية الطعام ، بل وفى بعض الأحيان يقدمون له الساكي .

ذات مرة بلغ كوخنا مخمورا تماما ، مع رفيقين أو ثلاثة من رفاقه الشباب ، احتقن وجهه وهو يصيح :

ـ أنا معكم ، وإذا كنت معكم فليس ثمة ما تخشونه .

نظر إليه رفاقه بإجلال .. فيما شرع يرفع عقيرته مغنيا ، بمزيد من الحماس :

ـ أنا معكم ، وإذا كنت معكم فليس ثمة ما تخشونه .

بلغ حد الهتاف مع نهاية غنائه ، ثم تمدد ، وغرق فى نوم عميق . أترى الأمر يرجع الى أنه إنسان طيب فى أعماقه ؟ أم مرده الى أن المرء لا يملك أن يتقبله ؟ إنني ، على أى حال ، لا أستطيع أن أكرهه .

الآن دعني أحدثك بالمزيد عن حياة اليابانيين ، غني عن البيان أنني أحدثك عن فلاحي تومـوجي ، الذين رأيتهم ، ولا أعدو أن أنقل لك مايقولونه فلا تنتهى الى القول بأن اليابان كلها على هذا النحو .

أول ما يتعين عليك إدراكه هو أن الفقر والعفن ، اللذين يعيش هؤلاء الفلاحون في ظلهما ، يتجاوزان أي شيء سبق لك أن رأيته في البرتغال ، على الاطلاق ، حتى الأكثر ثراء بينهم ، أو الطبقة العليا ، لايعرفون للأرز طعما ، إلا مرتين كل عام . طعامهم اليومي هو البطاطس والفجل وما إلى ذلك من الخضر ، بينما شرابهم الوحيد الماء الفاتر . في بعض الأحيان ينتزعون الجذور من الأرض ويلتهمونها . لهم طريقة غريبة في الجلوس .. تختلف تماما عن طريقتنا ، فهم يضعون ركبهم على الأرض أو الخشب الذي يعلوها ، ثم يقتعدون أعقابهم ، هذا الوضع مريح بالنسبة لهم ، لكنه كان مؤلما لنا ، على نحو رهيب ، حتى اعتدناه ، يتخذون من القش سقفا لدورهم ، أما الدور فقذرة ، ورائحتها لاتطاق. ليس في توموجي الا عائلتان تملكان بقرة أو حصانا .

يتمتع السيد الاقطاعي بسلطة مطلقة على رعيته ، تفوق كثيرا مايتمتع به ملك في دولة مسيحية ، والضريبة السنوية باهظة الارتفاع ، يعاقب من يعجزون عن دفعها ، دونما رحمة . حتماً كانت انتفاضة شيما بارا استجابة رهيبة لألوان المعاناة ، التي لا تحتمل ، والتي فرضها نظام الضرائب هذا ، على سبيل المثال ، يروون هنا ، في قرية توموجي ، كيف احتجزت زوجة وأطفال رجل يدعى موزايمون، قبل خمس سنوات ، كرهائن ، وزج بهم في غيابات جب ، لأنه لم يدفع ضريبته ، ومقدارها خمسة أجولة من الأرز . إن الفلاحين عبيد الساموراي ، وفوق هؤلاء السادة الاقطاعيون . يقدر الساموراي الأسلحة ، ويغض النظر عن مراتبهم، يحملون جميعا خنجرا وسيفا ، حينما يبلغ الواحد منهم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، يحظى السيد الاقطاعي بسلطة مطلقة على الساموراي ، وبمقدوره أن يقتل من لا يرضى عنه منهم ، ويصادر أملاكه .

لا يعتمر اليابانيون شيئاً ، في الصيف وفي الشتاء كليهما ، والملابس التي

يرتدونها لاتقيهم غائلة البرد ، يقصون شعرهم تماما ، حتى ليحاكوا الصلع ، تاركين خصلة وحيدة تتدلى على أكتافهم . أما الكهنة البوذيون فيحلقون شعر رؤوسهم تماما ، وثمة آخرون كذلك ليسوا كهنة ، وإنما من صفوف الساموراى يفعلون الأمر ذاته .

هذا انقطاع مفاجيء .

لسوف أكتب لك ، بأقصى ما أستطيع من دقة ، ماحدث فى الخامس من يونيو وإن كان هذا التقرير يمكن أن يغدو موجزا للغاية ، ففى محنتنا الراهنة لا يمكن التكهن بالموعد الذى يجثم فيه الخطر علينا ، قد لاتتاح لى فرصة الكتابة لك مطولا وبالتفصيل .

فى الخامس من يونيو ، عند الظهر على وجه التقريب ، خالجنى شعور بأن أمرا غريبا يجرى فى القرية عند سفح الجبل . من خلف الأشجار ، كان بمقدورنا سماع نباح الكلاب المتواصل . لم يكن بالأمر الغريب ، بالطبع ، فى الأيام الصافية أن تنبح الكلاب ، بل وأن تتناهى قوقأة الدجاج خافتة الى أسماعنا هنا .. كان هذا الصوت حقا يحمل شيئا من العزاء فى اعتكافنا ، أما اليوم فقد شعرنا ، على نحو ما ، بالقلق إزاءه ، تشككنا فى أن الريح تحمل لنا نذير شؤم ، مضينا إلى الجانب الشرقى من الأجمة لنتطلع وندرك مايجرى ، من هنا ، كان بمقدورنا أن نحقق أفضل إطلالة على القرية ، المستكينة عند سفح الجبل .

كان أول شيء جذب انتباهنا سحابة من الغبار الأشهب ، على الطريق الذى يخاصر البحر مفضيا الى القرية . ماذا عساه يكون هذا ؟ ثمة جواد بلا سرج كان ينهب الأرض ، فى جنون ، منطلقا من القرية ، التى وقف خمسة رجال فى مدخلها ، بدا جليا أنهم ليسوا فلاحينا يوصدون الطريق بحزم ، حتى لايستطيع أحد الهرب .

أدركنا توا ماحدث : جاء الحرس لتفتيش القرية ، أوشك أحدنا أن يسقط فوق الآخر ، في غمار اندفاعنا عائدين الى كوخنا ، انتزعنا كل مايمكن أن ينم علينا ، دفناه في الحفرة التى احتفرها ايشيزو . حينما قمنا ، بهذا استجمعنا انفسنا، التى طارت شعاعا ، وقررت الهبوط عبر الأشجار والقاء نظرة عن كثب على مايجرى بالقرية .

ما من صوت أمكننا سماعه ، كانت شمس الظهيرة الشهباء تسوط الطريق والقرية بلا رحمة . كل ما استطعنا رؤيته بوضوح هو ظلال الدور الريفية ، مرتمية بعتمتها على الطريق . لِمَ لم يبد ملمح واحد من ملامح الحياة ؟ حتى نباح الكلاب توقف فجأة ، وبدت تومـوجى أطلالا عتيقة مهجورة ، مع ذلك استطعت تلمس الصمت الرهيب ، الذى احتوى المكان بأكمله ، ضارعا دعوت الله . أعلم حق العلم أننا لاينبغي أن ندعو من أجل السعادة والحظ الطيب فى هذا العالم ، لكنى رحت أدعو ، وأدعو أن يزاح صمت الظهيرة الرهيب هذا للأبد عن القرية ، التى حوم حولها على مثل هذا النحو المنذر بالشؤم .

شرعت الكلاب فى النباح مجددا ، فيما كان الرجال الذين شكلوا حاجزا عند مدخل القرية يندفعون بعيدا ، كان بوسعنا أن نلمح وسطهم شبح الجيساما ـ ذلك العجوز المسكين ـ وقد أحكم شد وثاقه بالحبال . من فوق صهوة جواده ، صاح ساموراى يعتمر قبعة تشبه مظلة سوداء ، مصدرا أمرا ، فشكل الرجال جميعا رتلا واحدا خلف العجوز ، ثم انطلقوا فى طريقهم ، سار ساموراى آخر وحيدا ، وهو يجلد الهواء بسوطه ، مثيرا سحابة من الغبار الأشهب ، مواصلا إلقاء نظرات خاطفة الى الوراء وهو يواصل المسير ، لاتزال ذكرى الأمر كله تضج بالحياة فى ذهنى . الجياد تسير خببا ، العجوز يتلوى ، يتعثر ، فيما آسروه

يجرونه خلفهم ، على هذا النحو ، تقدم الموكب ، على امتداد الطريق ، في حرارة الشمس الشهباء ، كأنه رتل من النمال ، ثم احتجب عن النظر .

في تلك الليلة سمعنا التفاصيل من كيشيجيرو وموكيشي ، أقبل الحرس قبيل الظهيرة . لم يتلق الناس تحذيرا هذه المرة ، من مقدمهم ، هكذا انطلق الساموراى على صهوات جيادهم يصدرون الأوامر الى رجالهم ، يعدون على امتداد القرية ، يحرقون في كل ركن ، فيما اندفع الناس هنا وهناك هاربين ، والفوضى تعمهم .

لم يعثروا على أى أثر لشيء مسيحى ، لكنهم هذه المرة لم يستسلموا في يأس، ولم ينسحبوا ، وإنما جمع الساموراى الفلاحين معا ، في مكان واحد ، وأعلن أنه إن لم يفصحوا عن جلية الأمر كله ، فإن رهينه ستؤخذ ومع ذلك لم تند عن أحد كلمة .

ـ نحن لا نهمل دفع ضرائبنا ، ونؤدى واجبنا نحو الدولة ، وجنازاتنا أيضا .. إنها تشيع في المعبد .

قالها الجيساما للساموراى .

لم يرد الساموراى على هذا ، وإنما أشار بسوطه نحو الجيساما ، وفي التو ألقى رجاله، الذين كانوا يقفون متجمعين خلفه ، أنشوطة على العجوز وشدوا وثاقه في احكام .

ـ حذارى ، لست أبغي ثرثرة ، لسنا هنا للمساجلة ، أبلغنا مرشد مؤخرا أن في صفوفكم من يتبع سرا هذا المذهب المسيحي المحرم . إذا قال أحدكم صراحة من هؤلاء الناس ، فسيتلقى مائة قطعة من الفضة ، لكن إن لم تعترفوا ، فعليكم الوزر . سنعود، بعد ثلاثة أيام ، لنصحب رهينة أخرى . أمعنوا التفكير في الأمر.

وقف الفلاحون منتصبين صامتين ، رجالا ، نساء، أطفالا .. صمتوا جميعا ، على هذا النحو انقضت الثواني ، بدا الأمر كما لو كانوا أعداء يحدق بعضهم في البعض الآخر ، حينما أتأمل الأمر الآن أدرك أن من المحتم أو على وجه الدقة أن الوقت الذي غدا فيه كل شيء صامتا هو الذي اطللنا فيه على القرية من الجبل .

مال الساموراي بجواده نحو المدخل ، انطلق مبتعدا ، جالدا الهواء بسوطه ، سقط الجيساما العجوز المقيد ، الذي تجره الجياد خلفها ، وقف ، ثم هوى مجددا ، أمسك به الرجال ، في غلظة ، محاولين دفعه للوقوف ، فيما جيادهم تجره بعيدا .

على هذا النحو جرت واقعة الخامس من يونيو ، تماما كما سمعناها .

قال موكيشي ، ويده على ركبتيه :

ـ لا ، يا أبت ، لم نفه بكلمة عنكما ، وإذا عادوا فلن نقول شيئا . كائنا ماسيقع ، سنقف الى جواركما .

ربما قال هذا لأنه لاحظ الظل الذي عبر وجهينا، خوفا ورهبة مادامـا الا للحظة، لئن كان الأمر كذلك فما أشد الخجل الذي استشعره . رغم ذلك ، فإنه حتى جاريبي السمح في وجه أفظع الصعوبات حدج موكيشي بنظرة أفعمت كربا ، أخيرا قال :

ـ لكن ذلك اذا استمر فسينتهي الأمر بكم جميعا الى أن تصبحوا رهائن .

ـ نعم يا أبت ، قد يسير الأمر على هذا النحو ، ولكن حتى إن وقع ذلك فلن نقول شيئا .

ـ لكن هذا مستحيل ، خير لكلينا ، بدلا من مثل هذه الكارثة ، أن نمضي بعيدا عن هذا الجبل كلية .

فيما كان جاربي يتحدث ، التفت الى موكيشي والى كيشيجيرو المذعور ، الجالس الى جوارنا ، وأضاف :

ـ ألا يمكننا أن نلوذ بجزيرة هذا الرجل ؟

عند هذه الكلمات عبر تشنج ، من فرط الخوف ، وجه كيشيجيرو ، لكنه لم ينبس ببنت شفه.

تأملت الموقف مجددا ، فأدركت أن هذا الرفيق المتزلف الهش الارادة ، بعدما أحضرنا هنا وتورط في الأمر كله ، كان في موقف لا يحسد عليه ، فهو من ناحية لايرغب في أن يفقد سمعته كمسيحي صالح ، غير أنه في رأسه الصغير كان يقدح زناد تفكيره ، بحثا عن سبيل يمسك عليه حياته ، هكذا التمعت عيناه الماكرتان ، فيما هو يفرك يديه كالذبابة تماما . قال إن المشكلة ذاتها ستثور عندئذ في جوتو ، حيث سيتم تفتيشها بدورها . ثم واصل محاولة البرهنة على أنه سيكون من الأفضل المضي الى مكان أبعد . لكنه على أي حال لم يتم التوصل الى قرار ، تلك الليلة ، فانسل الرجلان يهبطان الجبل .

في اليوم التالي ، كان أهالي توموجي جميعا منفعلين ومتوتري الأعصاب . بعيد أنا البعد كله عن طرح أي انتقاد لهم ، لكني أريد أن أحدثك ، على وجه الدقة ، عما رواه موكيشي لي ، انقسموا الى فريقين ، فريق يصر على أننا كلينا ينبغي أن ننتقل الى موضع آخر ، والفريق الآخر يقول بأن القرية ينبغي أن تؤوينا أيا كانت النتائج ، بل كان هناك البعض ممن قالوا إنني وجاربي مسئولان عن الشر الذي حاق بالقرية ، وسط هذا كله ، أبدى موكيشي وايشيزو وأوماتسو يقينا لايتزعزع أيا كان ماسيقع فسوف يحمون القسيسين.. على هذا النحو كان موقفهم .

أتاحت هذه الفوضى للسلطات الفرصة ، التى كانت تنشدها ، فى الثامن من يوليو ، تبنت منهاجا جديدا ، فى هذه المرة لم يكن ساموراى ضارى المظهر ، على متن جواد ، هو الذى أقبل هذه المرة ، وإنما ساموراى مكتهل ، ذو وجه بشوش ، بصحبة أربعة من أتباعه ، نصح الناس بأن يزنوا الأمر بدقة ، وأن يفكروا فى الحجج المؤيدة للأمر بكامله والمعارضة له ، أشار الىّ أن من يكشف بإخلاص النقاب عن أسماء اتباع هذا المذهب المسيحى سيحصل على تخفيض فى الضرائب ، التى تجبى منه فى السنوات المقبلة ، ومن المحقق أن فكرة تخفيض الضريبة كانت بالنسبة لهؤلاء الفلاحين المعدمين مغرية حقا ، ومع ذلك فقد قهروا الإغراء .

ـ إذا وقفتم هذا الموقف الصلب ، فليس أمامى فيما افترض الا تصديقكم .

قالها الكهل ، وهو يلتفت خلفه متضاحكا نحو اتباعه أضاف :

ـ ومع ذلك فعلىّ أن أسأل رؤسائى أيهما أصدق .. ماتقولونه أو مايقوله مرشدنا ، لذا فنحن بحاجة الى رهينة . من بينكم تخيروا ، رجاء ، ثلاثة رجال ، وأرسلوهم الى نجازاكى غدا ، وحيث إننى واثق من أنكم لاتأتون ما هو خطأ ، فليس ثمة مايدعو للقلق .

لم تكن فى صوته أدنى اشارة تهديد ، لكن الجميع عرفوا أنه شرك ، هكذا أمضى رجال تومومجى الليلة يتجادلون بخشونة فيمن سيرسل الى مقر الحاكم فى نجازاكى ، فالرجال الذين يتم اختيارهم قد لايعودون أبدا ، فلا غرو أن أحجم حتى التوساما والآخرون ، الذين يشغلون مثل هذه المراكز . تجمع الفلاحون فى دار ريفية معتمة ، وراحوا يمحصون بعضهم البعض بدقة بدا كل منهم وكأنه يسائل نفسه كيف يمكن أن يفلت من هذا الدور الرهيب .

ورد ذكر اسم كيشيجيرو ، ربما كانت أسباب ذلك في المقام الأول أنه كان ، بمعنى ما غريبا ، أي لا ينتمي الى توموجي ، وثانيا لأن الكثيرين كان يخامرهم شعور بأن الكارثة بأكملها قد وقعت بسببه .. يا للرعديد المسكين ! حينما رأى مايحدث ، انتابه اضطراب مفزع ، وشرع في البكاء ، أخيرا انحلت عرى لسانه ، منفرطة الى حديث بذى ، خاطب به الجميع . لكن الآخرين ذهبوا الى القول بأنهم سيتعين عليهم التخلى عن زوجاتهم وأطفالهم ، أضافوا : «أنت لا تنتمى الى هذه القرية ، والمسئولون لن يحققوا معك بقسوة بالغة ، امض، رجاء بدلا منا ! «ناشدوه بأيد متضامة ، حتى لم يعد بوسعه ، جراء الضعف ، أن يرفض . هكذا تقرر ألا بد من ذهابه .

ـ دعوني أمض كذلك !

كان إيشيزو هو الذى تحدث فجأة ، أمسك الجميع أنفاسهم ذهولا ، أيمكن أن يكون هذا هو ايشيزو الصامت العنيد الذين عرفوه حق المعرفة ؟

ثم جاء دور موكيشى . قال إنه سينضم الى الاثنين الآخرين .

التاسع من يونيو . منذ الصباح راحت السماء تنث رذاذا خفيفا . ما كان يمكن الا بالكاد رؤية الأشجار الواقعة أمام كوخنا ، حيث لفها الغمام الرمادى . رقى الرجال الثلاثة الجبل ، حتى بلغوا الأجمة ، بدا موكيشى منفعلا قليلا ، لاح ايشيزو، وقد ضاقت عيناه ، كعهده أبدا ، مكفهرا ، صامتا ، خلفهما كان كيشيجيرو يبدو مثل كلب نالته السياط ، يحدق فيّ ، على نحو يدعو للرثاء ، بعينين أفعمتا جفاء .

ـ أبت ، اذا أمرنا بوطء «الأيقونة» بأقدامنا ..

غمغم موكيشى بهذه الكلمات خافض الرأس ، كأنما يحدث نفسه أضاف :

ـ إنه أمر لايعنينا وحدنا ، فإذا لم نطأ الأيقونة ، فسيتم التحقيق مع الجميع في القرية . ماذا عسانا نفعل ؟

عندها تفجر شعور عارم بالاشفاق في صدري ، حتى ندّ عني بلا تفكير رد أعرف أنك ماكنت لتطرحه أبدا . انتزعت من ذهني ذكرى الأب جابرييل الذي صاح خلال حملة الاضطهاد في أونزين حينما جره مضطهدوه حتى الأيقونة : «أوثر أن تبتر هذه القدم على أن تدهس هذه الصورة ..» أعلم أن الكثيرين من المسيحيين اليابانيين ومن الآباء قد أعربوا عن مثل هذه المشاعر ، حينما وضعت الصورة المقدسة أمام أقدامهم ، ولكن هل من الممكن أن نطلب هذا من هؤلاء الرجال التعساء ؟

ـ ادهسوا ! ادهسوا !

صحت بها ، لكني أدركت توا أنني تلفظت بكلمات ما كان ينبغي أن تصدر أبدا عن شفتي . نظر إليّ جاربي منحيا باللائمة .

كان كيشيجيرو لايزال على تباكيه ، صاح :

ـ لم ابتلانا الله تعالى بهذا الابتلاء ؟ إننا لم نأت ذنبا .

لفنا الصمت . ظل موكيشي وايشيزو على صمتهما كذلك ، وعيونهما مثبتة على بقعة في السماء الخاوية .

هكذا انخرطنا جميعا في صلاة أخيرة ، حينما انتهينا ، هبط الرجال الثلاثة الجبل ، رحت وجاربي نرقب أشباحهم تتبدد في الغمام ، وتحتجب عن أنظارنا ، لم يقدر لي أن ألتقي بعدها ثانية بموكيشي وايشيزو أبدا .

مرة أخرى ينقضي وقت طويل قبل أن أكتب لك . سبق أن وصفت لك كيف أن رجال الحكومة انقضوا على تومو جي ، لكني اضطررت للانتظار حتى الآن ، قبل

أن أتمكن من مواصلة سرد التفاصيل ، حول التحقيق مع المسيحيين الثلاثة فى نجازاكي . ضاعفنا صلواتنا للسماء ، لعلهم يرجعون مع الجيساما سالمين ، ليلة إثر الأخرى واصل أهالي القرية صلواتهم من أجل هذه الغاية .

لا أعتقد أن الله قد ابتلانا هذا الابتلاء دونما غاية ، أعلم أنه سيأتي يوم نفهم فيه بجلاء السر فى أن هذا الاضطهاد بكل ما فيه من ضروب المعاناة ، قد فرض علينا ، ذلك أن كل شىء يأتيه الرب إنما يحمل الخير لنا ، مع ذلك حتى فيما أسطر لك هذه الكلمات ، فإنى استشعر الثقل الطاغي لهذه الكلمات الأخيرة المتعثرة ، التى لفظها كيشيجيرو صباح رحيله : «لِمَ ابتلانا الله تعالى بهذا الابتلاء ؟» ثم الكرب فى العينين ، اللتين رمقنى بهما ، وهو يقول : «أبت . أى شر أتينا ؟» .

أعتقد أن علىّ أن أنبذ هذه الكلمات العبثية ، التى ندت عن ذلك الخائر ، لكن لم يخترق صوته المكتئب صدرى حاملا الألم كله الذى يمكن أن تبعثه ابرة حادة؟ لماذا فرض ربنا هذا العذاب وهذا الاضطهاد على الفلاحين اليابانيين المساكين ؟ لا . لقد كان كيشيجيرو يحاول التعبير عن شىء آخر مختلف ، شىء أشد إثارة للبؤس . صمت الرب . عشرون عاما تقضت بالفعل منذ اندلع الاضطهاد . امتلأت تربة اليابان السوداء بنحيب الكثيرين من المسيحيين ، شخب دم القسس الأحمر متدفقا ، تهدمت جدران الكنائس ، وأمام هذه التضحية الرهيبة المتجردة من الرحمة المرفوعة للرب ، ظل ملتزما الصمت . كانت تلك هى المعضلة الكامنة وراء سؤال كيشيجيرو المكتئب .

على أى حال ، دعنى أحدثك بالمصير الذى آل اليه أمرنا ، عقب ذلك .

استدعى الرجال الثلاثة الى مكتب الحاكم ، فى مكان يدعى ساكوراداى . تركوا لمدة يومين ، جاثمين بالسجن ، فى مؤخرة المكان ، الى أن دفع بهم

أخيرا للتحقيق ، لسبب أو لآخر بدأ التحقيق بسؤال ورد تلقائيين على نحو غريب .

ـ أتعلمون أن المسيحية دين يحظر القانون اعتناقه ؟

أومأ موكيشي ، المتحدث باسم الجماعة برأسه أن أجل .

ـ يقول تقرير أرس إلينا إنكم تقيمون شعائر هذا الدين المحظور . فماذا تقولون ؟

رد الثلاثة جميعا بأنهم بوذيون قانعون ببوذيتهم ، ويعيشون وفق تعاليم كهنة معبد دانا .

كانت الخطوة التالية هي : إذا كان الأمر كذلك ، فادهسوا الأيقونة .

وُضِعَ أمامهم لوح ثبتت عليه صورة العذراء والطفل الوليد عند أقدامهم ، اتباعا لنصيحتي كان كيشيجيرو أول من وضع قدمه على الصورة ، ومن بعده حذا موكيشي وايشيزو حذوه ، ولكن إذا كانوا يعتقدون أنه بهذا وحده سيتم العفو عنهم ، فقد جانبهم الصواب ، الى حد بعيد ، ببطء تلاعبت على وجوه المسئولين ، الذين يراقبونهم ابتسامات واهنة ، لم يكن ما جذب انتباههم هو حقيقة قيام المسيحيين بوضع أقدامهم على الأيقونة ، وإنما التعبيرات التى ارتسمت على وجوههم ، وهم يقومون بذلك .

ـ أتعتقدون أن بوسعكم خداعنا على هذا النحو ؟

قالها أحد المسئولين المكتهلين ، الآن تعرف الرجال ، للمرة الأولى،فيه الساموراى الكهل ، الذى أقبل على متن جواده قبل أيام الى تومـوجى ، واصل حديثه .

ـ أتظنوننا بلهاء ؟ أتعتقدون أننا لم نلاحظ كيف أصبح تنفسكم ثقيلا ، متوترا

صاح موكيشى منفعلا :

ـ لسنا منفعلين ، لسنا بالمسيحيين .

جاء الرد .

ـ طيب . دعونا نجرب طريقة أخرى .

مع هذا الرد صدر الأمر بأن عليهم أن يبصقوا على الصليب ، وأن يعلنوا أن العذراء المباركة عاهرة . لم أسمع ، إلا فيما بعد ، أن تلك خطة ابتدعها اينوى ، الرجل الذى تحدث عنه فالينانو ، باعتباره الرجل الأعظم خطرا . كان اينوى هذا ، الذى تلقى العماد ذات يوم ليحظى بمرتبة اسمى فى الدنيا ، يعرف حق المعرفة أن هؤلاء الفلاحين المساكين يجلون العذراء . ويرفعونها الى المرتبة الأسمى ـ بل إنى شعرت ببعض القلق حقا منذ وصولى إلى تومومجى ازاء مشاهدتى للفلاحين ، وهم يبدون فى بعض الأحيان كما لو كانوا يجلون مريم أكثر من المسيح.

ـ هلموا الآن ! ألن تبصقوا عليه ؟ ألن ترددوا الكلمات التى قيلت لكم ؟

أمسك ايشيزو بالأيقونة بكلتا يديه ، فيما المسئولون ينخسونه من ورائه . حاول أن يبصق عليها ، لكنه بشكل ما كان عاجزا . لم يستطع اتيان ذلك . تراجع كيشيجيرو بدوره دون أن تندّ عنه حركة واحدة .

ـ ماذا دهاك ؟

إزاء الاستحثاث الوحشى من المسئولين ، همت دمعة شهباء من عين موكيشى، تحدرت على خده ، هز ايشيزو بدوره رأسه ، كأنما هو على أعتاب ألم يعانيه ، ثم اعترفا كلاهما صراحة بأنهما مسيحيان . وحده كيشيجيرو وقد غلبته التهديدات لهث لافظا التجديف المطلوب بحق العذراء .

ـ الان ابصق !

دوىّ الأمر .

اسـتـجـابة له ، ترك البـصـاق المهين ، الذى لا يمكن أن يمحى يهـوى على الأيقونة.

عقب هذا التحقيق ، زج بموكيشي وايشيزو فى السجن بساكورادای عشرة أيام ، أما المرتد كيشيجيرو فقد أطلق سراحه ، وبهذا اختفى عن الأنظار ، منذ ذلك الوقت لم يعد الى توموجي ، اذ سيكون الرجوع مستحيلا بالنسبة له .

أوغلنا الآن فى موسم المطر . كل يوم يهمى رذاذ بديع بلا توقف ، الآن أدركت للمـرة الأولى أى ايذاء باعث الكآبة يمكن أن يكونه هذا المطر ، يلحق الدمـار بكل شىء على السطح ، وفى أغوار الجذور . تبدو هذه الناحية بلدة طالها الموات ، لا أحد يعلم أى قدر سيحل بساحة رجلينا المسيحيين ، تملك الناس خوف من أنهم قد يتعرضون بدورهم للتحقيق ذاته ، ما عاد أحد على وجه التقريب يمضى للعمل بالحقول . وراء الحقول الكئيبة لشد مابدا البحر مكفهرا !

العشرون من يونيو . مرة أخرى أقبل رجال الحكومة الى القرية على صهوات جيادهم ، حاملين معهم هذه المرة بلاغا . هنا ، على شاطىء توموجو ، سيخضع موكيشى وايشيزو للعقاب بالماء .

الثاني والعشرون من يونيو ، كان بالوسع رؤية موكب ، يبدو مثل رتل طويل من البازلاء يدنو من البعيد على الطريق الرمادى ، الذى لفه المطر . تضخمت الشخوص الضئيلة ، فى قلب الجماعة المقبلة ، كان ايشيزو وموكيشى بأيد موثقة وروس خفيضة يتحلقها الحرس . لم يغامر أهالى القرية بالخروج ، قبعوا خلف أبواب دورهم الموصدة ، خلف الموكب الطويل أقبل عدد من الفضوليين الذين

انضموا اليه من القرى المجاورة لاجتلاء المشهد ، كان بوسعنا أن نرقب الأمر كله من كوخنا .

حينما بلغ الموكب الشاطىء أمر المسئولون بايقاد النار ، ليتمكن ايشيزو وموكيشي من تدفئة جسديهما اللذين أغرقهما المطر . ثم بشعور غير مألوف بالاشفاق ، «كما قيل لى» منحهما أحدهم قدحا من الساكى ليتجرعاه ، حينما سمعت ذلك لم استطع منع نفسى من التفكير فى الجندى الذى وهب المسيح المحتضر بعضا من الخل يرتشفه .

نصبت شجرتان ، أقيمتا على هيئة صليب ، قرب حافة الماء ، شد وثاق ايشيزو وموكيشي اليهما . حينما يقبل الليل ، ويعلو المد ، ينغمس جسداهما فى البحر حتى الذقن ، لن يلقيا حتفهما على التو ، وإنما بعد يومين أو ثلاثة أيام من العناء الجسدى والذهنى البالغ سيكفان عن التقاط أنفاسهما ، كانت خطة السلطات أن تدع أهالى قرية توموجى والفلاحين الآخرين يحدقون ملء البصر فى هذه المعاناة المتطاولة ، حتى لاتقترب خطاهم مرة أخرى من الدين المسيحى . كان الوقت قد تجاوز الظهيرة ، حينما شد وثاق موكيشي وايشيزو الى الشجرتين ، وانسحب المسئولون على صهوات جيادهم ، تاركين أربعة من الحراس للمراقبة ، الآن كذلك شرع الفضوليون الذين أقبلوا أول الأمر فى جمع عظيم ، فى الرحيل تدريجيا .

ارتفع المد ، لم يأت شبحا الرجلين بحركة واحدة ، علت الأمواج ، أغرقت اقدامهما والنصفين السفليين من جسديهما ، غمرت الشاطىء المظلم بتصخاب مكرور .

فى المساء حملت أوماتسو مع ابنة أخيها الطعام إلى الحرس ، تساءلت عما اذا كان بمقدورها أن تقدم للرجلين ما يتبلغان به ، حينما تلقتا إذنا بذلك ، دنتا من الرجلين فى زورق صغير .

صاحت أوماتسو :

ـ موكيشي ! موكيشي !

ـ ما الخبر ؟

ـ قيل إن هذا كان رد موكيشي .

اتبعت ذلك نداءها .

ـ إيشيزو ! إيشيزو !

لكن إيشيزو العجوز ما كان بمقدوره أن يحير ردا ، مع ذلك فلم يكن قد لقى حتفه على نحو ما بدا جليا من الحركة الهينة ، التى كانت تند بين الحين والآخر عن رأسه .

ـ لشد ما تقاسيان ، لكن عليكما بالصبر ، الأبوان ونحن جميعا نصلى من أجلكما . ستمضيان معا الى النعيم .

على هذا النحو ، ترددت كلمات التشجيع اللهفى ، التى همست بها أوماتسو، لكنها حينما حاولت أن تضع البطاطس التى حملتها معها فى فم موكيشي ، هز رأسه رافضا ، بدا أنه يحس بأنه ميت لا محالة ، كان يؤثر أن يلوذ بالهرب سريعا قدر الامكان ، بعيدا عن هذا العذاب قال :

ـ أعطها إيشيزو ، دعيه يأكل ، لاأستطيع التحمل أكثر من هذا .

عادت أوماتسو وابنة أخيها ذاهلتين ، دامعتين ، الى الشاطىء ، هنا ، غارقتين، بالمطر ، رفعتا صوتيهما بالنواح ، انخرطتا فى البكاء .

أقبل الليل . كان من الممكن رؤية وهج النار التى أوقدها الحرس ، يلوح خافتا، حتى من كوخنا الجبلى ، فيما تجمع أهالى توموجى على الشاطىء وراحوا ، يحدقون فى البحر المدلهم . غرق البحر والسماء فى القتام ، حتى ما عاد أحد

يدرى أين موكيشي وايشيزو ، خفي على الجميع ما إذا كانا على قيد الحياة ، أم غالهما الموت ، ثم سمعوا ما بدا لهم أنه صوت موكيشي ، مشتبكا مع هدير الأمواج ، راح الشاب يردد لاهثا ترتيلة مسيحية ربما ليحدث الناس بأن حياته لم ينضب معينها بعد ، أو ليشد من عزمه :

إنا على دربنا ، إنا على دربنا .

إنا على دربنا الى معبد الفردوس .

إلى معبد الفردوس .

إلى المعبد العظيم ..

أصاخ الجميع صامتين السمع لصوت موكيشي ، أصغى الحرس كذلك ، مرة أخرى وسط صوت المطر والأمواج ، شق الصوت طريقه الى أذانهم .

الرابع والعشرون من يونيو : استمر الرذاذ طوال اليوم ، فيما راح اهالى توموجي ، وقد تكأكئوا كرة أخرى بعضهم على البعض الاخر ، يحدقون من بعيد فى وتدى موكيشى وايشيزو ، ترامت اطراف الشاطيء الذى عمه المطر في إعياء مثلما صحراء مطمورة . لم يأت اليوم مشاهدون «أغيار» من القرى المجاورة . حينما انحسر المد خوى البعيد إلا من الوتدين المتوحدين ، اللذين شد وثاق الرجلين اليهما . استحال التمييز بين الوتدين والرجلين . التحم موكيشي وايشيزو بالوتدين حتى أصبحا بضعة منهما ، كان المؤشر الوحيد الذى يدل على أن الحياة لا تزال تدب فيهما هو الأنين الكابي لصوت يتردد كأنه صوت موكيشي .

فى بعض الأحيان كان الأنين يتوقف . ما عاد لموكيشي من القوة مايشجع به نفسه بترديد ترتيلة ، كالتي شدا بها أمس . لكن الريح ، بعد ساعة من صمت ، حملت الصوت كرة أخرى الى آذان الناس ، أخذت الرعدة الفلاحين ، فانخرطوا

فى البكاء ، حينما سمعوا هذا الصوت يتنامى كصوت حيوان ، فى الأصيل اصاعد المد تدريجيا كرة أخرى ، وبعد غور اللون الكابى البارد الذى اكتساه البحر ، بدا الوتدان وكأنهما يغرقان فى الماء ، وتكسرت الأمواج البيضاء المزبدة مدومة في تجاوزها للوتدين على الرمال ، حلق طائر أشهب ، اثر ما انزلق على سطح الماء بعيدا ، بعيدا ، وبهذا انتهى كل شيء .

استشهدا ، لكن يا لهوله من استشهاد . لطالما قرأت عن الاستشهاد فى سير حياة القديسين ، كيف أن أرواح الشهداء رفرفت الى مثواها فى جنة النعيم ، كيف كللوا بالمجد فى الفردوس ، كيف نفخت الملائكة فى الصور ، ذلك كان الاستشهاد البديع ، الذى طالما تراءى في أحلامى ، لكن استشهاد المسيحيين اليابانيين ، الذى أصفه لك الآن ، لم يكن شيئا مكللا بالمجد ، على هذا النحو . أى أمر بائس وموجع كان ! المطر يهمي بلا انتهاء على البحر ، والبحر الذى غالهما يفور غادراء فى صمت .

فى المساء أقبل رجال الحكومة ، من جديد ، على صهوات جيادهم ، انصياعا لامرهم احتطب الحرس كسرا مبللة بالماء من الخشب ، أزالوا جثتى موكيشى وايشيزو من الوتدين وشرعوا فى احراقهما . قاموا بذلك ليمنعوا المسيحيين من حمل الجثتين الى القرية للقيام نحوهما بما تستحقانه من تكريم . حينما استحالتا رمادا ، نروه فى البحر . شب اللهب الذى أشعلوه متقدا ، بالحمرة وبالسواد فى نسيم البحر ، علا الدخان فوق الشاطيء الرملى ، فيما كان الناس يرقبون شاردين تموجه ، دون أن تندّ عنهم حركة واحدة . حينما انتهى الأمر كله ، انقلبوا عائدين الى دورهم ، برءوس منكسة كالأبقار ، واقدام متثاقلة الخطى .

اليوم ، خلال كتابة هذه الرسالة ، كنت أغادر كوخنا لألقى نظرة على البحر

مقبرة هذين اليابانيين ، اللذين أمنا بكلمتنا ، كئيبا ، معتما، امتد البحر بلا انتهاء فحسب فيما لم يكن تحت السحب الرمادية ظل جزيرة .

لم يتغير شــيء ، لكنى أعلم ماستقوله : «إن موتهما لم يكن عبثيا ، وإنما كان حجــرا سيغدو بمرور الزمن أساس الكنيسة ، وان الله لايصيبنا أبدا بابتلاء لا نستطيع قهره . إن موكيشى وايشيزو فى رحاب الله ، شأن العديد من الشهداء المسيحيين الذين سبقوهما، وانهما يحظيان الآن بسعادة ازلية» إننى بالطبع ، مقتنع كذلك بهذا كله ، مع ذلك لم يقبع هذا الشعور بالأسى فى فؤادى ؟ لم تتغل فى قلبى أنشودة موكيشى الذى شفه الاعياء وشد وثاقه الى الوتد :

إنا على دربنا ، إنا على دربنا .

إنا على دربنا الى معبد الفردوس .

إلى معبد الفردوس .

الى المعبد العظيم .

كنت قد سمعت من أهالى توموجى أن الكثيرين من المسيحيين كانوا ، حينما يقتادون الى ساحة الاعدام يرتلون هذه الأنشودة ، بلحنها المفعم بالحزن الكابى ، فالحياة فى هذا العالم بالغة الايلام بالنسبة لهؤلاء الفلاحين اليابانيين ، ومن خلال الاعتماد على «معبد الفردوس» استطاعوا مواصلة الحياة ، ذلك هو الحزن الذى يملأ شغاف هذه الأنشودة .

ما الذى أريد قوله ؟ لست أفهم بذاتى على وجه الدقة ، كل ما أفهمه أننى اليوم ، وفيما كان موكيشى وايشيزو يتألمان ، لأجل مجد الرب ، يعانيان ، يلاقيان حتفهما ، لم أستطع سماع هدير البحر الكابى المكرور ، وهو يلعق الشاطىء ،

خلف الصمت المحيط بهذا البحر امتد صمت الله .. الشعور بأنه فيما يرفع البشر عقائرهم ، في غمار العذاب ، يظل الرب مكتوف اليدين ، صامتا .

لربما يكون هذا تقريري الأخير ، فقد تناهى الينا هذا الصباح أن الحرس يستعدون لتمشيط الجبال ، قبل أن يبدأ هذا البحث ، أعدنا الكوخ الى حالته الأصلية ، تخلصنا من كل اثر لاعتصامنا به ، هكذا نغادره الآن ، الى أين سنمضي ؟ لم أقرر أنا وجاربي بعد ، تحدثنا طويلا عن هذا الأمر ، متسائلين عما اذا كان علينا أن نلوذ بالفرار معا ، أم يمضي كل في طريق أخيرا قررنا أنه حتي اذا أصبح أحدنا طريدة الأغيار ، فإن من الخير أن يظل الآخر طليقا ، بتعبير آخر فإن علينا أن نفترق ، مع ذلك فلم ، بحق السماء ، نمكث في هذه البلاد على الاطلاق ؟ إننا لم نقم برحلتنا المتطاولة حول أفريقيا وعبر المحيط الهندى وإلى ماكاو ثم اليابان لمجرد أن نهرب على هذا النحو ، من مكمن إلى آخر . لم يكن ذلك من أجل أن نختفي في الجبال كفئران الحقل ، نتلقى كسرة خبز من فلاحين معوزين ، ونعتكف في كوخ حطاب ، حتى دون أن نستطيع لقاء المسيحيين . ما الذى حدث لحلمنا المجيد ؟

مع ذلك ، فإن لبقاء قس واحد في هذه البلاد الأهمية ذاتها التى لشمعة واحدة تأتلق في عماء سراديب الموتي ، هكذا أقسمت أنا وجاربي أحدنا للآخر أننا بعد افتراقنا سنكافح بأقصى ما في وسعنا ، لنبقى على قيد الحياة .

أيا كان الأمر ، اذا كان تقريرى قد اقتضب فجأة «فكل ما أعلمه أنك ربما حتى اليوم لم تتسلمه بعد» فلا يذهبن بك الظن الى أننا قد لاقينا بالضرورة حتفينا ، فالأمر لايعدو أن علينا أن نخلف في هذه الأرض العصية فأسا ليقلب تربتها .

كل ما حولي بحر مظلم ، من المستحيل أن يحدد المرء أين يبدأ سواد الليل ، ليس بوسعي أن أرى ما اذا كانت هناك جزر حولي ، الشيء الوحيد الذى يحدثني بأنني في البحر هو التنفس المكدود للشاب الذى يعمل مجدافي القارب خلفي .. صوت المجدافين فى الماء ، ارتطام الأمواج بحافة القارب .

قبل ساعة ودعت أنا وجاربى أحدنا الآخر ، ركب كل منا قاربا صغيرا مستقلا، وغادرنا توموجى مضى باتجاه هيرادو . لم استطع في عماء الظلمة حتى أن أراه، لم يتح لنا الوقت لنقول إلى الملتقى .

وحيدا ، لفتني رعدة من قمة رأسي حتى أخمص قدمي ، بدا جسدى كما لو كانت ارادتي قد فقدت قدرتها على التحكم به ، لئن قلت إن هذه اللحظة لم تكن مفعمة بالرهبة ، فإني إذن من الكاذبين ، ذلك أنه أيا كانت قوة إيمان المرء ، فإن الخوف اذ يعترى البدن ، يمكن أن يقهر المرء تماما ، حينما كنت بصحبة جاريى كان بمقدورنا على الأقل أن نشارك فى خوفنا على نحو مايشارك المرء أخاه خبزه باقتسامه معه . أما الآن فإني وحيد ، فى بحر الليل المظلم ، وعليّ أن أحمل على كاهلي البرد والظلمة وكل شيء أخر «ترى أو قد استشعر المبشرون اليابانيون كافة مثل هذا الرعب ؟ إني لاتساءل عما داخلهم من أحاسيس» ثم انبعث في خيالي على نحو ما وجه كيتشيجيرو ، الذى يحاكى وجه جرذ ، وقد افعم رعبا . نعم ، ذلك التعس الخائر ، الذى دهس الأيقونة فى نجازاكى ، ولاذ بالفرار . ولو أنني مسيحى عادى ، لا قس ، أتراني كنت سألوذ بالهرب على النحو ذاته ؟ لربما كان ماييقيني الآن مستمرا هو احترامى لذاتي وشعورى الكهنوتي بالواجب .

ناديت الفتى العاكف على التجديف ، سألته جرعة ماء ، لكنه لم يحر جواباً .
بدأت أدرك أنه منذ الاستشهاد راح أهالي توموجي ينظرون إليّ بحسباني أجنبياً جلب الكوارث عليهم جميعاً . وقرأ مفزعاً لكافتهم ، لربما كان هذا الفتى يود التخلص من مهمة التجديف بالقارب ، الذي يقلني عبر البحر ، شرعت في لعق أصابعي ،التي بللها ماء البحر ، كي أرطب لهاتي المحترقة ظمأ ، رحت أفكر في المسيح ، وقد اخترقت المسامير يديه ، فألزمته الصليب ، وطعم الخل في فمه .

فيما القارب يغير اتجاهه وئيداً ، استطعت سماع صوت الأمواج تلطم الصخور ، حاكي صوت طبل أسود يقرع ، مثلما كان الأمر وقت عبوري الأخير للبحر . انطلاقا من هذا الموضع ، كان البحر يفضي إلى خليج صغير ، حيث يلحق شاطئ الجزيرة ، لكن الجزيرة بأسرها التفت في ظلام ثقيل ، فما استطعت تبين موضع القرية .

ما أكثر الدعاة الذين ركبوا البحر إلى هذه الجزيرة ، على متن قارب صغير ، على نحو ما فعلت ! مع ذلك فما أشد اختلاف ظروفهم عن الظروف التي أخوض غمارها ! حينما أقبلوا إلى اليابان كان الحظ يبتسم مرحاً ، في كل خطوة من خطواتهم ، كانت الأرض بساط أمان لهم ، ألفوا دوراً ينالون الراحة فيها على مهل ، ومسيحيين يرحبون بهم بأذرع مفتوحة، سابق السادة الاقطاعيون بعضهم بعضاً لتوفير الحماية لهم .. لا حباً في دينهم ، وإنما طمعاً في التجارة ، وعكف الدعاة على استخدام الفرصة المتاحة لمد نطاق عملهم التبشيري . لست أدري السر في أنني استعدت ذكرى الكلمات التي رددها فالينانو في ماكاو ،في وقت من الأوقات ناقشنا على صعيد الجد ما إذا كان رداؤنا الكهنوتي ينبغي أن ينسج من

الحرير أو القطن» . وفيما خطرت هذه الكلمات فجأة ببالي ، حدقت في الظلمة ، وضاماً ركبتي إلى صدري ندت عني ضحكة واهنة ، لا تسئ فهمي ! فلم تخالجني نية التقليل من قدر مبشري ذلك العهد ، الأمر الوحيد هنا هو أنه بدا لي مضحكاً أن هذا الرفيق ،الماثل في إهابي ، الجالس في مركب يحفل بالحشرات ،مرتدياً ثياب الفلاح موكيشي من قرية توموجي ، هو قس مثلهم سواء بسواء .

دنت الصخور السوداء تدريجياً من الشاطئ ، حملت رائحة أعشاب البحر إلى أنفينا وحينما بدأ الرمل يحتك بقاع المركب ، وثب رفيقي الشاب إلى البحر ، وبدأ يجذب بيديه كلتيهما القارب نحو الشاطئ . نزلت بدوري إلى الماء الضحل ، ومستافاً الهواء المفعم ملحاً ، شققت طريقي نحو الشاطئ .

قلت :

- شكراً لك ، القرية بإزائنا ، أليس كذلك ؟

- أبت ، إنني ..

رغم أنني لم يكن بمقدوري أن أرى وجهه ، فإن نغمة صوته حدثتني بأنه لا يريد أن يربطه أي شئ بي أكثر من هذا ، تصافحنا ، انطلق يعدو إلى البحر ، وقد ساوره شعور غامر بالارتياح ، تردد صدى الصوت الكئيب الذي أحدثته ، قدماه ، فيما كان يثب إلى المركب تحت جنح الظلام .

فكرت في جاربي ، وصوت المجدافين المتراجع يتردد صداه في مسمعي . ترى أين هو الآن ؟ فيما كنت أسير على امتداد الشاطئ ، رحت أحدث نفسي ، مثلما أم تهدئ من روع وليدها . ما الذي أخافه ؟ إنني أعرف الطريق ،

إذا مضيت قدماً فسأبلغ القرية ، التى سبق أن أكرمت وفادتى . سمعت فى البعيد شيئاً يشبه أنيناً خفيضاً ، كان مواء قطة ملكن الشئ الوحيد الذى كان بمقدورى التفكير فيه هو أن أريح أطرافى المنهكة ، وأن أضع قليلاً من الطعام فى معدتى الخاوية .

بلغت مدخل القرية ، فغدا مواء القطة أكثر وضوحاً ، حملت الريح إلى أنفى رائحة مقيتة الفظاعة ، أوشكت أن ترغمنى على القئ ، كانت تحاكى أسماكاً عفنة ، لكنى حينما وطأت قدماى القرية ، ألفيت نفسى محاطاً بصمت مفزع ، رهيب . لم يكن ثمة شخص واحد بها .

لن أقول إنه كان مشهد اقفار خاو ، وإنما بدا الأمر كما لو أن معركة دمرت الناحية بأسرها مؤخراً ، تناثرت على امتداد الطرقات صحاف وأكواب محطمة ، فيما تحطمت الأبواب كافة ، بحيث غدت الدور جميعها مفتوحة . بشكل ما بدا مواء القطة المنبعث من الكوخ الخاوى ناتئاً ، لكأنما كان الحيوان يجوس فى تحد أرجاء القرية .

وقفت طويلاً ، ملتزماً الصمت ، ومذهولاً وسط القرية ، ولعله من الغريب أن أقول إنى لم أعد أشعر بالرهبة ولا الفزع . الشئ الوحيد الذى ظل يكرر ذاته بهدوء فى ذهنى هو : لم هذا ؟ لم ؟

ضربت فى أركان القرية ، من أقصاها إلى أدناها . فى عماء الصمت . راحت قطط نحيلة حد الهزال الوحشى ، تجوب أرجاء المكان ، وإن لم يكن بمقدورى تصور الموضع الذى قدمت منه . كانت تحتك بساقى ، وتحدق فىّ بأعين تقدح شرراً ، شققت طريقى ، وقد شفنى الجوع والظمأ إلى دار خاوية ، بحثاً عن طعام ، ولكن الشىء الوحيد الذى عثرت عليه فى النهاية كان وعاء به ماء .

فيما كنت أقف هناك ، قهرني التعب ، الذي حل بي طوال اليوم ، فاستندت إلى جدار كالجمل ، وأغفيت وسط أحلامي ، كان بمقدوري أن أحس بالقطط تسير حول بدني ، وتمزق الأسماك العفنة حينما تمسك بها ، في أحيان أخرى كان بوسعي ، حينما افتح عيني ، أن أرى السماء حالكة السواد العارية ، من النجوم ، عبر الباب المحطم .

شرعت في السعال ، مع عصفة ريح الصبح الباردة . كانت السماء شهباء والجبال ، التي تشكل خلفية القرية ، تطل شاحبة على الكوخ ، الذي كنت فيه ، كان البقاء هنا خطراً ، لسوف انهض ، سأخرج إلى الطريق ، وأغادر هذا المكان القفر ، وعلى حالها في الليلة الماضية كانت الأرض ترقشها الأكواب والصحاف ومزق من الثياب .

ولكن إلى أين أمضي ؟ بدا لي على أي حال أنه من الآمن أن أضرب في التلال ، بدلاً من المضي على امتداد البحر حيث من المحقق أني سألفت الانتباه ، لابد أن ثمة مسيحيين في مكان ما ، يعيشون سراً حياة اليقين ، على نحو ما كان هؤلاء الناس يصنعون ، قبل شهر مضى . سأبحث عنهم ، وأكتشف ما وقع هنا ، عقب ذلك أقرر ما ينبغي عمله . ولكن عندئذ خطر ببالي جاربي ، فتساءلت عما يمكن أن يكون قد حل به .

هكذا ، ألقيت نظرة أخيرة عبر القرية ،دالفا إلى داخل الدور . وسط هذا الخراب الكامل ، حتى ليصعب على المرء أحيانا أن يجد موضعاً لقدمه ، عثرت أخيراً على قليل من الأرز الجاف ، لففته ببعض الخرق الملقاة على الأرض ، حملته معي ، ويممت شطر الجبال .

بلغت قمة الجبل الأول ، والطين المخضل بالرذاذ يعلق بقدمي ، شرعت

تدريجياً أرقى حقول الأرز المزروع على حواف الجبل ، ألا ما كان أشد فقر المسيحيين ! بأى عناية مليئة بالوصب حرثوا هذه التربة الجرداء ، مقسمين الحقول بالأسوار الحجرية ، غير أنه كان من المستحيل العيش ، وفي الوقت نفسه دفع الضرائب ، بهذا الشريط الضيق من الأرض ، الذى يخاصر البحر . في كل مكان كانت تمتد رائحة السماد العضوى على القمح الهزيل وأشجار الكستناء ، فيما أفعمت أسراب الذباب ، التى اجتذبتها الرائحة ، الهواء ، واستقرت في بعض الأحيان على وجهي ، الأمر الذى أثار ضيقى البالغ ، أخيراً حينما أطل الفجر ، وشرعت الجبال تنتصب في السماء كحد السيف ، أصبح بمقدورى رؤية أسراب الغربان ، وهي تنعب بأصوات نكراء ، فيما تحوّم وسط السحب الشهباء .

توقفت في قمة التل ؛ لألقى نظرة على القرية الراقدة عند السفح . كتلة بنية من الطين ، أسقف من القش ، تكاكأ بعضها حول البعض الآخر ، أكواخ شيدت من الطين والخشب ، وما من أثر للحياة على الطريق أو على الشاطئ المكفهر . أسندت جذعى إلى شجرة ، رحت أطل على ذلك الوادى ، الذى فضضه المطر ، وحده بحر الصباح كان جميلاً ، تألق هذا البحر الذى يعانق عدداً من الجزر الصغيرة ، مثلما تتألق ابرة في شعاع الشمس الواهن ، فيما كانت الأمواج في غمار ملاطمتها للشاطئ تزيد بالبقايا ، فيلمع لونها الأشهب . تذكرت مجدداً كم من المبشرين أقبلوا ومضوا عبر هذا البحر ، وتلقاهم المسيحيون بالترحاب : كزافيه ، كابرال ، فالينانو وآخرون ، يقيناً أن كزافيه حينما جاء إلى هيرادو اجتاز هذا الطريق . ثم توريز ، ذلك الداعية اليابانى العظيم ، النبيل ، لقد زار بدوره هذه الجزر ، غير أن هؤلاء الرجال أحبهم الناس حباً بالغ العمق ، قوبلوا

بترحاب شديد الحرارة ، شادوا صرح كنائس ، كانت رغم صغرها جميلة ومزدانة بالزهور . ما من حاجة دعتهم إلى الهرب إلى الجبال ، بحثاً عن مأوى كالمطاريد ، حينما تأملت حالتي ، اصاعدت في فؤادي رغبة غريبة في الضحك .

اليوم ، تراصت السحب في السماء كرة أخرى ، بدا أن اليوم سيكون حاراً . راحت الغربان تحوم فوق رأسي دائبة ، حينما توقفت للحظة كف نعيبها المنذر بشؤم قابض ، لكني حينما شرعت في السير عاودت مطاردتي مجدداً ، في بعض الأحيان كان أحدها يستقر على غصن شجرة قريبة ، ويدف بجناحيه محدقاً فيّ ، ومرة أو مرتين حصبت هذه الطيور اللعينة بالحجارة .

في حوالي منتصف النهار ، بلغت سفح جبل هلالي الشكل ، واصلت اختيار الدروب التي يتاح لي منها رؤية البحر والساحل ، تساءلت عما إذا كانت هناك قرى في هذه الجزر ، التي ترقش سطح البحر ، في السماء الجهمة انسابت السحب الممتلئة بالمطر ، في بطء ، كأنها سفن هائلة . اقتعدت النجيل ، شرعت أمضغ بعض الأرز الجاف ، الذي اختلسته من القرية ، والخيار الذي التقطته في مسيرتي . أعادت إلى نضرة ذلك الخيار شيئاً من قوتي وشجاعتي . كانت الريح تهب على الحقول ، وحينما أغمضت عيني اشتممت رائحة شئ يحترق ، فانبعثت واقفاً .

كانت بقايا نار موقدة ، لابد أن أحدهم سلك هذا الطريق قبلي ، جمع بعض الأغصان ليشعل النار ، دفعت اصبعي في الرماد ، فألفيت بعض الدفء مستكناً في أعماقه .

فكرت طويلاً . أيتعين على أن أنقلب عائداً أم أواصل المسير ؟ لم

أقض إلا يوماً واحداً دون أن ألقى أحداً يضرب عبر أنحاء تلك القرية المقفرة وهذه الجبال ، التي سفعتها الشمس . انقضى يوم واحد ، مع ذلك ، يبدو الآن أنني فقدت طاقتي وشجاعتي . لكم أود أن ألقى أي رجل على الإطلاق – أي رجل ، تلك كانت الفكرة الأولى التي راودتني ، أعقبها إدراك المخاطر التي يمكن أن تكتنف هذا النهج في السلوك . لكني أخيراً ، وبعد تأمل طويل ، استسلمت للاغراء . رحت أحدث نفسي بأن المسيح نفسه لم يستطع قهر هذا الاغراء ؛ إذ هبط من الجبل . ونادى البشر ليلتفوا حوله .

استطعت أن أحدس تواً الاتجاه الذي سلكه الرجل ، الذي أوقد النار ، فلم يكن ثمة إلا طريق واحد . يمكن أن يكون قد انطلق فيه .. الطريق المقابل لذلك الذي قدمت منه . تطلعت إلى السماء ، فرأيت الشمس الشهباء تأتلق وسط السحب الجهمة ، التي كانت الغربان تنعب فيها بأصوات منكرة .

حثثت الخطى ملتزماً الحذر ، عبر السهل تناثرت أنواع الأشجار كافة ، في بعض الأحيان كانت تتخذ شكل رجل ، فأقف حائراً ، فيما يواصل نعيب الغربان الخشن إثارة هواجس بشعة ، مفعمة بالنذير ، في أعماقي ، واصلت السير لإبعادها عن ذهني ، متطلعاً بعناية في غمار مسيرتي إلى شتى الأشجار . كنت مولعاً منذ صباي بعلم النبات ، وتمكنت منذ وصولي لليابان من تمييز أنواع الأشجار التي أعرفها كافة ، ثمة بعض الأشجار غرسها الله في سائر البلدان ، لكن هنا ألفيت اشجاراً أخرى من نوع لم تعرفه عيناي حتى الآن .

في الأصيل ، حال لون السماء قليلاً ، عاكساً سحباً صغيرة في

بريكات المـــاء ، التي بقيت على الأرض ، فبدت زرقـــاء أو شـــهباء ، أقعيت ، وبللت يدي بالماء ؛ لأرطب بهما عنقي ، الذي سبح في العـــرق . تبدد انعكاس السحب من المـــاء ، بدلاً منها أطـــل وجه رجـــل ، نعم ، انعكـــس في المـــاء وجه مكدود ناحل - لســـت أدري السر ، لكني في هذه اللحظة فكرت في وجه رجل آخر . كان وجـــه رجل مصلوب ، وجهاً ألهـــم الفنانين طـــوال قرون عديدة . لم ير أي من هـــؤلاء الفنانين ذلك الرجـــل رأي العين ، مع ذلك صـــوروا وجهه ... أكثر الوجوه ، التي استحقت صـــلوات الانســـان ، وخاطبت اسمى تطلعاته ، نقـــاء وبهـــاء ، يقيناً أن وجهـــه الحقيقي كان أكثر جمـــالاً من كل مـــا تفتقت عنه قـــرائحـــهم ، مع ذلك كـــان الوجـــه الـــذي انعكـــس في بريكـــة مـــاء المطر هذه مثقلاً بالطين وبلحية نامـــية ، كان ناحلاً ، قذراً ، وجه رجل مطارد ، سكنه القلق والاعياء .

أتدرك أنه في مثل هـــذه الظروف قد تدرك المرء فجـــأة نـــوبة من الضـــحك ؟ أدنيت وجهي من المـــاء قلبت شفتي ، شـــأن معتوه اســـتبد به الجنـــون ، نومت عيني في محجريهما ، وواصـــلت التجهم ورسم علائم تثير السخرية على وجهي في صقال الماء .

لِمَ أتيت مثل هذه الحماقة ؟ لِمَ ؟ لِمَ ؟

في الغـــابة ، تردد صـــوت أزيز خـــشن ، فـــيمـــا عـــدا ذلك ســـاد صـــمت مطبق . تهافتت الشمس تدريجياً . ادلهمت السمـــاء ، محتشدة بالسحب ، مرة أخرى ، فـــيمـــا استطالت التلال في السهل ، تخليت عن أمل اللحاق بالرجل ، الذي أوقد النار. وحدها كلمات الكتاب المقدس اصـــاعدت في فؤادي ، فرتلتها لنفسي ، فيما كنت أجر قـــدمي على الطـــريق : «أي فـــائدة للبشـــر من جـــميع تعبـــهم الـــذي يعانونه تحت الشمس . جيـــل يمضي وجيـــل يأتي والأرض قائمة مدى الدهر .

والشمس تشرق والشمس تغرب ثم تسرع إلى موضعها الذى طلعت منه . تذهب الريح إلى الجنوب وتدور إلى الشمال . تدور وتطوف فى مسيرها ثم إلى مداورها تعود الريح . جميع الانهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن ثم إلى الموضع الذى جرت منه الأنهار إلى هناك تعود لتجرى أيضا جميع الأمور تعبى فلا يستطيع الانسان أن يشرحها لا تشبع العين من النظر ولا تمتلئ الأذن من السماع » .

لكن صخب البحر ارتفع فجأة ، فى قلبى ، على نحو ما كان يرن ، فى أذنى ، حينما كنت أنا وجاريى راقدين وحدنا ، لاثنين بقمة الجبل ، ظل صوت هاتيك الأمواج ، الذى تردد فى الظلمة كفرع طبل مكتوم ، صوت هاتيك الأمواج طوال الليل فيما هى تلطم الشاطئ ، على نحو عبثى تتراجع ثم تعاود لطمه كرة أخرى ، كان ذلك هو البحر الذى اكتسح ، دونما هوادة ، جثتى موكيشى وايشيزو ، البحر الذى ابتلعهما ، البحر الذى امتد عقب حتفهما بلا انتهاء بملامح لم تعرف التغيير . شأن البحر ، كان الله صامتاً ، تطاول صمته .

لا .. لا .. هززت رأسى ، لئن لم يكن الله موجوداً ، فكيف تأتّى للانسان أن يحتمل وقر تصخاب البحر المكرور وافتقاره للعاطفة (ولكن ماذا إذا افترضنا هذا .. بالطبع ، أقول إذا افترضنا . من أعمق أغوار كيانى أعلن صوت عن نفسه هامساً : ماذا إذا لم يكن الله موجوداً .. ؟)

كان هذا وهماً مفزعاً ، لئن لم يكن له وجود ، فكم يغدو الأمر بأسره عبثيا ، أى مأساة عبثية تنقلب إليها حياتا موكيشى وايشيزو ، اللذين شد وثاقهما إلى الوتد ، ولعقتهما الأمواج . والمبشرون الذين أنفقوا ثلاث

سنوات في عبور البحر ليبلغوا هذه البلاد .. أي وهم كانت حياتهم ، وأي موقف تجرد من المعنى أقفه بدوري ، إذ أضرب هائمنا في شعاب الجبال المقفرة . مضيت منتزعا التجيل عبر الطريق ، طاحناً إياه بأضراسي ، قامعاً هذه الأفكار ، التي تدفع القيء في حلقي . أعلم بالطبع أن أعظم خطيئة تأتيها في حق الله في اليأس من رحمته ، لكن صمته كان شيئاً لم أستطع سبر أغواره «يحفظ الرب الرجل العادل حينما يفنى الطواغيت من حوله ، وينجو عندما تجتاح النار مدن السهل» .

غير أنه الآن ، فيما الأرض العصية تقع دخانا والثمار فجة على الاغصان لا تزال ، فإن عليه يقينا أن يخاطب المسيحيين ، ولو بكلمة .

انطلقت أعدو ، منكفئا على المنحدر ، حينما أخفف الوطء تصاعد الأفكار البشعة غائرة في الوعي ، وجالبة فزعاً مخيفاً معها ، لو أنني أقررت بهذه الأفكار ، إذن لتهاوى ماضيّ بأسرة حتى هذا اليوم في صمت .

أحسست بقطرة ماء تندي وجنتي ، رفعت رأسي ، فألفيت سحابة سوداء هائلة كالاصبع تمخر عباب السماء التي غدت رصاصية جهمة ، تعددت القطرات حتى لف المطر السهل كله كأوتار القيثار . لمحت أجمة قريبة ، فانطلقت نحوها عدواً بأقصى سرعة ، انطلق عدد من الطيور ، مثلما سهم من وتر ، وأسرعت مبتعدة بحثاً عن ملاذ . لطم المطر أوراق الشجر ، حيث وقفت ، محدثاً صوتاً يحاكي حصياً تتهاوى على السقف . ابتلت ثياب الفلاح ، التي كنت ارتديها تماماً ، وبدت قمم الأشجار المتأرجحة تحت المطر الفضي كأعشاب البحر ، ثم بعيداً وراء هذه الأغصان المتأرجحة على الشاطئ ، لمحت كوخاً ، لربما بناه القرويون ، لاتخاذه مأوى لهم ، خلال الاحتطاب .

فجأة أقلعت السماء ، على نحو ما أمطرت ، اكتسى السهل حلته الشهباء كرة أخرى . شرعت العصافير تشدو ، كأنها صحت من غفوتها . واصلت قطرات ثقيلة السقوط من أوراق الأشجار . جففت عن جبيني القطرات ، التي كانت تنساب إلى عيني . دنوت من الكوخ . ما أن تطلعت داخله ، حتى لفحتني رائحة كريهة ، شاهدت سحابة من الذباب تتدافع حول المدخل ، كانت تتحلق فضلات بشرية .

أدركت تواً أن ثمة رجلاً كان هنا منذ وقت ليس بالبعيد ، نال قسطا من الراحة ، وانطلق فى سبيله ، لكن الحق أقول أن الغضب اعترانى ازاء ذلك . كان من البربرية بحيث استخدم المأوى الوحيد على هذا النحو ، لكن الموقف كان له كذلك جانبه الضحك ، فانفجرت ضاحكاً ، وانحسر خوفي من ذلك الرفيق .

دلفت إلى الكوخ ، فأنست جمرات لا يزال بصيصها متقداً ، أسعدنى أن هناك بقية من جمر ، يمكننى أمامه أن أجفف ثيابى المبتلة ، شعرت بأن بمقدورى ، حتى ان أمضيت بعض الوقت هنا ، أن ألحق بذلك الرفيق ، الذى يتقدمنى ، إذ بدا جلياً أنه ليس فى عجلة من أمره .

حين غادرت الكوخ ، كان السهل والأشجار التى أوتنى من المطر يستحم فى ضياء ذهبى ، فيما كانت أوراق الاشجار ، التي غدت جافة كالرمل ، تحفل بالشدو ، التقطت غصناً جافاً ، واستخدمته كعصا ، ومضيت لا ألوى على شئ ، حتى بلغت أخيراً المنحدر ، الذى يمكن للمرء فيه أن يرى خط الساحل يمتد خفيضاً فى البعيد .

لم يتغير البحر الخامد الملتمع مثل ابرة ، الذى راح يلعق الشاطئ المعقوف ، كاستدارة قوس . احتضن جزء من الساحل رملاً حليبى البياض ،

فيما كان الآخر يشكل خليجاً تحده صخور سوداء ، داخل الخليج كان ثمة مرفأ صغير ، امتدت عليه ثلاثة أو أربعة قوارب صيد ، تلعق الرمال بأطرافها . إلى الغرب ، كانت هناك قرية صيادين ، تخاصرها الاشجار ، هي أول أثر لجماعة من البشر يقع عليه بصري منذ الصباح .

اقتعدت المنحدر ، ضممت إلى ركبتي ، رمقت القرية مدققا بالنظرة الجسور التي لكلب مسعور . ربما هبط الشخص ، الذي ترك الجمرات في الكوخ ، هذه القرية . وبإمكاني أيضا أن اهبط المنحدر سريعاً مقتدياً به ، ولكن أهي قرية مسيحية ؟ رحت أمعن النظر ، بحثا عن كنيسة أو صليب .

كان فاليناو والدعاة الآخرون في ماكاو قد حذرونا من أن نتصور أن الكنائس في هذه البلاد تحاكي الكنائس في الوطن ، فقد دعا السادة الاقطاعيون المبشرين إلى اتخاذ المباني والمعابد القائمة بالفعل كنائس لهم ، وقد حدث في بعض الأحيان حتى أن الفلاحين خلطوا بسبب هذا بين المسيحية والبوذية ، معتقدين أنهما شيء واحد ، بل ان كزافيه أوشك ، بسبب هفوة ارتكبها مترجم ، أن يصل إلى الاخفاق ، في هذا الصدد ، فقد اعتقد بعض اليابانيين لدى سماع عظاته أن الهنا هو الشمس ، التي كان أهل هذه البلاد يقدسونها ، منذ أجيال بعيدة ، من هنا ، فإن عدم رؤيتي لبان ذات ابراج ملحقة بها لم يعن ألا وجود لكنائس هنا ، فقد يكون في وسط الأكواخ الطينية ، القابعة أسفل المنحدر ، كوخ يستخدم كنيسة ، ولربما المسيحيون الذين طحنهم الفقر يتوقون إلى قس يمنحهم الأسرار المباركة ، يصغي لاعترافاتهم ، ويعمد اطفالهم . في هذه الصحراء ، التي نفى منها الدعاة والقسس . كان الوحيد الذي يستطيع أن يه   ـاء الحياة لهذه

الجـزيرة الليلـة هـو الانسـان الملتف بإهـابي . نعم أنا وحدى ، مـرتدياً هذه الخرق الممزقة بذراعي اللتين تضمان ركبتي .

اجتاحتني عاطفة جياشة ، فيما كنت أهبط المنحدر ، الـذى كان المطر لا يزال يبلله ، معـتـمـدا عصـاى ، منـدفعـاً نحـو أبرشـيـتـى ، نعم ، تلك هى أبرشيتي، تلك هى الأمـانة التى عهـد بها إلىّ الرب . ولكن خـلال عدوى ، ندت صيحة عن رجل ، من أحد أركان القرية ، كانت تحيـطه أشـجار الصنوبر ، بدت كما لو كانت تصاعد من أعـماق الأرض ، توقفت بعصـاى في يـدى ليفجأني بوضوح لهب قان كئيـب لنار تتقد . ادركـت غريزياً أن شيئاً مـا حل بالقرية ، فمضيت أرقي عـدواً المنحدر الذى كنت أنزلـق عليه بمثل هذه السرعة . هناك عند الطرف البـعـيـد من المنحـدر ، لم أر إلا شـبح رجل يرتدى ثيـاب الفـلاحين الرمـانية ويلـوذ بالفرار مني ، ثم نظر تجاهي ، وتوقـف . تطـلع الوجه الناحل نحوى بشئ من الارتيـاح : «أبت !» لوح بيديه ، هاتفا بهذه الكلمة . ثم أشار إلى القرية صـارخاً كرة أخرى بشئ مـا ، كـان يشيـر علىّ بالاخـتـفـاء . منطلقا بأقصى مـا امكـنـنى من سـرعة ، حاولت أن أخفى نفسى ، مثل حيوان برى ، فى ظلال صـخرة هائلة ، لهثـت محـاولاً السـيطرة على أنفاسى المتهدجة . سمعت وقع اقـدام ، ثم من بين الصـخـور البعيدة ، لاحت عينا ذلك الرفـيـق الضـيقتان الفأريتان ترقبانني .

أردت أن أجفف العـرق المنحـدر من وجـهي ، لكننـى حين تطلعت إلى كفى أدركـت أنـه لم يكن عـرقاً ، وإنما دم يشـخب ، فقد ارتطمت بشئ ما خلال وثبتي .

- أبت !

كـانت العينـان الضـيقتان تحـدقان بى ، مـن عتمـة ظل الصـخرة .

- أبت ُما أسعدنى برؤياك ...

الابتسامة المتذللة ، محاولة التملق ، اللحية النامية ، بارزة الشعيرات ، على امتداد الذقن .

قال :

- هذا المكان خطر ، لكنى سأعنى بك .

صامتاً رحت أطالع صفحة ذلك الوجه . كان كيشيجيرو ، ذلك الكلب الذى طالته السياط يبتسم ناظراً إلىّ بعينين ماكرتين . انتزع بعض النجيل ، ودسه بفيه ، وراح يمضغه بأسنانه الصفراء ، غمغم ناظراً نحو القرية :

- إنه لفظيع .

فيما كنت أحدق فيه ، أدركت أنه كان الرفيق الذى أوقد النار فى الحقول الممتدة على جوانب الجبل ، والذى لوث الكوخ ، ولكن لم يضرب فى الجبال على هذا النحو ؟ كان قد دهس الايقونة ، فما الذى يخشاه ؟

- أبت لِمَ جئت إلى هذه الجزيرة ؟ هذا مكان خطر ، لكنى أعرف قرية يختفى بها بعض المسيحيين .

ظللت أحدجه ، فى صمت . كل قرية مر بها هذا الشخص الوضيع فاجأها رجال الحكومة ، ازدحمت الشكوك ، منبعثة من الماضى فى ذهنى ، ربما لم يكن إلا طعماً للإيقاع بالآخرين . كنت قد سمعت قبلا أن المرتدين يستخدمون من قبل الحكومة كعملاء لها ، وأنهم يتواطئون ، طوعاً ، كأنما يشعرون بأن بمقدورهم تبرير جريمتهم البشعة بإضافة شخص آخر إلى صفوفهم ،

ونهج تفكيرهم يقارب نهج الملائكة الساقطة ، حينما تغوى الناس باقتراف الخطيئة .

شرع المغيب يطوى الجبال المحيطة بنا فى قبضته . فى القرية ، بدأ لهب مشعل أحمر يجوب ارجاءها ، مع ذلك لم يكن ثمة إلا الصمت . بدت القرية ذاتها واهلها كما لو كانوا يقبلون عناءهم دونما احتجاج ، ما عاد بوسع الناس ، وقد تمرسوا طويلاً بالمعاناة أن ينخرطوا فى البكاء ، أو الصياح، فى غمار المهم .

كان التخلى عن القرية مؤلماً بالنسبة لى ، تماماً مثل نزع القشرة عن جرح بدأ لتوه فى الالتئام ، صرخ صوت فى أغوار قلبي : «ضعيف أنت ، جبان»، ليرد عليه صوت آخر يدعونى إلى عدم الاستسلام للحظة من العاطفة والانفعال : «ربما كنت أنا وجاربي القسيسين الوحيدين فى هذه البلاد ، فإذا ما هلكت تهلك الكنيسة اليابانية معك ، ينبغى أن تحيا وجاربي أيا كانت الجراح والعذابات التى تقتضيها هذه الحياة» .

مع ذلك فقد تساءلت عما إذا كان ذلك لا يعدو أن يكون صوت ضعفي ، عادت إلى ذهني رواية ، سمعت بها خلال وجودى فى ماكاو ، كانت عن قس فرنسسكاني افلح فى النجاة من موت كان سيلقاه شهيداً ، وواصل البشارة سراً ، لكنه استسلم فى قلعة السيد الاقطاعى أومورا ، بسبب اندفاعه اللحظى ، تهاوى العمل السرى اللارسالية بأسره ، وتعرضت سلامة المسيحيين للخطر . كانت هذه القصة ذائعة ، ومغزاها أن القس لا يوجد لكى يصبح شهيداً . فعليه أن يبقى على حياته ، حتى لا تخبو شعلة الايمان ، حينما تتعرض الكنيسة للاضطهاد .

تبعنى كيشيجيرو ، مثل كلب مسعور . حينما أقف يقف بدوره ، يصيح :

- لا تمـض بهذه السـرعـة ، إننى مـريض ، خبـرنى إلى أين تذهب ، يقـول الحاكم إن من يجد أحد الأباء سيحصل على ثلاثمائة قطعة فضية .

- هكذا فإن ثمنى ثلاثمائة قطعة فضية ؟

كـانت تلك أولى كلمـاتى لكيشيـجيـرو ، انبـعثت ضـحكة مريرة لترتسم على مـلامـحى فى تلفظى بها ، لقد باع يهوذا المسيح لقاء ثلاثين قطعـة من الفضـة ، وهاأنذا أقوم بعشرة أضعاف هذا القدر .

- من الخطورة أن تمضى وحيداً .

قالها ، وكأنما أراحه شئ ما لحق بى ، واصل لطم الشجيرات بغصن يحمله ، فى سيره إلى جوارى ، مزق نعيب الغربان عتمة المساء .

- أبت ، أعـرف مكانا به مسـيحيون ، سـنكون آمنين هناك ، دعنا نذهب إليه ، بوسعنا الليلة أن نرقد هنا ، وفى الغد ننطلق .

دونما انتظار لردى أقعى على الأرض ، إلتقط فى حذق اغصاناً لم يبللها غيم المساء ، انتزع حجر قداحة من جيبه ، وأشعل ناراً .

قال :

- لابد أنك جائع .

أخرج من كيسه سـمكات قلائل مجففة ، حينما لمحتها عيناى السغبتان ، سـال لعابى ، لم أكـن قـد نقت منـذ الصـباح شيئاً ، إلا حبات من الأرز غيـر المطهـى والخيـار ، هكذا كان طعـام كيشيجيرو ، الذى لوح به أمـامى ، مـغرياً حقـاً ، حينمـا علا اللهـيب ، وشـويت السمكات المملحة على مهل ، ارتفع عرف شهى لا يحتمل ، حتى بلغ خيشومى .

- ألن تأكل ؟

مفترا عن أسناني ، أمسكت في شراهة بالسمك المجفف ، كانت شريحة واحدة كافية للوصول بي إلى التوافق مع كيشيجيرو ، حدجني بنظرة تجمع بين الاشفاق والازدراء ، فيما كنت التهم السمك بنهم ، ظل طوال الوقت يلوك العشب ، كما لو كان طباقا ، أو شيئاً من هذا القبيل .

التفت المنطقة المحيطة بنا بالظلمة ، شرعت برودة ثلجية تضرب أطنابها في الجبال ، بدا المطر الذي تنثه الغيمة كما لو كان يتخلل جسدي ، رقدت إلى جوار النار ، كلما أوشك على الإغفاء ، لكن النوم كان محالاً ، فلو أني غفوت لحظة لا نسل كيشيجيرو مبتعداً ، سيبيعني ، مثلما باع رفاقه ، ربما فعل ذلك الليلة ، فبالنسبة لشحاذ مدقع الفقر مثله كانت ثلاثمائة قطعة من الفضة اغراء مفعماً بالعذاب . حينما اغمضت عيني ، تصاعدت خلف اهدابي المتعبة الصورة الصارخة بالحياة للهضبة التي شاهدتها ، صورة البحر والجزر ، البحر متألقاً كإبرة لامعة ، والجزر ترقش سطحه ، لقد عبرت هذا البحر البديع ، الذي باركه كل هؤلاء الدعاة ، استعدت ذكرى الأيام الخوالي ، التي كانت الكنائس فيها تزدان بالزهر ، والمسيحيون يحملون الهدايا من أسماك وأرز ، في ذلك المعهد كان ثمة معهد ديني هنا ، يرتل فيه الطلاب التراتيل باللاتينية ، على نحو ما كنا نفعل في البرتغال . كان فالينانو قد حدثنا بأنهم في وقت من الاوقات كانوا يعزفون على القيثار والأرغن ، وسط حبور السادة الاقطاعيين .

– أبت ، أمستيقظ أنت ؟

لم أحر رداً ، لكني تطلعت من ركني عيني شبه المغمضتين إلى رفيقي ، لئن

انسل خلسة إلى مكان ما في الليل فلن يكون ذلك يقيناً إلا لاستدعاء رجال الحكومة ، كان يرقب أنفاسي الغافية ، ثم قليلاً فقليلاً بدأ في التحرك مبتعداً ، راقبته ينسل بعيداً كحيوان بري ، ستكون تلك فرصته في الابتعاد ، لكنه لدهشتي عاد إلى النار متنهدا ، بيديه كلتيهما واصل تكويم خشب جاف جديد على الجمر ، مصعداً تنهداته طوال الوقت ، كأنما من فرط العذاب . سقط لهب النار القاني على وجنتيه ، فاستطعت رؤية شبحه غارقا في الظلال ، ملتحفاً بالليل . عندئذ سقطت صريع الرقاد ، تحت وقر اعياء النهار .

في اليوم التالي ، واصلنا المسير ، تحت أشعة الشمس الضارية . اصاعد البخار من الأرض المخضلة بمطر البارحة ، فيما وراء الجبال ، فضضت الشمس الأفة حواف سحابة . عانيت لبعض الوقت صداعاً وظمأ أدمى لهاتي . لست أدري ما إذا كان كيشيجيرو قد لاحظ الألم مرتسماً على وجهي أو لم يلحظه ، لكنه كان في بعض الأحيان يعبر الطريق وئيداً ، يغرس عصاه في ثعبان مختف وسط الشجيرات ، ويضعه في مخلاته القذرة ، قال ضاحكاً ، وقد بدت نواجذه الصفراء .

- نحن ، معشر الفلاحين ، نأكل هذه الثعابين الضخمة ، كدواء لنا .

لماذا لم تبعني البارحة لقاء ثلاثمائة من الفضة ؟ عذبتني أفكاري ، وثب إلى ذهني ذلك المشهد النابض بالحركة والشعور ، في العشاء الأخير ، حينما التفت المسيح إلى يهوذا بهذه الكلمات : «اعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» ورغماً عن أنني قس ، إلا أنني أجد من العسير فهم المعنى الكامل لهذه الكلمات . رحت أجر قدمي في اعياء ، إلى جوار كيشيجيرو ، وسط البخار المتصاعد ، واصلت تقليب هذه الأفكار في ذهني . أي انفعال ملأ صدر المسيح ، حينما اصدر أمره للرجل ،

الـذي قـدر له أن يسلمه ، لقـاء ثـلاثين من الفضـة ، أتـراه كان غضـبا ؟ أم حنقـا ورفـضـا ؟ أم ترى انبـعـثت هـذه الكلمـات من الحـب ؟ لـو انه كـان الغضب ، لكان المسـيح قـد حـجب الخـلاص عن هـذا الرجل وحـده ، من بين رجـال العـالم كـافـة ، عندئذ يكون قـد سـمح لرجل واحـد بأن يـهـوى إلى وهاد اللعنة الأبدية .

لكن الأمر ما كان يمكن أن يكون على هذا النحو ، فقد أراد المسيح أن ينقذ الجميع ، حتى يهوذا ، ولو أن الأمر لم يكن كذلك ، لما جعله أبدا من حوارييه . مع ذلك ، فلم احجـم المسـيح عن ايقافه حينما بدأ ينزلق عن طريق الحق ؟ كانت تلك مشكلة لم أفلح فى فهـمها ، حتى حينما كنت طالبا بالمعهد الديني . سـاءلت الكثيرين من القسـيسـين عنهـا ، يقيناً أني طرحـت هـذا السـؤال على الأب فيريرا ، لكني لا استطيع الآن تذكر اجابته ، وتدل هذه الحقيقة ذاتها على أنه لم يقدم حلاً حقيقياً .

قال أحدهم :

– هذه الكلمات لم تلفظ غضباً أو كراهية ، وإنما هى كلمات ازدراء .

ولكن أى ضـرب من ضـروب الازدراء ، أكانت ازدراء لكل شئ فى يهـوذا ؟ أو قد كف المسيح فى تلك اللحظة عن حبه ؟ تناهى الرد :

– كلا ، مطلقاً ، خذ مثـالاً زوجـاً خـانته زوجته ، إنه يواصل حبه لها ، لكنه لا يغـفر لها ابدا أنهـا هى ، زوجتـه ، قـد خـانتـه ، هذا هو شـعـور الزوج الـذى يحب زوجته ، لكنه يزدرى سلوكها ... موقف المسيح ازاء يهوذا كان من هذا القبيل .

لم يقنعنى هذا الرد التقليدى ، حتى حينما كنت حدثاً ، بل انى ، فى الحق ،

لست قادراً الآن على الفهم ، وإن لم يكن فى هذا تجديف ، لقلت بأنى أشعر أن يهوذا لم يكن إلا دمية تعسة سخرت لتمجيد الفاجعة ، التى تجسدت فى حياة وموت المسيح : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» ... لكنى لم أستطع قول مثل هذه الكلمات لكيشيجيرو ، ومن أسباب هذا العجز أنى أردت حماية حياتي ، أما السبب الآخر فيعود إلى أن الأمل راودنى عنيدا فى أنه لن يردف خيانة بأخرى .

قال رفيقى :

- هذا الطريق ضيق ، ومن العسير السير هنا .

تساءلت :

- أثمة نهر فى مكان ما ؟

اصبح الشعور الحارق بالظمأ الآن شيئاً لا يحتمل ، تأملنى كيشيجيرو مليا باطلالة ضحكة ، قال :

- أتريد ماء ، لقد التهمت الكثير من تلك الاسماك المقددة .

كانت الغربان تحوم حولنا ، شأن البارحة ، ضاربة هلالاً هائلاً فى السماء ، تطلعت عالياً ، لطم عينى شعاع أشهب ، حتى أوشك أن يذهب ببصرى . داخلنى الندم لتنازلي ووهنى ، فمن أجل قطعة من السمك المقدد ارتكبت خطأ لا يغتفر ، رحت ابحث عن النهر ، لكنى عبثا كنت ابحث ، كانت الريح الدافئة تهب مقبلة من البحر ، «النهر ، النهر ، النهر» .

- ليس هناك حتى غدير هنا ، ألا تستطيع الانتظار ؟

قالها كيشيجيرو ، ودون انتظار لردى ، اندفع يهبط المنحدر .

حينما احتجب عن ناظرى ، خلف الجرف ، حل صمت قاتل فجأة على كل ما يحيط بى ، اللهم إلا صوت الحشرات ترف وسط العشب ، زحف عظاءة فى نزق فوق حجر ، ثم لاذت بالهرب مسرعة . نكرنى وجهها الخبيث ، إذ حدقت نحوى ، بذلك الكيشيجيرو ، الذى اختفى عن الانظار لتوه ، أتراه حقاً مضى باحثاً عن ماء من أجلى ، أم ذهب ليبيعنى ، ليخبر أحدهم بأنى هنا ؟

ضممت عصاى ، وانطلقت ، فألفيت ظمأ حلقى أكثر تعززاً فى احتماله. الآن ، أدركت أن ذلك التعس قد جعلنى أتناول تلك الأسماك المقددة عمداً . استعدت كلمات الانجيل عن الكيفية التى قال بها المسيح «أنا عطشان» فوضع أحد الجنود اسفنجة مليئة بالخل على أشنان داود وقربها من فيه ، أغمضت عينى . تردد فى البعيد نداء أجش ، وكأنما أحدهم يبحث عنى «أبتاه ! أبتاه» اقترب كيشيجيرو ، مجترا قدميه ، بلا مبالاته القديمة ، حاملاً ابريق ماء ، تساءل محدقاً فىّ بعينين أسيفتين :

- أتهرب ؟

انتزعت ابريق الماء الذى قدمه إلىّ وألصقته بشفتى ، ونهلت الماء ، فى شراهة، وبدونما حياء . انسكب الماء من يدى ، فبلل ركبتى .

- أبت ، كنت تهرب ، ألا تثق بى ؟

قلت :

- لست أريد جرح شعورك ، كلانا متعب ، ابتعد ، رجاء ، دعنى وحدى !

- وحدك ؟ إلى أين تذهب ، هنا خطر ، أعرف قرية أهلها يبطنون المسيحية ، هناك كنيسة وأحد الآباء .

- أحد الآباء ؟

علا صوتي دون وعي ، لم أستطع تصديق أنه قد يكون هناك قس آخر على الجزيرة غيري ، تطلعت إلى كيشيجيرو بشك متعاظم .

- نعم يا أبت ، وليس يابانياً ، هكذا سمعت .

- مستحيل !

- أبتاه ، انت لا تثق بي .

وقف هنالك ، مقتلعاً العشب ، ومتباكياً بصوت واهن ، أضاف :

- لا أحد يثق بي .

- ومع ذلك ، فانك تعرف كيف تعنى بنفسك ، لقد غاص موكيشي وايشيزو إلى قاع البحر كحجرين ، ورغماً عن هذا ...

- كان موكيشي قويا ... مثل نبتة قوية ، لكن نبتة ضعيفة مثلي لن تنمو أبداً ، أياً كان ما تفعله من أجلها .

بدا كما لو كان يحس بأني قرعته تقريعاً أليما ، لأنه بنظرة تماثل تلك التي تطل من عيني كلب طالته السياط ، تطلع إلى الوراء ، إلا أني لم أكن قد تلفظت بهذه الكلمات منتوياً تقريعه . كنت أبوح فحسب بفكرة حزينة تصّاعد في ذهني . كان كيشيجيرو محقاً في القول بأن الناس ليسوا جميعاً قديسين وابطالاً . كم من مسيحيين كانوا ، لو قدر لهم أن يولدوا في غير عهد الاضطهاد هذا ، وألا يجابهوا مشكلة الردة أو الشهادة ، سيحيون حياة مباركة قوامها الإيمان ، حتى ساعة حتفهم .

راح كيشيجيرو يشكو :

- ليس لي من مكان أمضي إليه ، لا أملك إلا أن أضرب في شعاب الجبال .

امتلأ صدرى بشعور عارم بالاشفاق ، أمرته بأن يجثو . تلبية لأمرى ، ثنى ركبتيه مرتعداً ، حتى مس الأرض تساءلت :

- أتشعر بالرغبة فى الاعتراف عن موكيشى وايشيزو ؟

يولد الرجال لينتموا إلى صنفين : الأقوياء والضعفاء ، القديسين والعامة ، الأبطال ومن يجلونهم ، فى زمن الاضطهاد يحرق الأقوياء فى ألسنة اللهيب ، ويغرقون فى البحر ، لكن الضعفاء ، من أمثال كيشيجيرو ، يحيون حياة التشرد ، ضاربين فى شعاب الجبال . أما عنك أنت (أحادث الآن نفسى) فإلى أى الصنفين تنتمى ، أما كنت لولا وعيك برسامتك وكبريائك تحنو حنو كيشيجيرو فتطأ الايقونة ؟

«أخذتموه ، وصلبتموه ، وقتلتموه» .

«أخذتموه ، وصلبتموه ، وقتلتموه» .

ببساطة طفل يقلد أمه ، ردد كيشيجيرو كلماتى ، كلمة فأخرى ، فيما كانت عظاءة تزحف كرة أخرى فوق السطح الاشهب للصخرة وحوله ، فى الغابات تردد صوت الزيزان ، ولفت رائحة العشب الصخرة الشهباء .

متناهياً من الطريق الذى سبق أن اجتزناه ، سمعت وقع أقدام رجال يشقون طريقهم ، عبر الشجيرات ، ناظرين باتجاهنا ، مستحثين خطاهم .

- أبت . اغفر لى !

صاح كيشيجيرو ، ولا يزال جاثياً على الأرض العارية ، بصوت تخنقه العبرات :

- إنني ضعيف ، لست قوياً مثل موكيشي وايشيزو .

كان الرجال قد أمسكوا بتلابيبي ، وشرعوا في إلقائي ارضاً ، ألقى أحدهم بإيماءة احتقار في وجه كيشيجيرو ، الذي كان لا يزال جاثيا ، عددا من العملات الفضية الصغيرة .

دفعوني أمامهم ، دون أن ينبسوا بكلمة ، تعثرت ، وترنحت ، فيما كنت أدفع قدماً ، على امتداد الطريق الصلد ، تطلعت مرة إلى الخلف ، ألفيت وجه مسلمي الناحل في البعيد ، ذلك الوجه بعينيه المخيفتين كالعنكبوت .

الفصل الخامس

كان فيض من الضياء يغمر الدنيا خارج القرية ، أما داخلها فقد بدا معتماً ، على نحو غريب . فيما كان يدفع قسراً ، راح صغارها وكبارها ، على السواء ، فى خرقهم ، يحدقون فيه بأعين متألقة من أكواخهم ، التى علتها أسقف من القش .

حدّث نفسه بأنهم ربما كانوا مسيحيين ، بذل جهداً ليضع ابتسامة على شفتيه قسراً ، لكن الأمر كله كان وهماً : لم يلق استجابة ما ، أقبل طفل عار مترنحاً إلى حيث كان ، لكن أمه ، وهى امرأة مشعثة الشعر ، اندفعت متعثرة ، احتضنت الطفل ، وهرعت به كرة أخرى . مضى القس ، كى يخفف رعدته المعذبة ، تلك الليلة ، يفكر بإلحاح فى رجل دفع دفعاً من حديقة الجسمانية إلى قصر قيافا .

حينما خرج من القرية ، بهر تألق الشمس عينيه ، أحس بالدوار يغلبه ، دأب الحارس المنطلق وراءه ، والذى واصل طوال الوقت دمدمة غامضة ، على دفعه قدماً ، سأل بابتسامة مغتصبة عما إذا كان من المسموح به أن يلتقط أنفاسه للحظة ، لكن الآخر بوجهه الجهم الضارى هز رأسه نافياً . كانت الحقول تحت الشمس الضارية مثقلة برائحة الروث ، والقبرات تغرد فى حبور عبر السماء ، ألقت أشجار هائلة ، لم يدر لها اسماً ، ظلاً بهيجاً على الطريق ، وند عن أوراقها حفيف منعش ، فيما هى تهتز فى قبضة النسيم ، ضاق الطريق الممتد عبر الحقول تدريجياً ،

حينما بلغوا الطرف الاقصى ، ألفوا وادياً منبسطاً نحو الجبال . كان هناك كوخ صغير شيد من الأغصان ، سقط ظله على الأرض الموحلة . ثمة أربعة أو خمسة من الرجال والنساء يرتدون ملابس الفلاحين ، وقد شدت أيديهم يقتعدون العشب ، بدوا وكأنهم يتهامسون فيما بينهم، لكنهم حينما تعرفوا القس ، فغروا أفواههم في دهشة . لاح الحرس ، بعد أن ضموا القس إلى المجموعة ، وكأنهم يعتقدون أن عملهم قد انتهى ، شرعوا في الثرثرة والمزاح ، غارقين في الضحك أبدا ، بل لم يبد عليهم القلق من أن القس قد يلوذ بالهرب . حينما اقتعد هذا الأرض ، أحنى الرجال والنسوة رءوسهم في إجلال .

لاذ بالصمت برهة ، حاولت نبابة أن تلعق العرق المتحدر على جبينه ، ثم واصلت الطنين في إصرار حول وجهه . أصغى إلى رفيف أجنحتها الكئيب ، أحس بأشعة الشمس الحارة تلهب ظهره ، شرع إحساس بالطمأنينة يتغلغل مؤتلقاً في بدنه كله . أخيراً وضعوا أيديهم عليه ، كان ذلك عصي الاحتمال حقاً ، لكنه من ناحية أخرى لم يتوقع قط مثل رباطة الجأش تلك هنا . شرع يسائل نفسه عما إذا لم يكن الأمر كله وهماً ، ارتفعت في مخيلته ، لسبب غير محدد ، كلمة «السبت .. يوم الراحة» كان الحرس يتحدثون ، ويتضاحكون فيما بينهم كأن شيئا لا يعكر صفوهم . سلطت الشمس المؤتلقة مرحة على الشجيرات والكوخ في الوادي الصغير . هكذا اذن فهذا يوم أسره ، اليوم الذي استشرفه بمزيج من الخوف والرهبة . أيمكن حقا أن يكون يوماً مغموراً بالسكينة والسلام على هذا النحو ؟ مع ذلك شعر أيضا ، وعلى نحو ما ، باستياء يستعصى على الوصف ، نوع من خيبة الأمل ؛ إذ لم يشعر بالاعتزاز لكونه بطلا مأساوياً ، شأن العديد من الشهداء ، ومثل المسيح ذاته .

- أبت ، أبت ، ماذا حدث ؟

قالها رجل بعين كريمة ، محركاً رسغيه المقيدين .

عندها رفع الآخرون جميعاً رءوسهم ، وبوجوه أفعمت فضولاً انتظروا رد القس، حدث نفسه بأنهم يحاكون رهطاً من الدواب الجاهلة بمصيرها ، لا تدرى القدر القابع متربصاً بها . حينما أوضح أنه أسر فى الحبال ، لم يبد أنهم أدركوا ما يقول ، وضع الرجل يده على أذنه ، طرح السؤال ذاته كرة أخرى ، أخيرا لاح عليه أنه أدرك ما يعنيه القس .

- آه .

اصاعدت من بينهم تنهيدة ، تجردت من التصديق أو الانفعال .

- ألا يتحدث اليابانية جيداً . إنه بارع حقاً ، أليس كذلك ؟

قالتها إحدى النسوة ، مثلما طفل ، مندهشة لمعرفة القس باليابانية .

اكتفى الحرس بالضحك من هذا كله ، دون أن يحاولوا تفريع الرجال والنسوة ، أو الحيلولة دون تبادلهم الحديث ... شرع الأعور يحادث أحد رجال الحرس ، ببعض الألفة ، فرد عليه هذا بابتسامة وود .

- ماذا يفعل هؤلاء الرجال ؟

همس الراهب لإحدى النساء ، فردت بأنهم فى انتظار مقدم المسئولين ، الذين يفترض أنهم سيأتون إلى القرية ، وأضافت :

- على أى حال يا أبت نحن مسيحيون ، وهؤلاء ليسوا مسيحيين ، إنهم من الاغيار . كان جليا أنها ترى معنى عميقاً فى هذا التمييز .

- أما تطعم شيئاً يا أبت ؟

واصلت حديثها ، وبيديها المصفدتين ، أفلحت في أن تنتزع من صدرها خيارتين صغيرتين ، راحت تقضم احداهما برفق ، وأعطت الأخرى للراهب ، حينما قضمها امتلأ فمه بنكهتها المخضرة . حدّث نفسه بأنه منذ مقدمه إلى هذه البلاد لم يسبب إلا العناء لهؤلاء المسيحيين الفقراء ، وأخذ يقضم الخيارة بمقدم أسنانه ، منحوه الكوخ الصغير الذي أوى اليه ، خلعوا عليه الثياب التي تكسوه الآن ، عاش على طعامهم ، الآن جاء دوره ليمنح شيئاً . لكن ماذا عساه يعطي ؟ إن الشئ الوحيد الذي يتعين عليه أن يقدمه هو حياته وحتفه .

تساءل :

– ما أسمك ؟

– مونيكا .

وشّى الحياء ردها هونا ، كأنما كان اسمها المسيحي الحلية الوحيدة التي تملكها ، في هذه الدنيا . ترى أي ذلك الذي منح اسم أم القديس أوغسطين لهذه المرأة التي كان بدنها يفوح برائحة الأسماك .

– وهذا الرجل ؟

تساءل ، مشيرا إلى الأعور ، الذي واصل الحديث مع الحرس .

– أتعني موزايمون ؟ إسمه يوحنا .

– من الأب الذي عمده ؟

– لم يكن أبا وإنما أخ ، الأخ ايشيدا ، لابد أنك تعرفه يا أبت !

هزّ الكاهن رأسه نافيا ، كان جاربي هو الشخص الوحيد الذي يعرفه في هذه البلاد .

- ألا تعرفه ؟ كيف ؟ لقد قتل في أونزين .

تحدثت المرأة باندهاش ، فيما كانت تحدق في وجه الكاهن .

- لكن اتشعرون بالارتياح جميعاً ؟ ألا تدركون أننا بسبيلنا للموت بالطريقة ذاتها.

الآن أعرب أخيرا عن الشك الذي كان يختمر في قلبه .

نكست المرأة عينيها ، حدقت بثبات في الشجيرات عند قدميها ، مرة أخرى راحت ذبابة اجتذبتها رائحة البشر تطن حول عنقها .

- لا أدري ، اعتاد الأخ إيشيدا أن يقول إننا حينما نمضي إلى السماء سنجد هناك سلاما وسعادة دائمين ، هناك لن نضطر لدفع الضرائب كل عام ، ولن يشغلنا الجوع والمرض ، لن يكون هناك كدح ، ليس لدينا في هذه الحياة الدنيا إلا المتاعب ، لذا علينا أن نكدح . أبت ، أليس صحيحا أنه لا يوجد مثل هذا العذاب في السماء ؟

شعر بأنه يود لو صرخ : «ليست السماء بالمكان الذي تظنين» . لكنه كبح جماحه ، لقد تلقى هؤلاء الفلاحون التعاليم كالأطفال ، راودتهم الأحلام عن سماء تخلو من الاقتضاء المرير للضرائب ومن القهر . فمن هو ليضع نهاية قاسية لهذا الحلم السعيد ؟

قال مغمضا عينيه :

- أجل ، ما من شيء يمكن أن يسلب منا هناك ، لا يمكن أن نحرم من شيء .

لكن سؤالا قفز إلى شفتيه الآن :

- أتعرفين أبا يدعى فيريرا ؟

هزت المرأة رأسها نافية . راح يسائل نفسه : ترى أكان اسم فيريرا ذاته كلمة لا ينبغي أن تبوح بها شفاه المسيحيين ؟

فجأة تعالى صوت هناك من الصخرة بأعلى الوادى ، تطلع الراهب ، فشاهد ساموراى ممتلئا ، ضئيل البنية ، متقدما هونا فى العمر ، مبتسما يتبعه فلاحان ، حينما رأى ابتسامة الكهل ، أدرك أنه هو الساموراى الذى أجرى التحقيق فى توموجى .

- الجو حار ، أليس كذلك ؟ من الآن فصاعدا يشتد القيظ حقا ، وتصبح الحقول الممتدة شيئا لا يطاق .

قالها الساموراى ملوحا بمروحته ، دنا وئيدا ، متجاوزا الصخرة ، خلال حديثه .

وضع يوحنا ومونيكا والرجال والنسوة الآخرون أيديهم المثقلة بالأغلال على ركبهم ، وانحنوا فى أدب ، من طرف عينه شاهد الساموراى الراهب يحنى رأسه مع الآخرين ، لكنه تجاهله ، وسار قدما ، أصدرت عباءته حفيفا جافا خلال سيره ، ضاعت ملابسه بعطر رقيق .

- السماء لا تمطر ليلا هذه الأيام ، والطريق مترب تماما ، من العبث بالنسبة لكهول مثلنا أن يمضوا بعيدا هكذا .

جلس وسط السجناء ، ملطفا حرارة رأسه وعنقه بمروحة بيضاء ، وقال :

- لا تمضوا فى خلق المتاعب لرجل عجوز مثلى !

جعلت الشمس وجهه الضاحك مسطحا للغاية ، حتى أن الكاهن استعاد ذكرى تماثيل بوذا التى شاهدها فى ماكاو . لم يحدث أبدا أن أثارت فيه هذه التماثيل شعورا يحاكى ذلك الذى يفجره وجه المسيح . وحده الذباب واصل

الطنين ، تارة يلف أعناق المسيحيين ، وتارة أخرى يرف باتجاه العجوز ، ثم يعود كرة أخرى .

- لم نلق القبض عليكم عن كره ، فلابد أنكم تدركون الأسباب التي تدفعنا ، لماذا نعتقلكم فيما أنتم تسددون ضرائبكم وتعملون بجد ؟ إننا نعرف خيرا من غيرنا أن الفلاحين هم العمود الفقرى لهذه البلاد .

اختلط خفيف مروحة الكهل برفيف أجنحة الذباب . حملت الريح الدافئة المنعشة قوقأة الدجاج من البعيد إلى موضعهم . راح الراهب يحدث نفسه ، وقد نكس عينيه كالآخرين :

أهذا هو التحقيق الشهير ؟ أولئك المسيحيون والدعاة الذين عذبوا وعوقبوا جميعا ... أتراهم سمعوا صوت الاقناع الهادئ قبل تعذيبهم ؟ أو قد أصغوا كذلك إلى طنين الذباب في جو ناعس كهذا ؟ كان قد ظن أن الخوف سيقهره ، وأن الرعدة ستأخذه ، لكنه ، واعجبا ، لم يصاعد خوف في فؤاده ، لم يدرك على وجه الدقة مدى قربه من العذاب والموت ، راوده شعور رجل يفكر ، في يوم مطير ، في الجبل القابع في البعيد ، متوج الهام بأشعة الشمس .

- سأهبكم وقتا تفكرون فيه بالأمر ، وفيما بعد اطرحوا على ردا معقولا !

قالها الكهل ، مختتما الحديث فجأة ، فيما اضمحلت الابتسامة المغتصبة على شفتيه . الآن علت وجهه بدلا منها تلك الكبرياء الممزوجة بالجشع ، التي طالما رآها على وجوه التجار في ماكاو ، قال :

- الآن ، امضوا !

وقف الحرس وسط الشجيرات ، وراحوا يستحثون أسراهم . مضى الراهب ليقف مع الآخرين ، لكن الكهل صرخ عاليا ، وقد كشر وجهه ، محاكيا قردا ، ومفصحا للمرة الأولى عن الكراهية والسخط ، في عينيه المتقدتين. صاح :

- أنت ، ابق هنا !

قالها مادا اصبعه الضئيل على أقصى امتداده ، وواضعا احدى يديه على مقبض سيفه .

اقتعد الكاهن الأرض ثانية وسط الشجيرات ، وعلى فمه ابتسامة واهنة . انبعث الكهل ضئيل الجرم واقفا ، مطع بعنقه ، مثل ديك يتأهب للصراع ، سارع منتفخ الأوداج ، مبديا بوضوح للسجناء عزمه على ألا يغلبه اجنبي . حدّث الكاهن نفسه بأن الرجل يبدو قردا ، ما من حاجة تدعوه إلى أن يقف هناك ويده على سيفه ، فلن ألوذ بالهرب .

رمق الجمع ، وهم يرقون ، موثقي الأيدى جميعا ، المرتفع ، ويحتجبون عن الأنظار ، في أحضان الهضبة البعيدة «في زمن الآلام لمقدس هذا اغمرنا برحمتك» ارتفعت الترتيلة مريرة إلى شفتيه الجافتين ، غمغم .

- الهى ، لا ترد عناهم ، فهو يثقل كواهلهم ، وقد استطاعوا احتماله حتى اليوم . هل بوسعك أن تثقل بالمزيد من الابتلاء قوما سحقتهم أثقال الضرائب ورجال الحكومة والضراوة ؟

رفع الكهل قدحا إلى شفتيه ، بلل حلقه ، مثلما تفعل دجاجة بالماء ، قال :

- قابلت عددا كبيرا من الآباء ، حققت معهم في بعض الأحيان ...

بلل شفتيه ، وراح يتحدث بصوت مجامل ، يتناقض تماما مع موقفه السابق .

- أتفهم اليابانية ؟

في السماء امتدت رقائق قليلة من السحب ، اظلم الوادى قليلا ، وسط الشجيرات القريبة كان طنين الحشرات المكتوم يعلو ، مفصحا عن نفسه للمرة الأولى .

قال :

- الفلاحون حمقى ، وأمر الافراج عنهم يتوقف كلية عليك .

لم يتفهم الراهب على وجه الدقة ما هو بازائه ، لكن التعبير الذى علا ملامح الآخر أوضح أن الوغد العجوز الماكر كان ينصب شركا له .

لا يستطيع الفلاحون أن يفكروا لأنفسهم ، وحتى إذا تحدثوا فى الأمر فيما بينهم ، فلن يصلوا إلى نتيجة ، لكنك إن قلت كلمة واحدة ...

تساءل الراهب :

- ما الذى تحاول قوله ؟

قال الكهل ضاحكا ، وملوحا بمروحته :

- ارتد ! ارتد !

رد الراهب بهدوء ، ضاحكا طوال الوقت :

- بافتراض أنى أرفض . ستقتلنى ، فيما افترض .

قال الكهل :

- لا .. لا لن نفعل هذا ، لو أننا قمنا بهذا لأصبح الفلاحون أكثر

عنادا ، لقد ارتكبنا هذا الخطأ في أومورا ونجازاكي . إن المسيحيين جمع عنيد .

ندت عن الكهل تنهيدة عميقة ، خلال حديثه ، لكن كل شئ بدا جليا للراهب ، باعتباره ملهاة ، بل استشعر لذة خفية في معابثة هذا الكهل ، الذي يحاكي القرد في مظهره .

- الآن ، لئن كنت أبا في قرارة فؤادك ، فينبغي أن تشعر بالشفقة على المسيحيين . أليس الأمر كذلك ؟

دونما وعي شعر الراهب بشفتيه تلتويان ، يا لذلك الكهل من ساذج ! أيظن أنه يستطيع أن يربح شيئا بمنطقه الصبياني هذا ؟ غير أن ما نسيه حقا هو أنه إذا كان هذا المسئول بسيطا حد الصبيانية فإنه بالمثل بسيط في تفجره غضبا ، إذا ما لحقته الهزيمة في المحاورة .

قال الكهل :

- ماذا ترى في الأمر ؟

قال الراهب هازا كتفيه ، ضاحكا :

- أنزل العقاب بي وحدي !

وسم الغضب جبين الكهل ، تدحرج قصف الرعد الخافت الكئيب من السحب البعيدة .

اختتم الكهل حديثه :

- بسببك سيعرفون العناء .

دفعوه إلى الكوخ الصغير . من خلال تلك الجدران المضفورة من الأغصان ،

المنتصبة على الأرض العارية ، انسلت أشعة الشمس الشهباء ، كأنها قطع من الغزل ، كان بوسعه أن يسمع فى الخارج الأصوات المكتومة للحرس فى ثرثرتهم . أين مضوا بالمسيحيين ؟ لقد اختفوا عن العيان ، وكان هذا كل ما هناك . اقتعد الأرض ، ضاما إليه ركبتيه ، راح يفكر في مونيكا ورفيقها الأعور ، ثم حلق به التفكير حول قرية توموجي ، حول أوماتسو وايشيزو وموكيشي ، أحس بقلبه ثقيلا . لو أنه أتيحت له لحظة للتفكير لبارك على عجل هؤلاء المسيحيين المساكين ، على الأقل ، لكنه حتى لم يتح له التفكير فى الأمر . كان ذلك برهانا على أنه لم تتح له لحظة واحدة يتمهل فيها . كان ينبغى على الأقل أن يسألهم أى يوم من أيام الأسبوع هذا ، وما موضعه من الشهر ، لكنه نسى ذلك أيضا . بدا ، منذ مجيئه إلى هذه البلاد ، وكأنه فقد كل شعور بالزمن ... بالشهور والأيام ، بحيث لم يعد بمقدوره الآن أن يقدر كم يوما مر منذ الاحتفال بالفصح ، أو أى عيد من أعياد القديسين يحتفل به اليوم .

شرع يسبح بالاستعانة بأصابعه الخمسة بدلا من المسبحة ، ولكن تماما مثلما يساقط الماء عن فم مريض ، غلق المرض شفتيه ، ظلت صلاته فارغة جوفاء على شفتيه . اجتذبته اصوات الحرس خارج الكوخ . ترى أى أمر كان من الطرافة بحيث دفعهم إلى مواصلة رفع عقائرهم بالضحك من القلب على هذا النحو ؟ تحولت أفكاره إلى الحديقة التى أنارتها المشاعل والخدم ، وشخوص أولئك الرجال القابضين على مشاعل تمج لهبا سوّده الدخان ، دونما مبالاة بمصير رجل واحد ، كان الحرس أيضا رجالا لا يأبهون بمصير الآخرين . كان ذلك هو الشعور الذى أثاره ضحكهم وثرثرتهم فى فؤاده . راح يفكر فى أن الخطيئة ليست ما يظن عادة أنها عليه ، ليست السرقة

والكذب . إنما الخطيئة أن يدهس الرجل كالدابة على حياة رجل آخر ، مستشعرا السكينة ازاء الجراح ، التى خلفها وراءه ، عندئذ اصّاعدت فى قلبه للمرة الأولى صلاة حقيقية .

فجأة انقض شعاع من نور باهر على جفنيه المغمضين . فتح أحدهم باب الكوخ ، بهدوء ، متسللا ، حتى لا يحدث ضجيجا ، ثم راحت عينان ضيقتان ، متوعدتان ، تحدجانه . حينما فتح الراهب عينيه ، حاول المتسلل الانسحاب مهرولا .

- إنه هادئ .. أليس كذلك ؟

شخص آخر كان يحادث الحارس ، الذى تطلع داخل الكوخ ، الآن فتح الباب . ارتمى دفق من الضياء فى الحجرة ، بدا شبح رجل ، ليس الساموراى الكهل ، وانما آخر لا يتمنطق بسيف قال :

- عفوا سيدى (١) :

هكذا فهو يتحدث البرتغالية . كان النطق غريبا ومتعثرا ، لكنها البرتغالية يقينا .

- سيدى !

- إنه وعد الرب ، سيدى !

كان تدفق الضوء الباهر المفاجئ قد جعل الراهب يشعر بالدوار هونا ، أصغى إلى الكلمات ، نعم ثمة أخطاء هنا وهناك ، لكن المعنى لا يطاله الشك .

استطرد الآخر ، فى حديثه ، بالبرتغالية :

- لا تدهش ، فهناك فى نجازاكى وهيرادو عدد من المترجمين مثلى ،

---

(١) بالبرتغالية فى الأصل .

لكنى أرى يا أبت أنك تمتلك ناصية لغتنا ، هل بمقدورك أن تخمن أين تعلمت البرتغالية .

واصل الرجل حديثه ، دون أن ينتظر ردا ، وخلال حديثه استمر يحرك مروحته ، على نحو ما كان الساموراى الكهل يفعل :

- بفضلكم ، معشر الآباء البرتغاليين ، شيدت المعاهد الدينية ، فى أريما وأما كوسا وأمورا ، لكن ذلك لا يعنى أننى مرتد ، لقد عمّدت بالفعل ، لكنى منذ البداية لم أكن أود أن أغدوا أخا مسيحيا ، إننى ابن ساموراى يعمل بالقضاء ، وما كان يمكن لشئ أن يرفع شأنى إلا العلم .

كان هذا الشخص يؤكد بإلحاح على حقيقة أنه لم يكن مسيحيا ، جلس الراهب فى الظلمة بوجه جامد الملامح ، وهو منطلق فى ثرثرته .

صاح الرجل متعجبا ، وقد بدأ الغضب ينتابه :

- لِمَ لا تقول شيئا ، كان الآباء دائما يسخرون منا ، أعرف الأب كابرال ... ما كان يكن شيئا إلا الازدراء لليابانيين كافة . كان يحتقر دورنا ، يحتقر لغتنا ، يحتقر طعامنا وعاداتنا ... رغم ذلك فقد عاش فى اليابان . وحتى أولئك الذين تخرجوا من بين صفوفنا من المعهد الدينى لم يسمع برسامتهم .

خلال حديثه ، وفيما كان يستعيد ذكرى أحداث الماضى ، ازداد صوته تهدجا وعنفا ، غير أن الراهب ، الذى افتعد الأرض هناك ضاما ذراعيه حول ركبتيه ، كان يعرف أن غضب ذلك الشخص لم يكن مجردا تماما من المبرر ، فقد سمع شيئا عن كابرال من فالينانو فى ماكاو ، وتذكر كيف أن فالينانو تحدث بحزن عن المسيحيين والرهبان الذين هجروا الكنيسة بسبب موقف هذا الرجل من اليابان .

أخيرا ، قال :

- إننى لست مثل كابرال ...

ندت ضحكة عن الرفيق ، قال :

- أحقا ، لست على يقين من هذا .

- لِمَ ؟

لم يستطع الراهب فى العتمة تبين التعبير الذى ارتسم على ملامح ذلك الشخص ، لكنه خمن بشكل ما أن هذا الصوت الخفيض الضاحك يصدر عن وجه أفعم كراهية وسخيمة . كان بمقدوره أن يحدس ذلك واثقا ، إذ اعتاد سماع اعترافات المسيحيين مغمض العينين . لكنه حدث نفسه ، فيما كان يتطلع نحو الآخر ، بأن ما يصارعه هذا الشخص ليس الأب كابرال ، وانما حقيقة أنه تلقى العماد يوما .

- أما تخرج يا أبت ؟ لست أظننا بحاجة إلى التخوف من أنك ستلوذ بالهرب الآن .

قال الراهب ، وقد ارتسم ظل ابتسامة على شفتيه :

- لن تكون على يقين أبدا ، فلست قديسا ، إننى أرهب الموت .

- أبت ، فى بعض الأحيان لا تسفر الشجاعة إلا عن اثارة المتاعب للآخرين ، اننا نسمى هذا بالشجاعة العمياء ، والكثيرون من الآباء الذين انغمروا عن تعصب بهذه الشجاعة العمياء ينسون أنهم لا يسببون إلا المتاعب لليابانيين .

- أهذا هو كل ما فعله الدعاة ؟ أو قد سببوا المتاعب فحسب ؟

- إذا فرضت على الناس شيئا لا يريدونه ، فإنهم يميلون إلى أن يقولوا :

شكرا على الهبـاء الذى منحتنـا إياه . والدين المسيحى هو شئ من هذا القبيل هنا ، فلـديـنا ديننا ، ولسنا بحـاجـة إلى دين جديد ، دين اجنبى . لقـد تعلمت المذهب المسيحى فى معهد دينى ، لكنى أقول لك بأنى لا أعتقد أنه ينبغى أن ينقل إلى هذه البلاد .

بهدوء ، قال الراهب ، خافضا صوته :

– ان طريقتينا فى التفكير مختلفتان ، ولو أنهما كانتا شيئا واحدا ، لما عبرت البحر من بعيد للمجئ إلى هذه البلاد .

كـان هـذا هو سـجاله الأول مـع يابانى ، تـرى أقـد اشـتبك كثيـر من الآباء منـذ عـهـد كـزافيه فى مثل هـذا السـجال مع البونيين ؟ لقد حـذره فاليـنـانو مـن ألا يقـدر ذكـاء اليابانيين حـق التقـدير ، وقال إنهم محنكـون فـى فن المساجلة .

اندفع الآخر للهجوم ، فيما هو يفتح ويطوى مروحته :

– طيـب ، إذن ، دعنى أطـرح سـؤالا ، يقول المسـيحيون إن ربهـم هـو منبع المحبة والرحمة ، مصـدر الخير والفضـيلة ، فيما تجليات بوذا جميعها تمثل بشرا ، ولا تستـطيع أن تحظى بهـذه الصـفات . أهـذا هـو موقفك كذلك ، يا أبت ؟

– لا يمكن لبـوذا أن يهوب مـن الموت بأكثر مما يمكن لنا ، إنه شئ مختلف عن «الخالق» .

– وحـده القس الجاهل بتعـاليـم بوذا هـو الذى يمكنه التقول بمثل هذا . ففى الحق ليس بمقدورك القول بأن تجلـيـات بوذا لا تتجاوز البشـر ، ثمـة ثلاثة أنواع من تجليـات بوذا ، هوسـين ، جـوسـين ، أوكـا . وبوذا اوكـا يـفـصـح عن

ثمانية جوانب لخلاص البشر وافادتهم ، لكن هوسين لا يحده بدء ولا انتهاء ، ولا يتبدل ، ولا يتغير ، ومكتوب في محاورات بوذا أنه خالد ، لا يعرف التغير طريقا إليه ، ووحده المسيحي هو الذى يمكن أن ينظر إلى تجليات بوذا باعتبارها تمثل بشرا ، إننا لا نفكر بهذه الطريقة على الإطلاق .

واصل الرفيق صب ردوده ، كأنما حفظها عن ظهر قلب ، لا شك أنه حقق مع الكثيرين من المبشرين فى الماضى ، وأمعن التفكير فى أفضل السبل لإيقاع الهزيمة بهم ، جلى أنه انتهى إلى استخدام ألفاظ حوشية ، لا يتاح له هو نفسه فهمها .

قال الراهب ، ممسكا بنقطة ضعف الآخر ، ومتصديا للهجوم :

– لكنكم تعتقدون أن كل شئ يوجد بصورة طبيعية ، وأن العالم لابدء له ولا انتهاء .

– نعم ، هذا موقفنا .

– لكن الشئ المتجرد من الحياة ينبغى أن يحركه شئ آخر من خارجه أو من داخله ، فكيف ولدت تجليات بوذا ؟ فضلا عن هذا ، فإنى أفهم أن تلك التجليات ذات قلوب رحيمة ... ولكن قبل هذا كله كيف صنع العالم ؟ إن إلهنا هو مصدر وجوده الخاص ، لقد خلق الإنسان ، وخلع الوجود على الأشياء كافة .

– إذن فقد خلق الرب المسيحي الأشرار . أهذا ما تقوله ؟ هل الشر أيضا من عمل إلهكم .

قالها المترجم ، ضاحكا فى رقة ، مستمتعا بفوزه .

صاح الراهب هازا رأسه :

- لا ، لا ، لقد خلق الله كل شئ للخير ، ولهذا الخير خلع على الإنسان القدرة على التفكير ، لكننا نحن البشر نستخدم هذه القدرة على التمييز بصورة خاطئة ، وهذا هو الشر .

فرقع المترجم بلسانه في ازدراء ، لكن الراهب ما كان يتوقع أن يقتنع بهذا الايضاح ، فهذا اللون من الحوار سرعان ما يكف عن أن يكون حوارا ، إذ يغدو تلاعبا بالكلمات ، يحاول المرء بقوة أن يلقي خصمه في غماره أرضا .

صاح المترجم :

- كفى سفسطة ، قد تقنع الفلاحين مع زوجاتهم وأطفالهم بهذه الطريقة ، لكنك لا تستطيع خداعي . الآن دعني أطرح عليك سؤالا واحدا : إذا كان صحيحا أن الله رحيم عطوف حقا فكيف تفسر الحقيقة القائلة بأنه ابتلى الإنسان بكل ضروب الابتلاء وأفانين المعاناة تلك في طريقه إلى السماء ؟

- كل أفانين المعاناة ، أعتقد أن فهم الأمر قد فاتك . لو أن الإنسان التزم في اخلاص بوصايا الهنا لكان بمقدوره أن يحيا في سلام ، لو أننا ساورتنا الرغبة في أن نأكل شيئا فبمقدورنا أن نأكله ، فالله لا يأمرنا بأن نهلك جوعا ، كل ما يطلب منا أن نمجد خالقنا ، وفي هذا الكفاية ، أو فلنضرب مثالا آخر ، حينما لا نستطيع الخلاص من رغبات البدن ، فالله لا يأمرنا بتجنب الاتصالات بالنساء كافة ، وإنما هو يخبرنا أن تكون لنا زوجة واحدة ، وأن ننفذ مشيئته الربانية .

حينما انتهى من الحديث ، شعر بأن رده اكتسى اطارا طيبا ، كان

بمقدوره أن يشعر في عتمة الكوخ بأن المترجم قد ضاعت منه الكلمات ، وأفحم حد الصمت .

قال الآخر غاضبا ، ومنتقلا للحديث باليابانية :

– كفى ! ليس بمقدورنا أن نمضى إلى الأبد بهذا المزاح العبثى ، لم أت هنا لهذا العبث .

صاح ديك في البعيد . من الباب الموارب ، انسل خيط وحيد من النور ، فاخترق حجب عتمة الغرفة ، وسبحت عبره آلاف ذرات الغبار متراقصة ، راح الراهب يحدق فيها باهتمام .

ندت تنهيدة عميقة عن المترجم ، وقال :

– إذا لم ترتد ، فسيعلق الفلاحون فى الحفرة .

لم يستطع الراهب أن يفهم تماما معنى ما يقوله .

– نعم سيعلق خمسة فلاحين ، وقد قلبوا رأسا على عقب فى الحفرة ، خلال عدة أيام .

– يعلقون فى الحفرة ؟

– نعم ، يا أبت ، ما لم ترتد .

لزم الراهب الصمت . أهذه الكلمات جادة ؟ أم تراها تهديدا ؟ راح يحدق فى العتمة ، وعيناه تأتلقان .

– أبت ! ألم تسمع أبدا بإينوى ؟ إنه الحاكم ، ستقابله وجها لوجه في وقت ما للتحقيق .

إ – ى – ن – و – ى ... بهذه المقاطع وحدها بدت الحياة وكأنها تدب

فى برتغالية المترجم . لطمت أذنى الراهب ، على الفور اهتز بدنه كله ، وأخذته الرعدة .

– الآباء الذين ارتدوا بعد تحقيق إينوى معهم هم «الآباء بورو ، بيدرو ، كاسولا ، والاب فيريرا» .

– الأب فيريرا !

– نعم . أو تعرفه ؟

– لا ، لا أعرفه ، فهو ينتمى إلى طائفة أخرى ، لم أسمع أبدا باسمه ، لم أقابله مطلقا . أهذا الأب على قيد الحياة الآن ؟

صاح بها الراهب منفعلا ، وهو يهز رأسه .

– هو على قيد الحياة ، بل حمل اسما يابانيا ، يقيم فى دار بنجازاكى مع زوجته ، ويحظى بسمعة طيبة الآن .

فجأة اصّاعدت أمام عينى الراهب شوارع نجازاكى ، التى لم يرها أبدا ، لسبب ما لم يفهمه كانت مدينة خياله هذه مليئة بمتاهات من الطرق ، وكانت الشمس الذهبية تأتلق على نوافذ الدور الصغيرة ، وهناك ، ماضيا عبر الشوارع ، مرتديا ملابس كتلك التى تكسو المترجم كان فيريرا ، لا ، لا يمكن أن يحدث هذا ، فمثل هذا التصور مثير للسخرية .

قال : إننى لا أصدقك .

لكن المترجم مضى خارجا ، بضحكة هازئة .

أغلق الباب خلفه ، مرة أخرى ، فاحتجب شعاع الشمس فجأة ، ارتطمت اصوات الحرس مجددا بجدران الكوخ ، على نحو ما كانت من قبل .

كان المترجم يقول :

- وغد أناني ، لكنه على أى حال سينتهى به الأمر إلى الارتداد .

حدث الراهب نفسه بأن تلك اشارة واضحة له . ضاما ركبتيه بذراعيه ، راح يجتر صامتا الاسماء التي استعرضها المترجم ، كما لو كان قد استظهرها من قبل ، الأبوان بورو وبيدرو لم يسبق له أن عرفهما ، شعر يقينا بأنه قد سمع باسم الأب كاسولا في ماكاو ، كان هذا المبشر برتغاليا ، لكنه على عكس الراهب لم يأت من ماكاو ، وأنما من مانيللا ، التي يسيطر عليها الاسبان ، ودخل اليابان سرا ، بعد وصوله انقطعت أخباره ، وسلمت جمعية اليسوع بأنه لقي شهادة مجيدة . لكن وجه فيريرا كان وراء هذه الشخوص الثلاثة ... فيريرا الذى كان يبحث عنه منذ وصوله إلى اليابان ، فإذا لم تكن كلمات المترجم تهديدا محضا ، فإن فيريرا هذا بدوره ، وكما تقول الشائعات ، قد خان الكنيسة على يد الحاكم إينوى .

إذا كان فيريرا نفسه قد ارتد ، أترى القوة ستواتيه ليتحمل أفانين العناء التي تنتظره ؟ شعور مخيف بالعذاب ملأ صدره ، هز رأسه بعنف ، محاولا السيطرة على التصورات والكلمات البشعة ، التي اصاعدت في حلقه كالقئ ، لكنه كلما أوغل في محاولة سحق هذه الصورة ، ارتسمت متوهجة أمام عينيه ، هاربة من سيطرة ارادته «أبانا القادر على كل شئ أنا وانتم أيها القديسون الحافظون يا من تحمون وترودون وتدافعون عن الناس كافة ... »حاول مرددا الترتيلة مرة أخرى أن يخفف محتدا من تركيزه ، لكن الترتيلة لم تستطع بعث الهدوء في قلبه المعذب :

- إلهى ، لِمَ أنت صامت ؟ لم أنت صامت دائما ... ؟

أقبل المســاء ، وانفتح الباب ، وضع أحـد رجال الحـرس وعاء خشـبيا بين يديه ، ومضى دون أن ينبس بكلمة . رفعه الراهب ، فأنته رائحته ، بدا أنه طهى قبل يومـين أو ثلاثة أيام ، لكنه في حـالتـه الراهنة كان يمكن أن يرحب بالتـهام الجلد ، ليملأ معـدته الخاوية . قبـل أن يفرغ من أمره ، راح الذباب يدوّم حول يديه . مـضى يحدث نفسـه ، بينما كان يلعق أصـابعه : إنني أحـاكي الكـلب تماما ، لقد أتى على الدعاة حـين من الدهـر وجهت إليـهم الدعـوات لشـهود المآدب في دور السـادة الاقطـاعـيين والسـامـوراي . كـان ذلك في العـهـد الذي أقبلت فـيه السـفن البرتـغالية بانتظـام على مـوانئ هيـرادو ، يوكوسـيـورا ، ورفوكودا ، مثـقـلة بعـروض التجـارة . كان ذلك أيضـا . فلما قـال فاليـنـانو ، العـهد الذي لم يعـرف الدعـاة فـيـه الاحـتيـاج إلى الخـبز أو النبيـذ . كـانوا يجلسـون أمام مـوائد نظـيفة ، يرددون صلاة الشـكر ، يتنـاولون طعامـهم على مـهل . الآن هـوذا ، نـاسـيـا حـتى ترديد الصـلاة ، ينقـض على هذا الطعـام الجدير بالكلاب ، لم تكن صلاته صلاة شـكر ، وإنمـا ضـراعة في طلب الغـوث ، بل كـانت تعلة يعلن من خلالها شكواه وكـربه . كان يعلـم حق العلم أن حـياته كرست لتـمجـيد الرب لا للإعــراب عن الضـيق . مع ذلك ، فكـم هو عسـيـر ، في يوم الابتـلاء هذا ، إذ يشـعـر بشـعـور أيـوب فـي جـزامـه ، أن يرفـع صـوته ممجدا الرب !

أصدر الباب صريره ، من جديد ، ظهر الحارس نفسه . قال :

- أبت ، إننا ماضون الآن .

- ماضون إلى أين ؟

- إلى المرفأ .



حينما انبعث واقفا ، لفه دوار من وخزات معدته الخاوية. كان الغسق يضرب أطنابه خارج الكوخ ، والأشجار ترخي أغصانها ، في فتور ، كأنما شفها الإعياء من وقدة النهار . اجتاحت أسراب البعوض وجوههم . تناهى نقيق الضفادع من البعيد .

أحاطه ثلاثة من رجال الحرس ، لكن أيا منهم لم يبد عليه قلق من أنه قد يحاول الفرار . راحوا يتبادلون الحديث بأصوات عالية مغربين أحيانا في الضحك . انتبذ أحدهم الشجيرات ، وشرع في قضاء حاجته . حدث الراهب نفسه قائلا : لو أني أردت الهرب لكان بمقدوري الافلات من الحارسين الآخرين والانطلاق بعيدا . لكن أحد الحارسين التفت إليه فجأة ، بينما كانت هذه الفكرة تخامره ، وقال :

- أبت . كان ذلك الكوخ مكانا كئيبا .

نعم . كان فتى طيبا هذا الحارس . فجأة ، مست ملامح الفتى الضاحكة المرحة قلب الراهب هونا . لئن هرب فإن أولئك الفلاحين هم الذين سيعانون جراء ذلك . اغتصب ابتسامة واهنة ، وأومأ إلى رفيقه موافقا .

انطلقوا على الطريق الذى قدموا منه في الصباح ، افتتنت عينا الراهب بالاشجار السامقة وسط الحقول لكأنها تناهز في ارتفاعها نقيق الضفادع . تذكر أنه شاهد هذه الأشجار من قبل . كانت غربان هائلة الحجم تدف بأجنحتها على أغصانها ، وتنعب بصوت خشن . أى جوقه كئيبة كانت ... نقيق الضفادع ونعيب الغربان .

حينما ولجوا القرية ، طرد الدخان الأبيض المتصاعد من الدور المتباعدة أسراب البعوض ، انبعث رجل يلف رداء خاصرته ، واقفا ، محتضنا طفلا بين

ذراعيه ، عندما رأى الراهب فغر فمه كالأبله ، وانفجر ضاحكا ، رصدت النسوة بأعين منكسة حزنا الرجال الأربعة فى مسيرتهم .

مضوا مخترقين القرية ، ثم خرجوا كرة أخرى إلى حقول الأرز ، انساب الطريق منحدرا ، إلى أن هبت أخيرا لفحة جافة من ريح ملحية ، على اللحم المدبوغ لوجنتي الراهب ، امتد مرفأ خفيضا ... إن كان بالوسع أن يدعى مرفأ حقا ، إذ لم يكن يتجاوز مرسى ، مؤلفا من الحصى الأسود المتراكم عاليا ، وقد ارتمى زورقان بانسان على الشاطئ . بينما كان الحرس يدفعون الأوتاد تحت الزورقين ، التقط الراهب القواقع خوخية اللون الملقاة على الرمل ، وراح يعبث بها في يديه ، كانت الاشياء الوحيدة الجميلة التى رآها فى هذا اليوم الطويل ، الطويل . وضع احداها قريبة من أذنه ، أصغى إلى الهدير الواهن المكتوم ، الذى انبعث من أعمق أغوارها ، ثم فجأة هزت رعدة سوداء كيانه كله ، وانسحقت فى كفه تلك القوقعة بهديرها المكتوم .

تناهى إليه الأمر :

- اصعد الى الزورق !

علا غبار أشهب سطح الماء الراكد ، فى قاع الزورق ، استشعرته قدماه المتورمتان باردا ، غرقتا فيه . تشبثت يداه كلتاهما بجانبى الزورق ، أغمض عينيه، وندت عنه تنهيدة . عندما انساب الزورق وئيدا ، مبتعدا عن الشاطئ ، ارتاحت عيناه الغائرتان فى محجريهما على الجبال ، التى كان يضرب فى شعابها حتى هذا الصباح . بدا الجبل قاتم الزرقة فى غمامة المساء ناهضا من البحر ، مثلما نهد امرأة ، تطلع مجددا إلى الشاطئ ، فلمح رجلا ، بدا شحاذا ، يعدو بجنون على امتداده . فى عدوه . كان يهتف بشئ ما فى صوت صاك ، ثم تغوص قدماه فى الرمال ، فيتهاوى . نعم ، كان الرجل الذى أسلمه ، كان كيشيجيرو

يصيح متعثرا ، مناهضا ، ثم متعثرا من جديد ، فى صوت عال ، بشئ ما . الآن رن صوته كالفحيح ، بعد قليل تردد كالبكاء ، لكن الراهب لم يستطع تبين ما كان يهتف به . مع ذلك لم يعتره ميل لكراهية ذلك الرفيق ، أو شعور بالرفض حياله . ففى النهاية كان من المحتم ، إن آجلا أو عاجلا ، أن يقبض عليه . أخيرا أدرك كيشيجيرو ، فيما بدا ، أنه لن يلحق بالزورق أبدا ، فوقف منتصبا كالوتد ، عند حافة الماء . وفيما راح الزورق ينأى ، تضاءل شبحه الساكن أكثر فأكثر فى غبش المساء .

أرخى الليل سدوله ، فولج الزورق خليجا صغيرا . فتح الراهب عينيه الناعستين ، نصف المغمضتين ، فرأى الحراس يستبدل بهم غيرهم . كان حديثهم مرقشا بلهجة غنية بالتوافقات النغمية ، لكنه فى غمار إعيائه البالغ لم يشعر بالرغبة فى بذل جهد لفهم ما يقولونه . كان الشئ الوحيد الذى لاحظه هو أن كلمتى نجازاكى وأومورا قد استخدمتا كثيرا . أحس ، على نحو غامض ، بأنهم يمضون به فى ذلك الاتجاه . عندما كان فى الكوخ ، أتيحت له القوة كى يصلى من أجل الأعور والمرأة ، التى منحته الخيارة ، أما الآن فهو لا يملك القوة ، حتى للصلاة من أجل نفسه ، دع جانبا من أجل الآخرين . لم يعد مهما الوضع الذى يمضون به إليه ، أو ما سينتهى إليه أمره . أغمض عينيه ، فغرق فى النعاس مجددا . فى بعض الأحيان ، كان يفتح عينيه ، وكان بمقدوره دوما أن يسمع وقع المجاديف الكئيبة ، وهى تضرب صفحة الماء .

راح أحد الرجال يعمل المجدافين ، أما الآخران فقد قبعا فى القارب ، بوجهين مكفهرين ، مقلوبى السحنة . غمغم ، كأنما فى غمار نومه : «إلهى ، لتكن مشيئتك» . ولكن على الرغم من أن كلماته المتعثرة بدت شبيهة بكلمات الكثيرين من القديسين ، الذين أسلموا قيادهم للعناية الإلهية ، فقد أحس بأنها

مختلفة . سائل نفسه : ما الذي يحدث لك ؟ أو قد شرعت في فقدان إيمانك ؟ قالها صوت انبعث من أغوار كيانه . غير أن هذا الصوت أفعمه بالاشمئزاز .

- إلى أين تذهبون ؟

هتف بالحراس الثلاثة الجدد ، في صوت أجش ، عندما فتح عينيه مجددا ، لكن الحراس الثلاثة لاذوا بالصمت المتصلب ، كأنما ليهددوه ، فيلتزم السكون .

- إلى أين تذهبون ؟

صاح بهم ثانية ، بصوت عال .

- يوكوسي - نو - أورا .

- رد أحد الرجال ، في صوت خفيض ، بدا على نحو ما مليئا بالخجل .

قد سمع باسم يوكوسي - نو - أورا من فاليانو . كان ميناء استحدثه فروا والميدا ، بتصريح من حاكم المقاطعة ، وشرعت السفن البرتغالية ، التي أتت ، حتى ذلك الحين ، تتردد على هيرادو في استخدام هذا الميناء وحده . كانت كنيسة جزويت ضخمة قد شيدت فوق التل ، المطل على الميناء ، ونصب الآباء فوقها صليبا هائلا ... كان من الضخامة حقا ، بحيث إن الدعاة كان بمقدورهم رؤيته بوضوح ، عندما يصلون اليابان أخيرا ، بعد ترحال طويل ، يدوم عدة أيام وليال . وكان السكان اليابانيون يسيرون كذلك في أحد الفصح ، في موكب يبلغ الكنيسة ، مرددين التراتيل ، وحاملين الشموع الموقدة في أيديهم ، بل كان السادة الاقطاعيون يرقون إلى الكنيسة ، وتلقى بعضهم العماد . حدق الراهب مطلا من الزورق ، علّه يبصر أي أثر للقرية أو مرفأها يمكن أن تكون يوكوسي - نو - أورا . لكن البحر والأرض كانا على السواء يكتسيان السواد الغليظ نفسه ، وما

من ضوء تراه العين . مع ذلك ، فقد سيطرت عليه باستمرار الفكرة القائلة بأنه في مكان ما بهذا الموضع ، على نحو ما كان الحال في توموجي وجوتو ، قد يكون هناك مسيحيون ، لا يزالون يعتصمون بالتقية . ولئن كان الأمر كذلك ، أتراهم يدرون بأنه ها هنا في زورق صغير كان راهب جاثما ملتفا من الخوف ، وقد أخذته الرعدة ، مثل كلب مسعور .

سأل أحد رجال الحرس :

– أين يوكوسي – نو – أورا ؟

تناهى إليه الرد:

– لم يبق منها أثر .

أطلقت النار ترعى في البلدة ، حتى أتت عليها ، وتفرق أهلوها أيدي سبأ . التزم البر والبحر صمت الموت ، وحده صوت الأمواج الكئيب ، في تلاطمها مع الزورق ، هو الذي خدش سطح صمت الليل ، لم تخليت عنا تماما على هذا النحو ؟ راح يصلي بصوت واهن . هذه البلدة شيدت تمجيدا لك ، أو قد تخليت عنها في رمادها ؟ حتى حينما شرد الناس من دورهم ألم تهبهم الشجاعة ؟ أو قد مكثت صامتا بلا حراك مثلما الظلمة التي تضرب اطنابها حولي ؟ ألا حدثني على الأقل بالسر في هذا . لسنا رجالا أشداء ، مثل أيوب الذي حل الجذام بساحته ابتلاء له . ثمة حد لقدرتنا على الاحتمال ، فلا تثقل كاهلنا بالمزيد .

على هذا النحو ، انغمس في صلاته ، لكن البحر ظل باردا ، واعتصم الظلام بصمته العنيد ، كل ما كان بوسعه سماعه صوت المجاديف الكئيب المكرور يتردد مرة فأخرى .

سأل نفسه : ترى أيكلل مسعاى بالاخفاق ؟ شعر بأنه لن يطيق احتمالا ، إن لم تهبه العناية الالهية الشجاعة والقوة .

توقف صوت المجاديف ، واجه أحد الرجال البحر ، وصاح بصوت صاك :

- أثمة أحد هناك ؟

كفت المجاديف عن الحراك ، لكن صوت مجاديف أخرى تناهى إلى الأسماع ، من مكان ما وراءهم .

- قد يكون أحدهم خرج للصيد ليلا ، دعوه وشأنه !

هذه المرة كان العجوز هو الذى تحدث همسا ، الرجل الذى ظل صامتا حتى الآن .

توقف صوت المجاديف المتناهى من الخلف ، تناهى صوت واهن يحاول الرد، شعر الراهب بأنه قد سمع هذا الصوت فى مكان ما من قبل ، لكنه لم يستطع تذكر أين سمعه .

انبلج الصبح ، بلغوا أومورا . حينما أزاحت الريح الغمامة الحليبية تدريجيا ، أوقعت عيناه المكدودتان على الجدار الأشهب لقلعة ، تحيطها أجمة ، على جانب الخليج . كانت لا تزال فى غمار عملية البناء ، تحيطها من الجوانب كافة سقالات من الاخشاب ، حلق سرب من الغربان عبر الأجمة ، خلف القلعة تكأكأت دور من القش والحطب ، تلك كانت أول نظرة يلقيها على مدينة يابانية ، فيما واصل النور تقدمه ، لاحظ للمرة الأولى أن رجال الحرس الثلاثة الذين رافقوه فى الزورق كانت تحت اقدامهم هروات ثقيلة ، لربما تلقوا أوامر بالقائه دونما شفقة فى البحر ، إذا ما أبدى أى اشارة تدل على اعتزامه الهرب .

عند المرفأ ، احتشد جمع متدافع بالمناكب ، على رأسه بعض الساموراى ،

يتقلدون سيوفا هائلة ، قرب اكمام أرديتهم ، كان الساموراى يصيحون بالنظارة ، الذين كانوا يراوحون بين الوقوف والقعود على التل وفرق الشاطئ ، منتظرين بصبر وصول الزورق ، حينما نزل الراهب من الزورق علت صيحة عظيمة من صفوف الجمع ، فيما صحبه الساموراى عبر الحشد ، التقت عيناه بأعين عدد من الرجال والنساء ، كانت تحدجه بنظرات الألم والكرب . التزم الصمت ، واعتصموا بحبله أيضا ، لكنه حينما مر من أمامهم رفع يد بخفة منحهم بركته . فى التو ارتسم الشعور بالخطر والفزع على وجوههم ، نكسوا اعينهم ، بل أشاح بعضهم بوجوههم . لو أن الأمور كانت عادية ، لكان بمقدوره أن يضع خبز جسم المسيح فى تلك الأفواه التى أغلقت الآن فى إحكام ، لكنه لم يكن معه كأس للقربان ، ولا نبيذ ، ولا مذبح ليقيم القداس .

عندما أركبوه جوادا بلا سرج ، وقد أحكموا وثاقه ، ارتفعت صيحة سخرية من الجمع . رغم أن أومورا قد فخمت بلقب مدينة ، إلا أنها لم تبد ، بدورها التى علاها القش ، مختلفة كثيرا عن القرى التى رآها حتى الآن . وقفت النسوة الحافيات ذوات الشعر المتهدل والاردية السابغة يرتبن القواقع وأخشاب الحريق والخضر على قارعة الطريق . من بين المارة ، كان المغنون المتسكعون بأرديتهم المميزة ، وكهنة بوذا بملابسهم السوداء ، يتطلعون إليه ، ويضحكون ساخرين . فى بعض الأحيان ، كانت الاحجار تندفع من أيدى الصبية ، فتمر قريبة من وجهه ، وهم يقودونه عبر الطريق الطويل الضيق . لئن كان فاليناو على حق ، فإن اومورا هذه كانت من الجهات التى بذل فيها الدعاة أعظم الجهود . كانت بها كنائس عديدة ومعهد دينى ، وعلى نحو ما كتب فروا ، فى إحدى رسائله ، كان الفلاحون بل والساموراى «يصغون إلى أحاديثنا بحماس عظيم» حتى السادة الاقطاعيون غدوا مسيحيين ورعين ، وقد سمع بأنهم اعتنقوا المسيحية عن بكرة

أبيهم . ولكن الآن ، وفيما كان الصبية يرجمونه بالأحجار ، والكهنة يفطونه بيصاق بشع ، وهم يصرخون هازئين ، لم يكن ثمة ساموراى واحد بين المسئولين يحاول كبح جماحهم .

خاصر الطريق البحر ، ثم استقام رأسا نحو نجازاكى . عندما اجتازوا قرية تدعى سوزودا ، لاحظ دارا ريفية ، تحفل بزهور لم يكن يعرفها . أوقف الساموراى جيادهم مرة ، وأمروا أحد الرجال باحضار بعض الماء، قدموه بعدها للراهب . لكنه انسكب من فمه على صدره غائر العظام .

- أنظروا ! أليس ضخما ؟

راحت النسوة يشرن إليه هازئات ، وهن يجذبن أطفالهن من أكمام أرديتهم .

عندما استأنف الموكب الوئيد مسيره ، تطلع الراهب إلى الوراء . خطرت بباله فكرة حزينة ، تقول بأنه قد لا يرى أبدا أزهارا بيضاء مزهرة كتلك التى تطلع اليها لتوه ، وفيما هم يغذون المسير كان الساموراى ينتزعون قبعاتهم التى يزينها الريش ، ويجففون عرق جبينهم ، ثم يرجلون شعرهم بأصابعم ، وينطلقون متفخجين على صهوات جيادهم .

الآن غدا الطريق أشهب تكتسحه الرياح ، لاحظ الراهب شبح رجل ، يبدو كشحاذ منحن على عصاه ، يتبعهم . كان كيشيجيرو . على نحو ما سبق له الوقوف عند الشاطئ فاغرا فمه ، يرقب الزورق ضاربا فى البعيد ، كذلك الأن وقف متهدل البدن ، مفتوح الكيمونو . حين رأى أن الراهب لاحظه ، اجتاحته حمى الانفعال ، حاول أن يلوذ بحمى احدى الاشجار . أخذت الحيرة مأخذها من الراهب . لم يقتفى هذا الرجل الذى أسلمه خطاه على هذا النحو ؟ الآن خطر

له أن ذلك الرجـــل الذى كـان فى الزورق الآخـر ، فى ذلك الصـبـاح ، ربما كـان كيشيجيرو .

مـرتطم البـــدن ، علوا وسـفـلا ، بخـاصـرة حـصـانه ، انطلق الراهب ، كـانت عينـــاه الغائرتان فى محـجـريهما تقعان ، بين الحين والآخر ، على البـحر ، الذى لفه الغموض ، كان اليوم يقطر سوادا ، وينضح وعيدا . بعد أن خلفوا سوزودا وراءهم ، بدأ عدد النـــاس فى الطريق يتزايد شيـئـا فشيـئا ، صـادفـهم تجار يقودون ماشيتهم مثقلة الظهـــور ، ومسافرون يعتمرون قبعات ضـخمة من القش ، تحاكى المظلات ، ويرتدون معاطف من القش أيضا . حينما كان هؤلاء يلمحون الموكب كانوا يتنحون ، إلى جانب الطريق ، حيث يقفون فاغرى الافواه ذهولا ، ازاء المشـــهد الغريب الذى صادفهم . فى بعض الأحيان ، كان الفـــلاحون يلقون فئوسهم ، ويقبلون مســـرعين ، ليحدقوا فى المشهد . كان الراهب ، فيما سبق شديد الاهتمام ، باليابانيين ، معنيا بمظهرهم ، وملبسهم ، وما إلى ذلك ، أما الآن فلم يعد بمقدوره أن يســتحث هذا الاهتمام فى أعماقه ، فقد كان اعياؤه بالغا . أغمض عينيه ، وراح يفكر فى وقفـات الصـــليب ، واحدة اثر الأخرى ، التى ترتل الآن فى بعـــض الأديرة ، واصـــل تحريك لسانه الجاف ، فيما هو يحاول الغمغمة بكلمات الصـــلوات . تلك كـــانت صلاة شـهيرة ، تعرفها كافة المعـــاهد الدينية والاديرة ، تأمل يســـتعيد ذكرى تفاصيل ألام المسيح ، حينما خرج هذا الرجل من بوابة المعبد . يرقى الدرب الصاعد نحو الجلجثة ، حاملا صليبه ، مجـاهدا لأجل كل خطوة يخطوها ، متعثرا فى مشيته ، والدهماء المحتشـــدون المتلهفـون ، وملء قـــلوبهم الفـضـــول ، يتبـعــونه : «لا تبكين علي يا بنات اورشـــليم ، بل ابكـــين على أنفسكن وعلي أولادكن ، ستـجئ أيام .....» . واتته هذه الكلمـات ، راح يحـدث نفســـه بأنه قـبـــل قــــرون عـديدة ذاق ذلك الرجل بلسانه الجـاف

المتورم كل العنــاء الذى يحتمله الآن ، خفف عنه هذا الشـعور بالعـناء ، الذى شـورك فيه ، عذاب ذهنه وقلبه ، بنعومة تفوق تأثير الماء الزلال .

أحس بالدموع تنهمر على خديه : «انطلق ، آه ، أيها اللسان» حدث نفسه ، قائلا بأنه كائنا ما كان الأمر ، فلن يرتد ابدا .

عنـد الأصيل بلغوا بلدة تدعى ايساهايا ، ها هنا انتصب قصـر ، يحيطه خندق وسـور من اللبن ، فيمـا تناثرت حوله دور من القش والفخـار . حينمـا بلغوا مدخل إحدى الدور ، انحـنى بعض الرجـال ، الذين تقلـدوا السيوف فى توقـيـر لموكب السـامـوراى ، وجلبـوا وعـاءين ضـخـمين من الأرز . فـيمـا كـان السـاموراى يتناولون طعـامهم ، أنزل الراهب عن جواده ، للمرة الأولى ، وشد وثاقه إلى شجرة، كـأنه كلب . غير بعيد ، اقتـعد الأرض جمع من الشحـاذين مشعثى الشعر ، راحوا يحـدقون فيه كالدواب ، بأعين لا تكـاد تبين ، لم يعد يملك من الطاقة ما يمنحهـم به ابتسـامة . وضع أحدهم حبات قلائل من الأرز فى صحفة مكسـورة أمامه ، رفع الراهـب عينيـه عرضـا إلى صاحب الهبة، كان كيشيجيرو .

الآن أقعى هنالك وسط جمع الشحاذين ، فى بعض الأحيان كان يلتفت، كما لو كان يرغب فى النظر إلى الراهب ، لكنه سرعان مـا يشيح بوجهه ، حينما تلتقى أعينهمـا ، راح الراهب يحدق فى ذلك الوجه بهدوء . حينما التقى بهذا الرجل ، عند الشاطئ ، كان أكثر اعياء حتى من أن يشعر نحوه بالكراهية ، لكنه الآن كان عاجزا عن ابداء الصفح ، اشـتعل غضبـا ، وهو يتأمل المشهد الذى جرى فى السهل، حينما أصـابت الاسمـاك المقددة ، التى اضطر إلى تناولها ، حلقه بذلك الظمأ الرهيب «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» حتى المسيح صب هذه الكلمات على يهوذا الذى أسلمه ، ظن الراهب طويلا أن هذه الكلمات كـانت تناقـضـا فى حب

المسيح ، لكنه الآن ، حينما رأى الوجه المرتعد لهذا الرجل ، فيما هو مقع على الأرض ، رافعا عينيه في بعض الأحيان ، مثل كلب طالته السياط ، اصاعد انفعال أسود قاس من أغوار اعماق كيانه ذاتها ، همس فى قلبه : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» .

أتم الساموراى التهام أرزهم ، امتطوا صهوات جيادهم ، استئنف الركب مسيرته الوئيدة ، رفع الكهنة أصواتهم هازئين ، وألقى الصبية بحجارتهم، وتطلع الرجال مع دواب حملهم ، والمسافرون في ثيابهم اليابانية إلى الساموراى ، وحدقوا فى الراهب ، كان كل شئ على عهده تماما . التفت خلفه ... كان هناك ، كيشيجيرو ، نائيا هونا عن الآخرين ، منحنيا على عصاته ، مقتفيا خطى الركب ، غمغم الراهب فى سريرته : «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» ، «إعمل ما أنت تعمله ولا تبطئ» .

الفصل السادس

أعتمت السماء ، انسابت سحب وئيدة فوق الجبل ، منحدرة على الحقول . كان ذلك هو سهل شيزوكانو ، بدت الشجيرات المتناثرة هنا وهناك كأنها تزحف فوق الأرض ، لكن الأرض التى ضرب لونها البنى إلى القتام كانت باستثناء هذا تمتد بلا انتهاء . انهمك الساموراى فى مناقشة حادة ، حينما انتهت ، أصدروا أوامرهم بإنزال الراهب من فوق جواده . كانت الفترة الطويلة التى قضاها ممتطيا الجواد ، وقد شدّ وثاقه ، قد نالت منه ، حينما وقف على الأرض اندلع ألم ضار عبر فخذيه ، فتهالك إلى الأرض .

كان أحد الساموراى يدخن الطباق ، من قصبة طويلة . كانت هذه هى المرة الأولى التى رأى فيها الراهب الطباق ، منذ قدومه إلى اليابان ، عبّ الساموراى الدخان مرتين أو ثلاثاً ، نفثه ، مرر القصبة إلى رفيقه ، فى الوقت نفسه كان الأتباع يتطلعون فى حسد .

ظلوا لوقت طويل ينظرون جميعاً باتجاه الجنوب ، وهم يراوحون بين الوقوف واقتعاد الصخور ، تمدد بعضهم فى ظل الصخرة . لاحت السماء إلى الشمال مرقشة بالسحاب ، يغلب عليها الصفاء ، لكنها فى الجنوب كانت مثقلة بسحب المساء ، التى راحت تتجمع بالفعل . بين الفينة والأخرى ، كان الراهب يلقى بنظرة على الطريق ، الذى قدموا منه ، لكن ، كيشيجيرو لم يظهر له أثر ... لابد أنه لقى ما عاقه على الطريق ، لربما سئم السعى خلفهم ، فانصرف لشأنه .

- جاءوا ! جاءوا .

صرخ أحد الحراس ، مشيراً باتجاه الجنوب ، من هناك دنا جمع من الساموراى وأتباعهم . يحاكون الجمع المنتظر هنا ، امتطى الساموراى الذى عكف على التدخين جواده ، أسرع بأقصى سرعة نحو الجمع المقبل ، حيا القادمين الجدد ، ومازال على صهوة جواده بانحناءة ، ردها هؤلاء فى وقار . الآن أدرك الراهب أنه سيسلم إلى أيدى رفاق جدد على الطريق .

حينما انتهى تبادل التحيات ، وحول الجمع الذى صحبه من أومورا أعنة جيادهم ، واختفوا على الطريق المؤدى للشمال ، حيث كانت أشعة الشمس لا تزال تنساب فى رفق ، أحاط بالراهب الجمع الذى أقبل لاصطحابه من نجازاكي، من جديد وضعوه على ظهر جواد بلا سرج .

انتصب السجن على منحدر تل تحيطه الأشجار ، كان البناء قد انتهى لتوه ، فبدا كما لو كان مستودعاً ضخماً . فى الداخل ، كان مرتفعاً قليلاً عن الأرض ، الضوء ينسل عبر نافذة ، تعترضها القضبان ، وحاجز صغير ، مثبت بباب خشبى ينزلق ، تدفع عبره صحفة طعام بالكاد . كان الطعام يدفع إليه هنا مرة كل يوم . عقب وصوله ، أخرج مرتين للتحقيق معه ، الأمر الذى أتاح له الفرصة ليرى السجن خارج زنزانته ... ثمة حاجز من الخيزران يتجه مهدداً للداخل ، بينما تمتد وراءه الدور المسقوفةبالفضار ، التي يقطنها رجال الحرس .

حينما زج به ها هنا ، لم يكن هناك سجناء آخرون عداه . اعتاد أن يجلس طوال اليوم صامتاً ، متأملا فى الظلمة ، يصغى لأصوات الحرس . لم يكن الأمر مختلفاً كثيراً عن إقامته السابقة فى ذلك الكوخ بالجزيرة . فى بعض الأحيان ، كان الحرس يحدثونه ، بالنظر إلى توقهم لتمضية الوقت ، هكذا علم أنه على مشارف نجازاكي ، لكنه لم يستطع تبين موقع السجن بالنسبة لقلب المدينة . كان

بمقدوره نهاراً فحسب أن يسمع ، في البعيد ، صيحات العمال العالية ، وصوت الأشجار التي تجتث ، والمسامير فيما المطارق تنهال عليها ، جعله هذا يخمن أن هذه الناحية حديثة الإنشاء . حين يقبل الليل ، كان بمقدوره أن يسمع هديل القمرية ، وسط الأشجار .

رغم كل شيء ، أفعمت حياته في السجن بهدوء وسلام غريبين ، الآن لاح له توتر وعذاب أيام التجوال عبر الجبال كحلم ينتمي إلى الماضي ، لم يكن بمقدوره أن يخمن ما الذي سيجلبه الغد ، لكنه لم يكد يستشعر خوفاً . حصل من الحرس على ورق ياباني مقوى وخيط ، صنع منهما مسبحة ، كان يرتل صلواته كل يوم تقريباً باستخدامها ، مشددا على مخارج الكلمات المقدسة . في الليل على فراشه ، مصغيا إلى هديل القمرية وسط الأشجار ، كان يمر مغمض العينين بمشاهد حياة المسيح كلها . منذ الطفولة ، كان وجه المسيح يمثل بالنسبة له تحقق احلامه ومثله جميعها ، وجه المسيح على نحو ما كان ، وهو يعظ الجمع فوق الجبل ، وجه المسيح خلال عبوره بحيرة الجليل عند الغسق ، حتى في لحظات عذابه لم يفقد هذا الوجه حسنه . هاتان العينان الصافيتان ، اللتان تنفذان إلى سويداء قلب الرجل ، كانتا الآن مثبتتين عليه ، الوجه الذي لا يمكن أن يخطيء أو يلفظ كلمة اهانة . عندما ترامى له هذا الوجه تبدد الخوف والرعدة ، مثلما التجعدات الهينة التي يكتسحها رمل الشاطيء .

كانت تلك هي المرة الأولى ، منذ مقدمه إلى اليابان ، التي استطاع فيها أن يمضي في هدوء وادع يوماً عقب الآخر . شرع في التساؤل عما إذا لم يكن استمرار هذا السلام ، الذي لا تشوبه شائبة ، بمثابة برهان على أن حتفه ليس بعيداً ، انسابت هذه الأيام في فؤاده برقة بالغة .

لكنه ، في اليوم التاسع ، انتزع من سجنه . كان قد اعتاد المكوث في زنزانة لا تلجها أشعة الشمس ؛ من ثم فإن ضوءها الباهر سفع عينيه الغائرتين في محجريهما ، قاطعاً كالسيف . كان صوت الزيزان يصدر متدافعاً من بين الاشجار كالشلال ، فيما لاح خلف كوخ الحرس مشهد بديع لزهور وهاجة الحمرة. عندها شعر بمزيد من الحدة أي شريد هو ، طال شعره ولحيته ، تهدل اللحم حول عظامه ، نحلت ذراعاه كالإبر . تساءل عما إذا كان مجيئه للتحقيق ، لكنه اقتيد مباشرة إلى قاعة الحرس ، حيث أودع زنزانة . فلم يدر السر في احضاره هنا .

لم يكتشف السبب إلا في اليوم التالي . فجأة ، حطمت اصوات الحرس الغاضبة النابحة الصمت ، استطاع سماع وقع اقدام العديد من الرجال والنساء ، وهم يدفعون من بداية السجن إلى الفناء ... حتى الأمس كان هؤلاء المسجونون – شأنه – مودعين سجناً قاحم الظلمة .

– إذا ظللتم على هذا النحو ، فإن العقاب سيحل بكم .

صاح بهم الحراس ، رافعين اصواتهم الغاضبة . بغضب مماثل قاوم السجناء .

– أوقفوا هذا الهياج ! أوقفوه !

هكذا استمر النزاع بين الحرس والسجناء بعض الوقت ، ثم ساد الهدوء من جديد . عندما حل المساء ، تناهت من خارج السجن أصوات علت مرددة : «أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتك في الأرض كما في السماء ، اعطنا خبزنا اليومي ، واغفر لنا ذنوبنا كما غفرنا نحن للمذنبين الينا . ولا تدخلنا في التجربة ، لكن نجنا من الشرير ، آمين» .

فى غبش المساء ، ارتفعت اصواتهم ، مثلما النافورة ، ثم خفتت . «ولا تدخلنا فى التجربة» . ألم يكن فى تلك الأصوات الضارعة رنين يعطف القلب ، رنين مغموس في الأسى ؟ أغمض عينيه الغائرتين ، وحرك شفتيه في توحد مع الصلاة ، وقال :

- مع ذلك ، فإنك لم تقطع الصمت ، ينبغى ألا تظل صامتا !

سأل الراهب الحراس ، فى اليوم التالى ، عما إذا كان بمقدوره أن يزور السجناء ، الذين كانوا يسخرون فى العمل بالحقول ، تحت حراسة مشددة . عندما سمع له بذلك ، مضى إلى حيث كان خمسة أو ستة من الرجال والنساء يحركون فى موات نفوسهم ، حينما تطلعوا إليه فى دهشة ، تعرفهم ، تذكر أيضاً ملابس الفلاحين المهلهلة ، لكن وجوههم ... تلك الوجوه التى تطلعت إليه كانت هى دليله اليهم . أترى الحرمان الدائم من النور فى الزنزانة هو الذى جعل الرجال يبدون على هذا النحو ، بلحى مسترسلة ، وشعر ضارب الأطناب ، ووجوه النسوة شاحبة كوجوه الموتى ؟

صاحت إحدى النسوة :

- أوه . إنه الأب ، ما كنت لأعرفه ابداً .

كانت هى المرأة ، التى منحته فى ذلك اليوم الخيارة ، التى انتزعتها من صدرها . إلى جانبها كان الأعور ، وقد لاح كالشحاذ ، يفتر عن اسنانه الصفراء، وقد خالج ضحكته حنين إلى ماض لن يعود .

منذ ذلك اليوم ، صرح الحرس له بأن يمضى كل صباح ومساء ، مرتين كل يوم، إلى سجن المسيحيين . كانوا يعلمون أن السجناء سيردون لهم كرمهم بعدم إحداث قلاقل فى هذا الوقت . لم يكن عنده خبز ولا نبيذ ، فما استطاع أن يقيم

قداساً ، لكنه على الأقل كان يستطيع أن يرتل معهم «تباركت أبتاه» و «آمنت بك» و«السلام والمرعى» ، كما اتيحت له فرصة الإصغاء لاعترافاتهم .

«لا تثـقن بالأمـــراء أبناء البـشـــر الذين لا خـلاص يجنى من ورائهم ، لســوف تفـيض ارواحـهم وتعـود إلى الأرض ، مبـارك ذلك الذى يتـخـذ من رب يعقوب مغيثا ، الذى يعلق أمله على الرب إلهه الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها» .

عندما كان الراهب يلفظ كلمات داود تلك ، لم يكن حتى سعال واحد يصدر عن أى من المسيحيين ، إنما كانوا يرهفون السمع فى انتباه محموم ، بل كان الحرس يصغون . كان ذلك نص من الكتاب المقدس سبق له أن قرأه مرارا وتكراراً ، لكنه أبداً لم يخـرج من شفتيه بمثل هذا الزخم فى المعنى ، له وللمسيحيين على السواء. بـدت كل كلمـة كمـا لو كـانت تغـوص فى فـؤاده ، بمغزى جديد ، وبثراء ما كان لها قبلا .

«ليتبارك الموتى الذين يفنون فى الرب من الآن فصاعدا ...»

قال الراهب ، بصوت أفعم عزماً متقداً :

- لن يتـخلى الله عنكم أبداً ، فهو من يغسل جراحكم ، ويده هى التى تجفف دمكم ، لن يظـل الله صامتا إلى الأبد .

حينما حل المغيب ، منح المسيحيين سر الكفارة ، ولما كان كرسى الاعتراف ينقصه ، فقد وضع أذنه على الفتحة التى يدفع منها الطعام ، فيما التائب يهمس بخطاياه فى صوت خفيض ، وعلى هذا النحو أصغى للاعتراف ، وبينا يجرى هذا، تكاكأ الآخرون فى أحد الأركان ، محاولين ما وسعهم الإمكان ألا يثقلوا على من يعـتـرف . هنا اسـتطاع الراهب ، للمـرة الأولى منذ أيام توموجى ، أن يضطلع

بمهامه كقس ، جعله ادراك ذلك يضرع في قرارة نفسه أن تستمر مثل هذه الحياة إلى الأبد .

عقب الإصغاء إلى الاعترافات ، التقط الورق الذى حصل عليه من الحرس ، اصطنع لنفسه ريشة من جناح دجاجة سقطت بالفناء ، شرع فى تدوين ذكرياته كلها ، منذ قدومه إلى اليابان . لم يكن يعرف بالطبع ما إذا كان ما يكتبه سيصل يوماً إلى البرتغال ، لكن كان هناك احتمال أن مسيحياً قد يسلمه إلى صينى فى نجازاكى ، وبهذا الأمل الخافت راح يدفع ريشته عبر الصفحات .

في الليل ، اقتعد الأرض فى الظلمة ، مصغياً إلى هديل القمرية وسط الأشجار ، أحس بوجه المسيح يطل منكباً عليه ، كانت العينان الزرقاوان الصافيتان رقيقتين حانيتين . الملامح هادئة ، كان وجهاً تملؤه الثقة ، غمغم «إلهى لن تشيح عنا بعد الآن» . ثبتت عيناه على ذلك المحيا ، عند ذلك بدا الرد كما لو كان يتناهى إلى مسمعه : «لن أتخلى عنك» . أحنى رأسه ، أرهف سمعه ، عله يسمع ذلك الصوت ثانية ، لكن الشيء الوحيد الذى استطاع سماعه كان هديل القمرية . كان الظلام كثيفاً وحالكاً ، غير أن الراهب أحس أن فؤاده تطهر للحظة .

ذات يوم ، سمع صوت الرتاج ، أطل حارس برأسه ، صاح ملقياً بأردية ثقيلة على الأرض :

– بدل ملابسك ، انظر ! لديك ملابس حمراء ، وملابس داخلية من الجيتوكو والقطن ، خذها جميعها ، هى لك .

مضى الحارس موضحاً أن الجيتوكو هو نسيج الملابس التى يرتديها الرهبان البوذيون .

رد الراهب ، وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه الهضيم :

- شكراً جزيلاً ، لكن عليك ، رجاء ، أن تمضى بها ، فلست أريدها .

هز الحارس رأسه كالطفل ، تطلع متشوقاً إلى الثياب ، قال :

- لن تأخذها ؟ لن تأخذها ؟ لكنها هدية من المسئولين بمكتب الحاكم .

قارن ملابسه المنسوجة من القنب بهذه الملابس بالغة الجدة ، وسائل نفسه عما دفع المسئولين إلى اهدائه ملابس كاهن . أتراها بادرة اشفاق على سجين أم هو شرك آخر للإيقاع به ؟ لم يستطع تبين وجه الحقيقة فى الأمر . حدث نفسه بأنه على أية حال وبهذه الملابس بدأت علاقته من الآن فصاعداً بمكتب الحاكم .

استحثه الحارس :

- عجِّل ! عجِّل ! سرعان ما يصل المسئولون إلى هنا .

لم يكن قد خطر بباله أن التحقيق معه سيبدأ بمثل هذه السرعة ، كان فى تخيله للأمر كل يوم قد صور المشهد مأساوياً ، مثلما كان لقاء بيلاطس والمسيح ... الجمع يهدر ، الحيرة تنهب بيلاطس ، المسيح يقف صامتاً . لكن الصوت الوحيد هنا كان صوت الزيزان يدعوه للرقاد ، وسجن المسيحيين مستغرق فى صمته المعتاد بالأصيل .

جلب له الحارس ماء ساخناً ، فاغتسل ، وببطء ارتدى الملابس القطنية ، دافعاً ذراعيه وئيداً عبر الأكمام . لم يكن ملمسها طيباً ، وفى الوقت نفسه استشعر ، بارتعاشة هوان ، أنه بارتدائه هذه الملابس يعقد حلفاً مع مكتب الحاكم .

فى الفناء ، اصطف عدد من المقاعد صفاً واحداً ، فارتمت ظلالها مقعداً وراء الآخر معتمة على الأرض . أرغموه على أن يقعى إلى يمين البوابة ، ويداه على ركبتيه ، راح ينتظر ، وينتظر ، ولما كان هذا الوضع غير مألوف بالنسبة له ، فقد

سال عرقه مدراراً ، جراء الألم الذى اخترم ركبتيه ، لكنه لم يرغب فى أن يطلع المسئولون على عذابه . فكر واجما فى الكيفية التي كان المسيح ينتظر بها حتى ميقات الابتلاء ، مجتهداً أن يصرف ذهنه عن الألم اللافح فى ركبتيه .

سرعان ما تناهى صوت الركب ووقع حوافر الجياد ، انحنى الحرس جميعاً خافضى الرءوس ، ولج الفناء عدد من الساموراى بخطى مزهوة ، وقد استقرت المراوح فى أيديهم . انهمكوا فى الحديث فيما بينهم ، مروا عن كثب ، دون أن يلقى أحدهم نظرة على رودريجيز ، ثم اقتعدوا المقاعد فى فتور . جلب لهم الحرس، ومازالوا على انحنائهم ، أقداحاً من الماء الفاتر ، راحوا يرتشفونها ، على مهل .

استدعى الساموراى الجالس فى أقصى اليمين رجال الحرس ، عقب استراحة قصيرة ، فاقتيد الراهب مجفلاً من ألم ركبتيه ، إلى حيث جلس الرجال الخمسة .

من الأشجار في الخلف ، انبعث صوت الزيزان متواصلاً ، تدفق العرق على فقاره ، كان يعى ، فى حدة ، العيون التي تحدق به من خلفه ، فمن المحقق أن المسيحيين كان يصغون من سجنهم ، فى انتباه ، إلى كل سؤال و رد يتداولان بين محاورين وبينه . الآن أدرك لم اختار إينوى ورجاله عامدين هذا المكان لمساءلته : لقد أرادوا أن يظهروه بمظهر الرعديد المهزوم ، أمام الفلاحين . «المجد للآب وللابن والروح القدس » . أغمض عينيه الغائرتين فى محجريهما ، ارتسمت على محياه ابتسامة مغتصبة ، لكنه أدرك بذاته أن سكينته كانت متصلبة مثلما القناع .

قال الساموراى الجالس إلى أقصى اليسار ، فى رزانة بالغة ، بالبرتغالية :

- يراود القلق حاكم شيكوجو حول ما ينتابكم من حيرة ، فإذا كنتم تواجهون مصاعب ، فنرجو أن تقولوا هذا !

أحنى الراهب رأسه ، في صمت . ثم رفع رأسه ، فالتقت عيناه بعيني العجوز الجالس على المقعد الوسط ، بين المقاعد الخمسة ، تلاعبت بسمة رقيقة على شفتيه، راح يراقب الراهب بفضول طفل أهدى لعبة جديدة ، ثم تلى بيانا :

«الموطن : البرتغال ، الاسم : رودريجيز ، قيل بأنه قدم من ماكاو إلى اليابان . هل هذا صحيح ؟

قال الساموراى الجالس فى أقصى اليمين ، فى صوت أفعم توتراً :

- أيها الأب ، لقد تأثرنا كثيراً بقوة عزمكم ، التي دفعتكم إلى القدوم لهذه الأرض ، من مسيرة آلاف الأميال الحافلة بالمشاق . يقيناً انكم عانيتم الكثير .

وشَت نغمة رقيقة كلماته ، اخترمت هذه الرقة عينها فؤاده ، باعثة الألم .

- ولأننا نعلم هذا ، على وجه الدقة ، فإن واجبنا الذى يقتضينا التحقيق معك هو واجب مؤلم بالنسبة لنا .

لدى سماع كلمات المسئول الموشاة بالرقة ، بدا انفعاله المحموم وكأنه ينطفىء ، فجأة أفعمت قلبه مشاعر عبر عنها بالتساؤل فى قرارة نفسه : «لولا حواجز الوطن والسياسة أما كانت أيدينا تتصافح فنتبادل الحديث ؟ غير أنه شعر فى التو بأنه من الخطورة الاستسلام لمثل هذه النزعة العاطفية .

- أيها الأب ، إننا لا نتجادل بشأن صواب أو خطأ المذهب الذى تعتنقه ، ففى اسبانيا والبرتغال وما ماثل ذلك من بلاد قد يكون صحيحاً . إن السبب الذى دفعنا إلى تجريم اعتناق المسيحية فى اليابان هو أننا ، بعد تفكير عميق وجاد ، وجدنا أن تعاليمها لا قيمة لها بالنسبة لليابان اليوم .

تناول المترجم في التو قلب الموضوع ، واصل العجوز نو الأذنين الضخمتين التحديق في الراهب ، متعاطفاً .

قال الراهب أخيراً ، مبادلاً العجوز ابتساماً بابتسام :

– إن الحقيقة مطلقة وفق مناهجنا في التفكير ، منذ هنيهة اعربتم أيها المسئولون عن تعاطفكم معي ، في غمار العناء الذي اجتزته ، فاه أحدكم بكلمات تقدير رقيقة لرحلتي ، التي اجتزت فيها آلاف الأميال من مياه البحار ، عبر مدة مديدة ، لأصل بلادكم ، لو أننا لم نكن نؤمن بأن الحقيقة مطلقة ، فلم يتحمل كل هذا العدد من المبشرين هذه المشاق ؟ إن ذلك يرجع ، على وجه الدقة ، إلى أن الحقيقة مشاع لكل البلاد ، وللعصور كافة ؛ ومن هنا فإننا نطلق عليها اسم الحقيقة ، ولو أن مذهباً حقيقياً لم يكن حقيقياً في اليابان ، كما هو في البرتغال ، لما كان بمقدورنا أن نصفه بأنه «حقيقي» .

بين الفنية والأخرى ، كانت الكلمات تعوز المترجم ، لكنه بوجه خلا من أي تعبير كوجه الدمية راح ينقل المعنى إلى الساموراي الأربعة الآخرين .

وحده العجوز الجالس أمامه مباشرة واصل الإيماء برأسه ، كأنما في موافقة كاملة مع ما يقوله الراهب ، فيما كان يومىء شرع ببطء يمرر كفه اليسرى فوق كفه اليمنى ، كأنما يحك احداهما بالأخرى .

مضى المترجم ، في تؤده ، يترجم كلمات ساموراي أخر :

– كل الآباء يعكفون على قول الشيء نفسه ، مع ذلك ... فإن شجرة تزدهر في ضرب من التربة قد تذوى إذا ما تغيرت التربة . أما عن شجرة المسيحية فإن أوراقها قد تغدو وارفة الظلال ، وتتناثر زهورها ، في بلد أجنبي ، بينما الأوراق

تنوى في اليابان ، ولا تلوح الزهور للعيون ، ألم تفكر أبداً أيها الأب فى الفارق بين ألوان التربة والاختلاف في الماء ؟

قال الراهب رافعاً صوته :

– لا ينبغي للأوراق أن تنوى ، والزهور يجب أن تبدو للعيان ، أتظنني جاهلاً بالأمر ؟ فى أوربا ، ولندع جانباً ماكاو ، التى أقمت فيها بعض الوقت ، يعرف الناس ما أنجزه المبشرون هنا ، فمن المعروف للجميع أنه حينما سمع كثيرون من ملاك الأراضى بالتبشير ، بلغ عدد المسيحيين ثلاثمائة الف .

دأب العجوز على الإيماء موافقاً ، مدلكاً إحدى يديه بالأخرى ، طوال الوقت . وبينما كان المسئولون الآخرون يصغون بوجوه متوترة إلى كلمات المترجم ، بدا العجوز وحده فى صف الراهب تماماً .

– إذا كانت الاوراق لا تنمو ، والزهور لا تبرعم ، فذلك لأنه لا يوجد سماد .

ما عادت الأذن تسمع صوت الزيزان ، لكن شمس الأصيل ازدادت ضراوة . لف الصمت المسئولين ، كأنما ضاع منهم الكلام . شعر الراهب ، مدركاً أن المسيحيين في السجن خلفه يرهفون السمع لما يقال ، بأنه يكسب أرضاً فى المحاورة ، اصّاعد إحساس سار فاغماً صدره .

قال ، منكساً عينيه ، في هدوء :

– لم بدأتم عملية الإقناع هذه ؟ أيا كان ما أقوله فلن تغيروا قناعاتكم ، وليس فى نيتى كذلك أن أبدل نهج تفكيرى .

شعر ، حتى خلال حديثه ، بدفق فجائى من المشاعر ، كلما عظم شعوره بأن المسيحيين يرقبونه من خلف ، أوغل فى تحويل نفسه إلى بطل ، قال بصوت عال :

– أياً كان ما أقوله ، فسيحل العقاب بساحتى .

ترجم المترجم ، على نحو آلي ، هذه الكلمات للآخرين . جعلت أشعة الشمس ذلك الوجه المسطح يزداد تسطحاً . الآن للمرة الأولى جمدت كف العجوز ، هز رأسه ، تطلع إلى الراهب ، كأنه يهدىء طفلا عابثا ، وقال :

- لن نعاقب الآباء دونما سبب .

- ليست تلك فكرة إينوى ، لو أنك كنت إينوى لأنزلت بى العقاب تواً .

ما إن ترددت هذه الكلمات ، حتى انفجر المسئولون ، كأنما سمعوا طرفة بديعة .

- مم تضحكون ؟

- ايها الأب ، هذا هو إينوى ، حاكم شيكوجو ، إنه هنا امامك .

حدق ذاهلاً فى العجوز ، الذى رد بسذاجة طفل نظرته ، وقد عاود فرك يديه . كيف كان بوسعه أن يتعرف أمراً خيب تماماً ، على هذا النحو ، توقعاته كلها ؟ الرجل الذى وصفه فالينانو بأنه شيطان ، الذى جعل المبشرين يرتدون عن دينهم الواحد إثر الآخر ... كان حتى الآن يتصور وجه هذا الرجل بالغ الشحوب والخبث، لكنه ها هنا أمام عينيه جلس هذا الرجل المتفهم ، الذى بدا طيباً حليماً .

انتصب إينوى حاكم شيكوجو واقفاً ، ببعض العناء ، هامساً بكلمة أو اثنتين للساموراى الجالس إلى جواره ، تبعه المسئولون الآخرون ، دلفوا من الباب الذى قدموا منه ، اختفوا عن الأنظار ، تردد صوت الزيزان ، وبرق نور الأصيل ، وألقت المقاعد المهجورة ظلاً أشد عتمة على الأرض .

دونما سبب ، اضطرم انفعال عارم فى صدر الراهب ، انبثقت الدموع فى عينيه . كان انفعالاً يحاكى ذلك الذى يستشعره المرء عقب تحقيق انجاز عظيم . لف الصمت السجن ، فجأة شرع أحدهم يرتل :

إنّا على دربنا ، إنّا على دربنا ،

إنّا على دربنا إلى معبد الفردوس ،

إلى معبد الفردوس ...

إلى المعبد العظيم ...

استمرت الترتيلة وقتاً طويلاً ، بعد أن زج به الحراس كرة أخرى ، في الزنزانة، عارية الأرض إنه على الأقل لم يجعل الأمر يختلط على المسيحيين ، لم يأت ما من شأنه أن يزعزع يقينهم ، لم يكن سلوكه متسماً بالخور أو الجبن ، على هذا النحو انسابت خواطره .

انسكبت أشعة القمر ، عبر قضبان السجن ، مرقشة الحائط بظلال ، ذكرت الراهب برجل الجليل . كانت العينان منكستين ، الا انهما تتطلعان اليه ، أضفى الراهب على هذا الوجه ، الذي صاغته الظلال ، ملامح ، رسم العينين والفم . راح يفكر بأنه أحسن اليوم صنعاً ، فاشتعل غبطة ، مثلما طفل صغير .

من الفناء ، تصاعدت أصوات صفق الأبواب ، كان الحراس يقومون بجولتهم في السجن ، في كل ليلة كان هذا شأنهم .

اليوم الثالث ، اختار الحرس ثلاثة رجال من بين المسيحيين ، وجعلوهم يحتفرون ثلاث حفر وسط الفناء . كان بوسع الراهب ، من نافذة زنزانته، أن يرى تحت أشعة الشمس الوهاجة شبح الأعور (أما كان اسمه يوحنا؟) ممسكاً بفأسه، مع الآخرين ، ينقل الطين إلى سلة يحتملها بعيداً . تجرد ، جراء الحر ، إلا من قماش يستر ما دون خاصرته ، فالتمع العرق . كالفولاذ ، على ظهره .

سأل أحد رجال الحرس لم يحتفرون هذه الحفرة ، فقيل له إنهم يقيمون مرحاضا .

كان المسيحيون ، عندئذ ، في قرارة الحفرة ، التي تعمقوا في حفرها ، دون أن تخالجهم الشكوك ، يلقون بالطين بعيداً .

في غمار عملية الحفر، داهم شعور بالمرض أحد الرجال، جراء ضربة شمس، صاح به الحراس منتهرين، ضربوه ، لكنه جثم على الأرض، وقد أعجزه النهوض ، حمله يوحنا والمسيحيون الآخرون ، محتضنين اياه ، مضوا به إلى السجن .

انقضت برهة ، وأقبل أحد الحراس يستدعي الراهب ، فقد انقلبت حالة المريض فجأة ، وألح المسيحيون في طلب الراهب . انطلق إلى الزنزانة مسرعاً ، فوجد يوحنا ومونيكا والآخرين يتحلقون المريض ، الذي رقد في العتمة ، وقد اكفهر وجهه ، فغدا في لون الحجر .

– ألا تشرب ؟

سألته مونيكا ، رافعة إلى شفتيه بعض الماء في قدح مكسور ، لكن الماء تقاطر من فمه على حلقه .

عادت فسألته :

– ألمك عظيم ، هل بمقدورك التماسك ؟

حينما أرخى الليل سدوله ، شرع الرجل يكافح لالتقاط انفاسه ، كان من المستحيل القيام بمثل هذا العمل بجسد نال منه الضعف ، لا تمسك عليه الحياة إلا كسر من خبز الذرة . ركع الراهب إلى جواره ، وتأهب لمناولته سر المرضى المقدس ، لكنه حين رشم الصليب ، لفظ المريض نفسه الأخير ، كانت تلك هي النهاية . أصدر الحراس الأمر للمسيحيين بإحراق الجثمان ، لكنهم جميعاً احتجوا، قائلين بأن في هذا العمل ما يخالف التعاليم المسيحية ... حيث تقضي التقاليد المسيحية بدفن الجثمان . هكذا ، دفن الرجل ، في اليوم التالي ، في

الأجمة ، الممتدة خلف السجن .

غمغم أحد المسيحيين ، في حسد :

- هيساجورو يرقد الآن سعيداً ، انتهى عناؤه ، ولج رحاب الراحة الأبدية .

في شرود ، أصغى الآخرون لهذه الكلمات .

ضرب الأصيل أطنابه ، اختلج الهواء الحاد الراكد ، ثم بدأ المطر في الانهمار، أحدث صوتاً كئيباً مكروراً ، فيما قطراته تلطم سقف السجن الخشبي والأجمة التي دفن بها الميت ، جلس الراهب ضاماً ركبتيه إلى صدره ، وواصل التساؤل عن الأمد الذي تعتزم السلطات أن تتركه خلاله يحيا حياة كهذه . لم يكن كل شيء يمضي بصورة متكاملة في حياة السجن هذه فحسب ، وإنما وافق الحرس ، بصورة ضمنية ، على أن يقيم المسيحيون الصلوات ، مادام السجن لا يشهد اضطرابات ، سمحوا للراهب بزيارتهم ، وبكتابة رسائله ، تساءل لم يسمحون بهذا كله ، بدا ذلك امرا بالغ الغرابة .

من خلال قضبان نافذته ، لمح رجلاً يعتمر قلنسوة ، والحرس يقرعونه غاضبين، حالت القلنسوة دون تبين هويته ، لكنه كان من الجلي أنه لا ينتمي للجمع الذي يضمه السجن . بدا وكأنه يتوسل من أجل شيء ما ، لكن الحرس هزوا رءوسهم رافضين ، وطردوه بعيداً ، دون أن يصغوا إلى ما كان يقوله .

- إذا دأبت على هذا فستنال عقابك .

صاح أحد الحرس ، ملوحا بهراوة ضخمة ، فتخاذل ذلك الشخص ، متراجعاً نحو البوابة ، مثل كلب مسعور .

لكنه بعد هنيهة ، عاد إلى الفناء ، ووقف تحت المطر ، وراح يحدق بانتباه فيما أمامه .

عندما أقبل الليل ، تطلع الراهب عبر قضبان زنزانته ، فألفى الرجل ذا القلنسوة لا يزال في موضعه ، منتصباً في عناد ، دونما حركة ، وقد أغرقه المطر. لم يخرج أي من الحرس من الكوخ ، فقد كفوا ، فيما يبدو ، عن محاولة طرده بعيداً .

حينما تطلع الرجل ناحية الراهب ، التقت أعينهما . كان كيشيجيرو تشنج وجهه خوفاً للحظة ، وتراجع إلى الوراء عدة خطوات .

– أبت !

تردد صوته ، مثل نباح كلب :

– أبت ! أصغ إليّ !

أعرض الراهب عن النافذة ، حاول أن يسد مسامعه ، فلا يلجها هذا الصوت ، كيف يسعه أن ينسى تلك الأسماك المقددة والظمأ الحارق يكوي حلقه . لئن حاول أن ينسى هذا الرجل ، لما استطاع أن يطرد من ذاكرته المقت والغضب ، اللذين كمنا في أعماقها .

– أبت ! أبت!

استمر الصوت الضارع متواصلاً ، كصوت طفل يناشد أمه .

– ألا تصغي إليّ يا أبت ! لقد واصلت خداعك ، منذ أنبتني شرعت في كراهيتك وكل المسيحيين ، نعم ، صحيح أني وطئت الأيقونة المقدسة ، كان موكيشي و ايشيزو قويين ، ليس بمقدوري أن أكون قوياً مثلهما .

أقبل الحرس بالعصي ، وقد أعجزهم الاستمرار في احتماله . لاذ كيشيجيرو بالهرب ، صارخاً في هربه .

– لكني لدى ما يدفعني للتوصل ، من يطيء الأيقونة المقدسة يظل لديه ما يقوله ايضاً .

أتظن أني وطئتها مختاراً ؟ لقد التوت اقدامي ألماً . يطالبني الرب بأن اقلد الاقوياء ، رغم أنه خلقني ضعيفاً . أليس هذا مجافياً للمنطق ؟

يسود السكون هنيهة ، تتعالى أصوات غاضبة ، تدوى صرخة ضارعة ، تهمى دموع .

– أبتاه ، ماذا عساني أفعل وأنا الضعيف ؟ لم أسلمك من أجل المال ، وإنما هددني رجال الحكومة .

صاح الحرس ، مطلين برءوسهم من مسكنهم .

– سارع بالابتعاد عن هنا ، لا تستنفد صبرنا !

– أصغ إليّ يا أبت ، لقد أتيت ما لا استطيع التكفير عنه أبداً ، وأنتم يا رجال الحكومة إنني مسيحي ، فأودعوني السجن !

أغمض الراهب عينيه ، شرع يرتل : «آمنت بك» راوده شعور بالبهجة ، لقدرته على أن يتخلى عن هذا الرجل الضارع تحت المطر ، فعلى الرغم من أن المسيح صلى من أجل يهوذا ، إلا أن هذا شنق نفسه في حقل الدم ... أترى المسيح صلى لأجل يهوذا ؟ لم يرد شيء عن هذا في الكتاب المقدس ، وحتى إذا كان قد ورد عنه شيء ، فما كان بوسعه أن يضع نفسه في إطار ذهني يسمح له بإتيان أمر كهذا . على أي حال ، ما مدى امكانية الثقة بهذا الرجل ؟ كان ينشد العفو ، لكن ذلك ربما لا يتجاوز لحظة انفعال عابرة .

شيئاً فشيئاً هدأ صوت كيشيجيرو ، ثم اضمحل . تطلع من خلال

القضبان ، فرأى الحرس يدفعون الرجل بخشونة فى ظهره ، وهم يقتادونه إلى السجن .

مع مقدم الليل ، أقلعت السماء ، ألقيت له قبضة من الأرز وبعض السمك المقدد . كان السمك تعفن بالفعل ، وغدا غير صالح للأكل . تناهت إلى سمعه ، كالمعتاد ، أصوات المسيحيين ، وهم يرتلون الصلوات ، مضى بموافقة الحرس لزيارتهم ، فى سجنهم ، هناك ألفى كيشيجيرو ، ملقى فى أحد الأركان ، وحيدا ، نائياً عن الآخرين . فقد رفض المسيحيون السماح له بالاختلاط بهم .

همسوا للراهب بصوت خفيض :

– حذار من هذا الرجل ، فغالباً ما يستغل رجال الحكومة المرتدين ، ربما يريدون نصب شرك لنا .

كان صحيحاً أن الحاكم يدس أحياناً المسيحيين ، الذين هووا من علياء ايمانهم ، فى صفوف الآخرين لبث القلاقل ، ولدفعهم إلى التخلى عن دينهم ، لربما تلقي كيشيجيرو كرة أخرى المال ليقوم على وجه الدقة بهذه المهمة ، لكنه كان من المستحيل على الراهب أياً كان الأمر أن يولى كيشيجيرو ثقته .

– أبتاه ! أبتاه !

حينما رأى كيشيجيرو أن الراهب أقبل إلى السجن ، راح يناشده كرة أخرى ، من قلب العتمة .

– دعنى أعترف بخطاياى واكفر عنها !

لم يكن من حق الراهب أن يحجب سر التوبة المقدس عن أحد ، فإذا سأله أحد أن يمنحه السر المقدس ، فليس من حقه أن يقبل أو يرفض ، وفق ما تمليه عليه

مشاعره . رفع كفه مباركاً . ردد بتأثير الشعور بالواجب ، الصلاة المفروضة ، وضع أذنه قريباً من الآخر . فيما الانفاس الكريهة تلفح وجهه ، ارتسمت أمام عينيه الأسنان الصفراء والنظرة الماكرة .

توجع كيشيجيرو ، بصوت استطاع المسيحيون الآخرون سماعه :

– اصغ إليّ يا أبت ، إنني مرتد ، لكني لو كنت لقيت حتفي قبل عشر سنوات لمضيت إلى الفردوس مسيحياً طيباً ، ولما لقيت الازدراء الذي يلقاه المرتد . كل ذلك لأني عشت زمن الاضطهاد .. إني لنادم .

تساءل الراهب ، باذلاً أقصى ما في وسعه لاحتمال الخلوف الكريه المنبعث مع أنفاس الآخر :

– لكن أمازلت تؤمن ؟ الغفران . لكني لا استطيع أن أثق بك ، ليس بمقدوري أن أفهم لم جئت هنا .

تقلب كيشيجيرو في موضعه ، متقلقلاً ، وملتقطاً نفساً عميقاً ، راح يبحث عن كلمات للإيضاح . لف الراهب لفح خلوفه وعرقه الكريهين . أيمكن أن يكون المسيح قد أحب وسعى وراء أقذر الرجال هذا ؟ في غور الشر تكمن تلك القوة وذلك البهاء ، اللذان يعزوان للشر عادة ، أما هذا الكيشيجيرو فلم يكن جديراً حتى بأن يدعى شريراً . كان ناحلاً ، قذراً كالخرق المهلهلة ، التي يرتديها . تغلب الراهب على اشمئزازه ، رتل الكلمات الأخيرة من الغفران ، ثم عملاً بالعرف السائد همس: «امض في سلام» . بأقصى سرعة نأى عن خلوف ذلك الفم ولفح رائحة ذلك الجسد . عاد إلى حيث كان المسيحيون .

لا . لا . لقد سعى المسيح وراء ذوي الخرق والروائح الكريهة ، على هذا النحو غرق في التأمل ، مضطجعاً على الأرض ، ومن بين الشخوص التي تلوح عبر

صفحات الكتاب المقدس ، كان من سعى المسيح وراءهم بالحب هم المرأة من كفر ناعوم ، الغارقة في قضية النزف ، والمرأة الزانية ، التي أراد الناس رجمها ، شخوص لا جاذبية فيها ولا جمال . يمكن الحسن والبهاء أن يجتذبا الجميع ، ولكن أيمكن أن يدعى هذا حباً ؟ إن الحب الحق هو تقبل الانسانية حتى حين تكون مهدرة كالخرق والهلاهيل . كان الراهب ملماً بهذا كله ، على الصعيد النظري ، لكنه رغم ذلك ما كان بمقدوره أن يغفر لكيشيجيرو ما أتاه بحقه ، مرة أخرى دنا من وجهه محيا المسيح ، وقد بلله الدمع . حينما تطلعت إليه العينان ، أفعم الراهب خجلاً .

بدأ الابتلاء بالأيقونة . اصطف المسيحيون صفاً واحداً ، مثلما حمير نبذت خارج المدينة . في هذه المرة لم يواجههم رجال الحكومة ذاتهم ، كالمرة السابقة ، وانما جمع من الأتباع الأحدث سناً ، الذين اقتعدوا مقاعد عالية ، وقد عقدوا أيديهم على صدورهم . أمسك الحرس بعصي غليظة ، وعكفوا على المراقبة . اليوم أيضاً تناهى صوت الزيزان متتابع الموجات ، كانت السماء صافية الزرقة ، والهواء طلقاً منعشاً . غير أن الوقت لن يطول ، قبل أن يستأنف الحر مسيرته ، كان الوحيد الذي لم يدفع إلى الفناء هو الراهب نفسه ، ألصق وجهاً تهدلت ملامحه إلى القضبان ، راح يحدق في المشهد ، الذي بدأت وقائعه .

زمجر أحد رجال الحاكم :

– كلما أسرعتم بالانتهاء من الأمر ، عجلنا بخروجكم من هنا ، لا أقول لكم بأن تدهسوا عن اخلاص واقتناع ، فليس هذا إلا اجراء شكلياً . ضعوا أقدامكم فحسب على الشيء ، ولن يضير هذا عقائدكم .

واصل رجال الحكومة التأكيد ، في حديثهم للفلاحين ، على أن دهس الأيقونة لا يعدو أن يكون أمراً شكلياً ، كل ما عليك أن تفعله هو أن تضع قدمك عليها ،

لئن فعلت هذا ، فلن يهتم أحد بما تؤمن به ، وبمقتضى أوامر الحاكم طلب منكم أن تضعوا اقدامكم بخفة على الأيقونة ، وفى الحال يطلق سراحكم .

أصغى الرجال والنساء الأربعة إلى هذه الخطبة الطنانة بأوجه تجردت من أى تعبير . أما الراهب فلم يستطع ، وقد ألصق وجهه بالقضبان ، أن يخمن ما هم بسبيله . أما الوجوه المسيحية الأربعة الهضيمة ، التى نتأت عظام وجناتها ، واكتست لوناً شبحياً ، رهيباً ، جراء الحرمان من أشعة الشمس ... فقد بدت كوجوه الدمى ، متجردة من إرادتها الذاتية .

حان وقت ما طال انتظاره ، أدرك ذلك تمام الإدراك ، لكنه لم يستطع الشعور بالاقتناع بأن مصيــــره ومصائر هؤلاء المسيحيين سيتقرر سريعاً ، على هذا النحو . كان رجال الحاكم يحادثون المسيحيين ، وكأنهم يسألونهم معروفاً . هزّ الفلاحون رءوسهم رافضين . فتراجع رجال الحــــاكم بوجوه دمغها القلق هوناً إلى الوراء .

وضع الحارس على الأرض ، بين الفلاحين والمقاعد العالية ، التى اقتعدها رجال الحاكم ، الأيقونة ملتفة بقطعة من القماش ، ثم ارتدوا إلى أماكنهم .

من واقع القائمة ، تلا أحد رجال الحاكم الأسماء :

- ايكيتسو كيجيما ، كويو - نو - أورا ، توياى .

اقتعد المسيحيون الأربعة الأرض هناك شاردين . غلب الانفعال أحد رجال الحرس ، فهوى بهراوته على الرجل الجالس فى أقصى اليسار ، لكنه لم يتحرك من موضعه . تلقى دفعة أو دفعتين فى ظهره ، فسقط ، وجثم على الأرض ، لكنه لم يبذل جهداً للنهوض من سقطته .

- كويو - نو - أورا ، شوكيشى .

هزّ الأعور رأسه رافضاً ، مرتين أو ثلاثا ، لكم بدا طفولياً .

- كويو - نو - أورا ، هارو .

أحنت المرأة ، التي وهبت الراهب ثمرة الخيار ، ظهرها ، ونكست رأسها ، فدفعها الحرس ، وهي في وضعها هذا ، لكنها لم ترفع عينيها .

أخيرا ، نودى العجوز ميتاشي ، لكنه بدوره تشبث بالأرض ، ولم يتحرك من موضعه .

لكن رجال الحاكم لم يرفعوا صوتاً غاضباً ، لم يوجهوا توبيخاً ، حتى ليظن المرء انهم كانوا يتوقعون هذا ، منذ البداية ، من الطريقة التي ظلوا بها مقتعدين مقاعدهم العالية ، متبادلين الهمس فيما بينهم . ثم نهضوا فجأة ، فانسحبوا إلى كوخ الحرس .

تصالبت الشمس فوق السجن ، انهالت أشعتها بسيطاها على المسيحيين الاربعة ، الذين خلفهم رجال الحاكم وراءهم . ألقت شخصوهم المقعدة على الأرض ظلالاً سوداء ، فيما شرعت الزيزان مجدداً تصدر صوتها ، لكأنما أرادت أن تحرك الهواء ، الذي صقلته الأشعة ، فحاكى البلور ، بل شرع الحرس والمسيحيون يتبادلون الحديث والفكاهات ، لكأنما تبددت علاقة القائم بالتحقيق والمحقق معه ، التي كانت تربطهم ، لكن أحد رجال الحاكم نادى من الكوخ ، آمراً بإعادة الجميع إلى السجن ، عدا الأعور شوكيشى .

أرخى الراهب يديه عن القضبان ، التي كان متشبثا بها ، اقتعد الأرض لم يكن يدرى ما الذى سيعقب ذلك ، لكن اليوم انقضى بسلام ، على أى حال ، أفعمته هذه الفكرة بشعور عميق بالراحة . إذا كان اليوم قد انقضى

على نحو طيب ففي هذا الكفاية ، دع أمر الغد لخالق الغد ، لو أنه بقي على قيد الحياة في الغد ..

- أليس إلقاؤها بعيداً أمراً مؤسفاً ؟

قالها صوت مجهول ، ورد الآخر :

- بلى ، هو أمر مؤسف تماماً .

لم يستطع تخمين ما يدور حوله الحوار ، لكن الريح ، على أى حال ، حملت إليه هذا الحديث الودود بين الحارس والأعور ، وثبت ذبابة من خلال القضبان ، شرعت تطن حول رأس الراهب ، كان دفيف اجنحتها يوشك أن يدفعه للنعاس .

فجأة ، انطلق أحدهم يعدو عبر الفناء ، ترددت هسهسة صوت حاد ، ثم صوت سقوط حينما تعلق الراهب بالقضبان ، متشبثاً ، كان أحد رجال الحاكم يعيد سيفه المرهف ، الوهاج ، إلى غمده ، فقد انتهى الإعدام ، كانت جثة الأعور منبطحة على الأرض . أمسكها أحد الحراس من القدمين ، شرع في جرها ببطء إلى الحفرة ، التي احتفرها المسيحيون . خضب الدم القاتم ، الذى شخبته ، الأرض ، في كل مكان ، كأنه زنار رداء .

انبعثت من السجن فجأة صرخة امرأة ثاقبة ، تواصل صوتها في تردده كأنها ترتل أنشودة ، ثم اضمحل ، معانقاً الصمت ، وشاب الهواء هدوء قاتل . وحدهما كفا الراهب القابضتان على القضبان ارتجفتا ، كأنما تشنجتا ، وضربهما فالج .

- انظروا إلى الجثة !

صاح رجل آخر من رجال الحاكم ، مواجهاً السجن ، مولياً دبره إلى الراهب .

- هذا ما يحدث حين تستخفون بالحياة ، إنه أمر شاق ، لكنكم كلما عجلتم

بالانتهاء منه ، عجلنا بإخراجكم من هنا ، لا آمركم بأن تدهسوا الأيقونة عن اقتناع ، لئن اجتزتم هذا الإجراء الشكلى ، فلن يضير ذلك عقائدكم .

اقتاد جارس عقب ذلك كيشيجيرو ، صارخاً به ، لم يكن يستره إلا قماش يحيط خاصرته ، وقد أخذته الرعدة ، من قمة رأسه حتى أطراف قدميه . وقف أمام رجال الحاكم ، انحنى مراراً وتكراراً ، ثم رفع قدمه الناحلة المشوهة ، ودهس الأيقونة بها .

- اسرع ! غادر المكان !

صرخ به أحد رجال الحاكم ، مشيراً إلى البوابة . اختفى كيشيجيرو عن الأنظار ، متعثراً فى عدوه . لم يلتفت مرة واحدة إلى الكوخ ، الذى سجن به الراهب . لكن ما أتاه لم يعد يعنى الراهب كثيراً .

انصبت أشعة الشمس الذهبية باهرة ، على الفناء الرحب ، وامتد تحت سياطها ، التى لا ترحم ، سواد الدم ، الذى خلفته جثة الأعور .

واصلت الزيزان انشاد اغنيتها الجافة الخشنة ، كذى قبل . سكن الهواء ، كعهدها قبلا ، واصلت ذبابة طنينها ، حول وجه الراهب . لم يطرأ تغير فى الدنيا . لقى رجل حتفه ، وما من تغير طرأ .

ارتعد الراهب ، متشبثاً بالقضبان ، غمغم :

- هكذا وصل الأمر إلى هذا ... هكذا ، وصل الأمر إلى هذا ...

غير أن حيرته لم تنبع من الواقعة ، التى حدثت بمثل هذه السرعة . كان سكون الفناء هو ما عجز عن فهمه ، صوت الزيزان ، دفيف أجنحة الذباب . لقى رجل حتفه ، غير أن الدنيا واصلت مسيرتها ؟ لم تلتزم الصمت ؟ ها هنا لقى هذا الأعور حتفه ... ومن أجلك أنت ، ينبغى أن تعرف . سكون الظهيرة هذا ، طنين

الذباب ، هذا الشيء المجنون ، هذا الأمر الضاري . وانت تشيح بوجهك . كأنما الأمر لا يعنيك ، هذا ... هذا ما لا أستطيع معه صبراً .

كيري لا يسون . يارب ارحم ! تمتمت شفتاه المرتعدتان هنيهة بالصلاة ، لكن الكلمات نوت هاربة من شفتيه . إلهي لا ترقلني ! لا ترقلني على هذا النحو الملتبس ! هذه صلاة ؟ ظننت طويلاً أن الصلاة ترتل ثناء عليك ، وتمجيداً لك ، لكني حين أتوجه بالخطاب اليك يبدو لي أني لا آتي إلا تجديفا . أفي يوم حتفي أيضاً ستمضي الدنيا بلا هوادة على هذا النحو في مسيرتها لا مبالية مثلما هي الآن ؟ بعد مصرعي أتصدر الزيزان أصواتها ويدف الذباب بأجنحته جالبا النعاس إلى العيون ؟ أتراني أنشد بطولة على هذا النحو ؟ مع ذلك أتراني أتطلع إلى الشهادة الحقيقية المحتجبة عن العيون أو أنشد موتا مجيداً فحسب ؟ أتراني أرغب في التكريم والتوسل باسمي وأن أدعى قديسا ؟

ضم ركبتيه إلى صدره ، وقد اقتعد الأرض ، محدقا فيما أمامه «وعند الظهر خيم الظلام على الأرض كلها حتى الساعة الثالثة» حينما مات ذلك الرجل ، على الصليب ، صدرت من قلب المعبد ثلاث نفخات في البوق ، احداها طويلة ، والأخرى قصيرة ، ثم ثالثة طويلة كرة أخرى ، كانت ترتيبات الاحتفال بالفصح قد بدأت . رقي الكاهن الأعظم في أردية زرقاء ضافية درج المعبد ، وقف أمام المذبح، الذي تمددت عليه الأضحية ، نفخ في النفير . في هذا الوقت كانت السماء قد أعتمت ، خبت الشمس خلف السحب « واحتجبت الشمس وانشق حجاب الهيكل من الوسط» . كانت تلك هي صورة الاستشهاد ، التي أمعن التفكير فيها طويلا ، لكن استشهاد اولئك الفلاحين - الذي وقع أمام ناظريه - ما كان أشد تعاسته ، بائساً كان ، مثلما الأكواخ التي يلجئون إليها ، كالخرق التي يستترون بها .

الفصل السابع

في المساء بعد خمسة أيام ، التقى بإينوى، سيد شيكوجو، كرة أخرى . كان النهار ساكنا، سكون القبر، لكن حفيفا رقيقا كان الآن يند عن أوراق الشجر، في همس نشط مع نسيم المساء . هكذا وجد نفسه وجها لوجه مع إينوى، لم يصحبه احد الا المترجم، حينما اقبل الراهب مع الحراس ، كان الآخر يرتشف في بطء الماء الفاتر، مداعبا قدحا ضخما.

ـ أخشى أنى أهملتك، كان لدى عمل في هيرادو.

قالها إينوى، ولا يزال ممسكا بالقدح بيديه كلتيهما، فيما عيناه الواسعتان ترمقان الراهب بفضول.

أمر الحاكم بأن يجلب ماء فاتر للقس، وابتسامة تتلاعب طوال الوقت على شفتيه، ثم شرع يتحدث وئيدا عن رحلته الى هيرادو.

ـ ينبغي ان تذهب الى هيرادو ، إذا اتيحت لك الفرصة أيها الأب!

بدا في حديثه، كما لو كان الراهب رجلا مطلق السراح.

ـ هناك قلعة ماتسورا، تعلو جبلا يواجه خليجا هادئا.

ـ نعم سمعت من رعاة كانوا في هيرادو انها مدينة جميلة.

ـ لا اقول إنها جميلة ، أوثر القول بأنها مثيرة للاهتمام.

هز إينوى رأسه ، خلال حديثه ، واضاف:

ـ حينما اشاهد تلك المدينة، افكر في رواية سمعتها، منذ زمن طويل، انها عن

تاكينوبو ماتسورا، وهـو حاكم قديـم لهيرادو ، كانت لـه اربع خليلات دائمـات الشـجار ، بدافع الغيرة ، وحينمـا عجز عن احتمـال المـزيد ، انتـهى به الأمر الى طردهــن جميعـا من قلعـتـه ، لكن ربمـا لم تـكن تلك رواية مناسبـة لأذني راهب متبتل .

ـ لابد ان ماتسورا هذا كان رجلا بالغ الحكمة.

شـعـر الراهـب بالاسـترخـاء في حـديثه ، حيث أن إينوى غدا صريحـا على هذا النحو .

– أتعني ذلك حقا ؟ اذا كنت تقصده فإن السعادة تغمرني ، ذلك ان هيرادو بل يابانتا بأسرها ، في الحقيقة ، تحاكي ماتسورا.

دار سيد شيكوجو بالقدح حول يده، واستطرد:

– اسبانيا ، البرتغـال ، هولندا، انجلترا، ومـا الى ذلك من النسـاء ، يواصلن الهمس الغيور بقصص الاغتياب، في أذن الرجل المسمى باليابان.

بدأ الراهب يدرك ما يرمي اليه إينوى ، فيما كان يصـغي الى المترجم . كثيرا ما سمع في جوار ماكاو كيف ان الدول البروتستانتية، مثل انجلترا وهولندا، والدول الكاثوليكية، كأسبانيا والبرتغال ، قد اقبلت الى اليابان، وفي غمار غيرتها مما احرزته الأخريات من تقدم، رددت الافتراءات على مسامع اليابانيين احداها عن الأخرى، واقدم الدعاة كذلك، بدافع التنافس، في وقت من الأوقات، على فرض حظر التعامل مع البريطانيين والهولنديين على اتباعهم.

ـ إذا كنت ايها الأب تعتقد ان ماتسورا كان حكيما، فلعلك تدرك عن يقين ان تجريم اليابان لاعتناق المسيحية لم يكن عملا أخرق، أو بلا مبرر.

خلال حديثه، لم تنسـحب ملامح البسـمة عن هاتين الوجنتين اللحيمـتين

المتورمتين، استقرت العينان عامدتين على محيا الراهب، كان لونهما البني غريبا بالنسبة لعيني ياباني، بينما لم يبد اثر للون الابيض في فوديه (ترى أكانا مصبوغين؟).

عن عمد، اختار الراهب مسيرة مرحة للحديث، قال:

- تعلم كنيستنا ان لكل رجل امرأته، فإذا كان للرجل زوجة شرعية، فإني اتساءل عما إذا كان من الحكمة ان يثقل كاهله باتخاذ خليلات، ماذا لو ان اليابان اختارت زوجة شرعية واحدة من بين النساء الأربع؟

- تعني بهذه الزوجة الشرعية البرتغال؟

- أوه لا، اني اعني كنيستنا.

عندما مرر المترجم، دونما انفعال، هذا الرد ، تهدلت ملامح إينوى، ندت عنه ضحكة عالية، كانت ضحكة صاخبة، بالنظر الى تقدمه في العمر، لكن العينين اللتين استقرتا على الراهب لم تفصحا عن اى انفعال، لم تكن عيناه ضاحكتين.

- ألا تظن أيها الأب، انه من الافضل لهذا الرجل المدعو باليابان ان يكف عن اتخاذ نساء من بلاد اجنبية، وان يرتبط بامرأة ولدت معه، على الأرض نفسها، امرأة تتعاطف مع نهجه في التفكير.

كان الراهب يعرف حق المعرفة، ما يعنيه إينوى بالمرأة الاجنبية، ولكن بما ان الآخر مضى بالمحاورة على هذا النحو، الذي يبدو في مظهره عابثا، فقد احس بأن عليه بدوره ان يواصل الحوار على النحو ذاته، قال:

- في رحاب الكنيسة لا تهم جنسية المرأة، المهم هو اخلاصها لزوجها.

- هذا واضح، ومع ذلك إذا كان حب الزوجة والزوج يقوم على العاطفة فحسب لما قاسى احد مما ندعوه بالحب الملحاح لامرأة قبيحة.

أوما الحاكم راضيا ، كأنما اغتبط بطريقته فى ادارة دفة الحديث ، واضاف :

– هناك رجال فى هذه الدنيا يضيقون ذرعا بالعاطفة الملحاحة، التى تبديها نحوهم نساء قبيحات.

– أترى في الدعوة فرضا للحب؟

– أجل ، هذا ما أعنيه.. من وجهة نظرنا، وان لم يرق لك هذا التعبير، فدعنى اطرح الامر على هذا النحو، إننا نصف المرأة التى لا تلد اطفالا بأنها عقيم، ونعتقد ان مثل هذه المرأة ليست جديرة بأن تكون زوجة.

ـ إذا لم يكن مذهبنا قد أحرز تقدما هنا فى اليابان، فإن التبعة لا تقع على كاهل الكنيسة، مثلما ينتزع الزوج من أحضان زوجته.

التزم المترجم الصمت برهة ، باحثا عن الكلمات ، كان ذلك هو الوقت الذى ينبغى ان تنساب فيه صلاة المساء محلقة من سجن المسيحيين ، أما اليوم فلم يتردد صوت . فجأة ، انتقلت خواطر الراهب الى حكم الاعدام، الذى نفذ قبل خمسة ايام ، سكون حاكى هذه اللحظة لكنه فى الحقيقة كان مفارقا، كان ذلك فى الوقت الذى انبطحت فيه جثة الأعور، على الارض تحت وهج الشمس، والحارس يمسك بإحدى ساقيها فى برود ، ويجرها الى الحفرة ، تاركا اثرا من دم ، كأنه خط على الارض تبعته مقشة ، راح الراهب يفكر، أمن الممكن ان يكون العجوز الوادع الجالس امامه هو الذى أصدر الأمر بهذا الاعدام .

قال سيد شيكوجو:

– أيها الأب ، لا يبدو انك والدعاة الآخرين تعرفون اليابان .

رد الراهب:

- وأنت ايها الحاكم المبجل لا يبدو انك تعرف المسيحية.

هنا انبعثا معا ضاحكين، قال إينوي:

- ومع ذلك ، فقبل ثلاثين عاما، حينما كنت وكيلا للحاكم في جامو، لطالما سمعت طالبا النصح من الآباء.

- واذن؟

- إن اسباب معارضتي للمسيحية تختلف عن أسباب الناس بعامة، فلم يحدث ابدا ان نظرت الى المسيحية بحسبانها عقيدة تحمل الشر.

أصغى المترجم الى هذه الكلمات، وقد ارتسمت الدهشة على ملامحه، فيما كان يتلجلج باحثا عن الكلمات، واصل العجوز النظر الى القدح بين كفيه، بما بقي من ثمالة الماء الفاتر، مبتسما طوال الوقت:

- اريدك ايها الأب ان تمعن التفكير في امرين، حدثك العجوز الماثل بين يديك عنهما، أولهما ان العاطفة الملحاحة التي تكنها امرأة قبيحة هي وقر لا يحتمل بالنسبة للرجل، والآخر ان المرأة العقيم لا ينبغي ان تصبح زوجة.

حينما انبعث الحاكم واقفا، انحنى المترجم، حتى اوشكت رأسه ان تمس الارض وقد تضامت يداه امامه، مد الحارس ، مرتبكا ، نعلي الحاكم، فوضع سيد شيكوجو قدميه متئدا فيهما ، واختفى ، دون ان يلتفت وراءه مرة واحدة، في عتمة الفناء . عند باب الكوخ ، احتشد سرب من البعوض، وفي الخارج تردد صهيل جواد.

ضرب الليل اطنابه، همى المطر ناعما، محدثا صوتا يحاكي رمي الحصى وسط الأشجار، عند مؤخرة الكوخ، أسلم الراهب رأسه للأرض الصلدة، أصغى

لصوت المطر، فكر في الرجل الذي تعرض مثله للابتلاء. في بكرة السابع من ابريل، دفعوا هذا الرجل، ناحل البدن، عبر المنحدر، في بيت المقدس . امتدت اشعة شمس الفجر، فيما وراء البحر الميت، تغسل الأماد الجبلية بالنضار، واصلت عين سلوان خريرها، شادية بنغم جديد ابدا، لم يمنحه احد فرصة التقاط انفاسه، بعد ان اعلن الكهنة والشيوخ الحكم، كان من الضروري الحصول على موافقة بيلاطس الوالي الروماني . كان بيلاطس في مخيمه، بأكتاف المدينة، غير بعيد عن المعبد، قد سمع بالنبأ ، ومن المحتم انه كان في الانتظار الآن.

كان الراهب، منذ طفولته يستحضر بذكراته تفاصيل صباح السابع من ابريل الحاسم ذاك كلها. هذا الرجل ناحل البدن، كان قنوته شامخة الكمال، اغمضت عيناه، شأن الضحايا كافة، باستسلام أسيف، فيما كان يتطلع عاتبا الى الجمع، الذي راح يسخر منه، ويبصق عليه . وسط هذا الجمع وقف يهوذا، لم يتبعه يهوذا؟ أترى دفعته شهوة الانتقام لمشاهدة هلاك الرجل الذي باعه؟ ايا ما كان الأمر، فإن هذه الحالة تشبه وضعه الراهن، لقد اسلمه كيشيجيرو ، كما سبق ليهوذا ان اسلم المسيح، وشأن المسيح فإن قضاته هم اقوياء هذا العالم، نعم، ان مصيره ومصير المسيح يشبه احدهما الآخر، ازاء هذه الفكرة في ذلك اليوم المطير، تدفق في صدره شعور بالبهجة يخز البدن، تلك هي بهجة المسيحي الذي يستطيب حقيقة التوحد مع ابن الرب.

من ناحية اخرى، فهو لم يذق ايا من ضروب العذاب البدني الذي تحمله المسيح ، وقد جعلته هذه الفكرة يستشعر القلق . في قصر بيلاطس، شد وثاق ذلك الرجل الى دعامة، ارتفاعها قامتان، لينزل به العقاب بسوط رقش المعدن اطرافه، اخترمت المسامير يديه. لكن الراهب منذ زج به في هذا السجن لم يمسه رجال الحاكم ولا الحراس، لم يعرف ان كانت تلك خطة عمد اليها إينوي ام لا،

لكنه احس انه ليس من قبيل المستحيل ان تنصرم الايام احدها بعد الآخر، دون ان يمس بدنه اذى..

ما سبب هذا ؟ لطالما سمع عن عدد لا يحصى من الدعاة اسروا فى هذه البلاد، وأخضعوا لألوان تستعصي على الوصف من العذاب والايذاء ، هناك نافارو الذى تعرض الشي حيا. ثمة كارفالو وجابرييل، اللذين ألقيا مرارا وتكرارا الي المياه الكبريتية فى أونزين ، وهناك اولئك الدعاة الذين قطع عنهم الزاد فى سجن أومورا، حتى هلكوا جوعا، مع ذلك، هوذا فى السجن يسمح له بالصلاة، يؤذن له بالحديث مع المسيحيين، يتناول طعاما، إن لم يكن وفيرا تماما فإنه يقدم فى وجبات ثلاث يوميا، ورجال الحاكم، بل والحاكم نفسه، يكتفون بالشكليات، حين يقبلون الي السجن ، وهم ابعد الناس عن الضراوة . ترى ما الذى يرمون اليه؟

راح الراهب يفكر فى ايام كوخ توموجي الخوالى، وكيف كان يتبادل وجاريى الحديث ، عن العذاب، وما إذا كان بمقدورهما احتماله، إذا ما قدر لهما ان يقعا تحت طائلته . كان الشيء الوحيد الذى يمكن القيام به هو الضراعة للعناية الالهية، لكنه فى ذلك الوقت كان يحس فى قرارة قلبه بأن بمقدوره النضال، حتى يلقى حتفه، وحينما كان يضرب ضائعا فى الجبال كذلك، كان يتمسك بالقناعة القوية بأنه ما سقط فى قبضة شانئيه ، فإنهم سينزلون بساحته العذاب، وأحس (أترى كان ذلك من عوارض الانفعال العنيف؟) بأنه ايا كان العذاب الذى سيتعرض له فسيكون بمقدوره ان يكظم مايحسه ، ويحتمل ما يحل به.

أما الآن ، فقد وهن عزمه هونا. انتصب واقفا وهز رأسه، ساءل نفسه عما اذا

كانت شجاعته قد بدأت في التداعي . ترى هل يرجع ذلك الى الحياة التي يعيشها الآن ؟ ثم فجأة ومن سويداء قلبه هتف به هاتف: «ذلك لأن حياتك ها هنا رضية».

منذ قدومه الى اليابان ، لم تتح له الفرصة عمليا، الا في هذا السجن، ليحيا حياة الزاهد، كان في توموجي معتكفا بمخبئه ، ثم عقب ذلك لم يتح له الاتصال بأي من الفلاحين ، اللهم الا بكيشيجيرو، منذ مجيئه الى هنا فحسب، اتيحت له فرصة معايشة الناس، وقضاء الشطر ، الأعظم من النهار في الصلاة والتأمل، دون معاناة تباريح السغب.

كانت الايام جميعها تكر ، هنا في هدوء ، مثلما ينساب الرمل عبر ساعة رملية ، تدريجيا ، تراخت حدة مشاعره ، التي كانت متوترة ومتصلبة ، من قبل ، كالفولاذ ، بدأ الشعور يراوده بأن التعذيب والمعاناة البدنية، اللذين أمن بحتميتهما ، قد لا يحلان بساحته في النهاية . كان مسلك رجال الحاكم والحرس معه مسلكا كريما ، وواصل الحاكم ريان المحيا حواره الطريف عن هيرادو. الآن ، وقد عرف امواه السلام والأمن الفاترة أتراه سيمتشق ثانية العزيمة كي يضرب عبر هاتيك الجبال ويمتكف في كوخ ؟

ثم خطر له، وللمرة الأولى ان المسئولين اليابانيين وحاكمهم لم يخطوا خطوة واحدة لأنهم، شأن عنكبوت يرقب طريدة وقعت في شباكه ، كانوا ينتظرون ان ينال الوهن من روحه. استعاد بمرارة ذكرى ضحكة سيد شيكوجو ، وكيف كان العجوز يفرك يديه سرورا، الآن استطاع ان يدرك بوضوح لم بدرت هذه الحركة من الحاكم .

تصدرت هذا التصور حقيقة انه منذ ذلك الحين وحتى الأمس زيدت

الوجبتان اليوميتان الى ثلاث وجبات، كان الحراس الطيبون الذين يجهلون حقيقة الأمر، يضحكون ، حتى لتبدو نواجذهم، قائلين:

- أما تأكل؟ تلك هي إرادة الحاكم ، لا يعامل على هذا النحو كثير من المساجين.

كان الراهب ينظر الى الوعاء الخشبي، بما حوى من أرز لم يعرف كمال النضج طريقا اليه ومن اسماك مقددة، يهز رأسه رافضا، يرجو الحرس ان يقدموه للمسيحيين، راح الذباب يطن فوق الأرز، حين غربت الشمس، جلب الحرس حشيتين من القش . نعم بدأ الراهب يدرك شيئا فشيئا ما وراء هذا التغير في المعاملة ، فقد يعني ان يوم العذاب غدا وشيكا. لسوف يكون بدنه المتراخي اكثر وهنا في مقاومته للألم.. كان رجال الحاكم باستخدام هذه الأساليب المخاتلة يمتصون ببطء حيويته، ثم فجأة يحل العذاب، يقينا كانت تلك خطتهم.

الحفرة ..

انبعثت في ذاكرته الكلمة التي سمعها من المترجم في يوم أسره بالجزيرة، لئن كان فيريرا قد صبأ، فذلك لأنه - مثلما يحدث له الآن - لقى معاملة طيبة في أول الأمر، ثم حين طرأ الضعف على روحه وجسده انزل هذا العذاب بساحته، على حين غرة ، وبغير ذلك فإنه لايخطر ببال احد ان مثل هذا الرجل العظيم يتخلى فجأة عن عقيدته . نعم اى اساليب شيطانية تلك التى تفتقت عنها قريحتهم !

تأمل كلمات كزافييه القائلة: « اليابانيون اكثر الشعوب التى صادفناها، حتى الآن، ذكاء» وضحك ساخرا..

كان قد رفض الطعام الذى قدم له، ولم يمس الحشيتين ليلا.

يقينا ان ذلك تناهى إلى مسامع رجال الحاكم والحاكم، عن طريق الحرس. غير ان أحدا لم ينبس بكلمة، استهجان، فاستحال عليه ان يعرف ما إذا كانوا قد ادركوا ان خططهم منيت بالإخفاق أم لم يتوصلوا الى ذلك.

ذات صباح، بعد عشرة ايام من زيارة الحاكم، أيقظته ضجة فى فناء السجن. الصق وجهه بقضبان النافذة ، شاهد ساموراى يستحث ثلاثة من المسيحيين الى خارج السجن. فى غبش البكرة ، راح الحرس يدفعونهم دفعا، وقد شد وثاقهم معا ، كانت المرأة التى منحت الراهب ثمرة الخيار هى الأخيرة فى الركب.

صاحوا وهم يمرون بسجن الراهب:

- أبت، نحن ماضون للسخرة.

مد يديه عبر القضبان، باركهم واحدا إثر الأخر، راشما الصليب، لم تكد اصابعه تمس جبين مونيكا فيما كانت، بشجن وابتسامة طفل، ترفع وجهها نحوه.

ساد السكون والهدوء طوال النهار، ارتفعت الحرارة تدريجيا فى الظهيرة، اخترقت اشعة الشمس الضارية بلا رحمة قضبان السجن، سأل الحرس الذين جلبوا له الطعام عن موعد عودة المسيحيين الثلاثة ، قيل له انهم سيعودون فى المساء إذا ما انتهى العمل . كان العمل جاريا على قدم وساق ، فى عدد من المعابد فى نجازاكى ، تنفيذا لأوامر الحاكم ، وكانت الحاجة ماسة بلا انتهاء للعمال.

- الليلة أورابون، يا أبت، اظنك تعرف ماهو أورابون؟

اوضح الحارس انه فى ليلة أورابون يعلق اهالى نجازاكى القناديل، على طنف

دورهم، ويوقدون بداخلها الشموع، اجاب الراهب بقوله انه في الغرب يحتفل الناس بعيد هولوين، حيث يقومون بما يشبه ذلك.

من البعيد، تناهت الى سمعه اصوات اطفال صارخة. ارهف السمع، فحملت الريح الكلمات الى اذنيه:

ايها القنديل وداعا ، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشل يدك.

ايها القنديل وداعا، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشل يدك.

وشّت نغمة اسيانة ، على نحو ما ، انشودة الأطفال متباعدة المقاطع.

رحلت الشمس ، على اغصان اللاجرسترمية الهندية استقرت الزيزان ، ورقشت المساء بصوتها . حتى هذا الصوت سرعان ما خبا في هدأة المساء . لكن المسيحيين الثلاثة لم يرجعوا . فيما كان يتبلغ لقيمات عشائه ، تناهت الى سمعه اصوات الأطفال الواهنة ، من البعيد . في عماء الليل ، تدفقت اشعة القمر وهاجة ، عبر القضبان ، فأيقظته من نومه . انتهى المهرجان ، كانت الظلمة عميقة ، غليظة ، لكنه لم يدر ما اذا كان المسيحيون قد رجعوا ام لا.

ايقظه الحرس في الصباح ، حدثوه بأن عليه ان يرتدي ملابسه ، وان يخرج توا.

تساءل :

- ما الامر؟

ردا على سؤاله عن وجهتهم اجاب الحرس بأنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا ،

غير ان هذه الساعة المبكرة قد اختيرت لتجنب حشود الفضوليين ، الذين سيتجمعون حتما للفرجة على الراهب المسيحى الأجنبى.

كان ثلاثة ساموراى فى انتظاره، تقدموا بدورهم بالايضاح القائل بأن تلك هى رغبة الحاكم. تحلقوا أسيرهم، وانطلقوا معه، فى صمت على درب الصباح.

لاحت دور التجار المسقوفة بالقش والفخار وأبوابها الموصدة في غبش الفجر كأنها جمع مكتئب من الكهول. على جانبي الطريق امتدت حقول الأرز، تكومت الأحطاب في كل مكان، اختلط عبق الغابات المنعش برائحة الغيمة، فغم خيشومي الراهب. كانت عملية شق طرق نجازاكي لاتزال تسير على قدم وساق، وفي ظلال الأبنية الجديدة ، رقد الشحاذون ومن لا مأوى لهم، وقد التحفوا حصرا من القش.

- تلك ، اذن، هى رحلتك الأولى فى نجازاكى؟

قالها احد الساموراى ضاحكا، واضاف :

- تلال كثيرة، أليس كذلك؟

كانت هناك حقا تلال كثيرة. على بعضها تكاكأت أكواخ من الفخار. صاح ديك، معلنا مقدم الفجر، تحت طنف الدور تناثرت القناديل ذابلة النور على الارض، كبقايا وليمة البارحة.

عند قدمي التل، امتد البحر، محاصرا شبه الجزيرة بكاملها، ترامي الى البعيد متخما بالأعشاب كبحيرة حليبية، حين انقشعت غيمة الصباح مسفرة عن سماء صافية، فلاحت فى خلفية المشهد تلال خفيضة.

امتدت قرب البحر أجمة صنوبر، حيث مدت عدة سلال، عكف عليها اربعة او خمسة ساموراى تخففوا من نعالهم، أقعوا يلتهمون شيئا لا يبين ، وبينما

اشداقهم تلـوك ما تقذفـه اليها ايديهم ، تجمدت اعينهـم المتوهـجة فضـولا على الراهب.

اسدل ستار ابيض في قلب الأجمة، وضعت مقاعد عالية هناك، اشار احد الساموراى إلى مقعد فيها، طلب من الراهب ان يقتعده. جاءت هذه الإيماءة بالنسبة للراهب ، الذى توقع تحقيقا ، بمثابة مفاجأة.

ترامت اطراف الرمال الرمادية، ممتدة فى رفق، حتى الخليج الصغير، فيما كانت السماء الملبدة بالغيوم تكسو البحر الكسول حلة كستنائية. اعاد الصوت المكرور للأمواج، وهى تلطم الشاطىء ، الى ذاكرة الراهب موت موكيشى و ايشيزو. فى ذلك اليوم ايضا، همى المطر الملتف بالغمام، دونما انقطاع على البحر، فى ذلك اليوم حلقت النوارس فوق الأوتاد، كان البحر صامتا، لكأنما شفه الاعياء، واصل الرب بدوره التزام الصمت لم يكن لديه حل بعد لهذه المشكلة، التى ما انفكت تعاوده.

ـ أيها الأب!

رن صوت ، أتيا من خلفه، التفت ، فرأى رجلا مسترسل الشعر حتى العنق يبتسم، فيما راح يتلاعب بمروحة ، كان ممتلئا ، مربع الوجه.

ـ آه .

كان الصوت، لا الوجه، هو الذى ذكر الراهب بأن هذا الرجل هو المترجم، الذى تبادل الحديث، معه فى الكوخ بالجزيرة.

ـ أتذكر ؟ كم يوما انقضى منذ لقائنا الاخير؟ ولكن يا لها من سعادة استشعرها فى لقياك! السجن الذى تقيم به الآن مشيد حديثا، وليس بالمكان الذى يسوء المرء ان يحيا فيه ، وقبل ان يبنى كان الدعاة المسيحيون يقيمون

دائمـــا في سجن ســوزوداً ، بـأومـورا ، وفي الأيام المطيــرة يتســرب المــاء ، وحين تعصــف الرياح ، تتخلل السجن ، لقد امضى الســجناء وقتـا عصــبيا حقا هناك.

ـ هل يأتى الحاكم عما قريب؟

قالها الراهب مغيرا الموضوع، ليوقف هذر الآخر، لكن هذا الرفيق لطم راحته بمروحته وواصل الحديث:

ـ أوه ، لا، لن يأتي سيد شيكوجو. لكن ما رأيك فيه؟ ما رأيك في الحاكم؟

ـ لقيت معاملة طيبة منه، تقدم الى ثلاث وجبات كل يوم، بل وقد زودت بغطاء للفراش، وقد بدأت اعتقد ان جسمي قد خذل فؤادى ، بسبب هذا الضرب من الحياة، واظن ان ذلك هو ما تنتظرون.

أشاح المترجم بوجهه شاردا، وقال :

ـ الحق ان ديوان الحاكم اعد خطة لتدبير لقاء بينك وبين شخص سيصل الى هنا عما قريب، هو برتغالي الأصل مثلك، واعتقد ان حبل الحديث سيتصل مديدا بينكما.

تطلع الراهب، واجمـا، الى عينى المترجم الصفراوين، لاحظ ان الابتسامة انجابت سريعا عن وجهه. خطر بباله اسم فيريرا. هكذا الأمر إذن. لقد جلب هؤلاء الرفاق اخيرا فيريرا، كوسيلة لجعله يرتد عن دينه. لم يستشعر منذ وقت طويل كراهية على وجه التقريب نحوه، لا شيء ، اللهم الا الاشفاق، الذى يستشعره امرؤ فى مكانة أسمى، حيال رجل تعس، لكن الآن وقد حلت لحظة المواجهة، فيما يبدو، تملكت رهبة جامحة ناصيته . خفق قلبه مضطربا ، لم يدر هو نفسه لم يحدث هذا كله.

تساءل المترجم:

ـ أتعلم من هو هذا الشخص ؟

ـ أجل ، أعلم.

ـ هذا جلي.

تلاعبت ابتسامة خافتة، على شفتي المترجم، حرك مروحته، وهو يتطلع، في جدية، الى الشاطىء الرمادي وهناك في البعيد لاحت شخوص ضئيلة لجمع من الرجال يدنو.

ـ هو بين هذا الجمع.

حرص الراهب على كتمان عذابه، لكنه انتصب واقفا، دونما وعي، دنا الجمع وئيدا من أجمة الصنوبر، الآن غدا بوسعه ان يتعرف الاشخاص، كان اثنان من الساموراي ، وقد بدا انهما يقومان بالحراسة، يتصدران الجمع، خلفهما سار ثلاثة سجناء، تشدهم معا سلسلة واحدة، ثم لاحت مونيكا مترنحة، متعثرة ، خلف السجناء الثلاثة لمح الراهب شبح رفيقه جاربي.

صاح المترجم، وقد بدت عليه دلائل الظفر :

ـ أها ! أهذا ما كنت تتوقع ايها الأب ؟

سافرت عينا الراهب تتبعان جاربي، تلتقطان التفاصيل جميعها. ربما لم يكن جاربي يعلم هوية من ينتظره بالأجمة. كان ـ شأنه ـ يرتدي ملابس الفلاحين، تنتأ ساقاه اسفل ركبتيه منها ببشرتهما البيضاء، على نحو يثير الارتباك، سار وراء الآخرين لاهثا، يغذ السير، بقدر ما يطيق .

لم يكن من قبيل المفاجأة للراهب ان يجد صديقه القديم بين يدي شانئيه،

فمنذ هبطا شاطىء تومـوجي، كانا مقتنعين بأن يوم اعتقالهما أت، بلا ريب .

كان ما اراد الراهب معرفته هو الموضع الذى اعتقل به، وفيم يفكر الآن، وهو فى قبضة أسريه.

قال:

- أود ان احادث جاربى.

- تود محادثته. أليس كذلك؟ لكن النهار طويل ومازلنا فى الصباح، ما من دا ع يدعونا للتعجل.

تثاءب المترجم عامدا، كأنما ليطيل عذاب الراهب، شرع فى ترطيب وجهه بتحريك الهواء بمروحته.

- بالمناسبة ، أيها الأب ، حين تحدثت معك بالجزيرة كان ثمة شيء نسيت سؤالك عنه؟

حدثنى، هذه الرحمة التى يتشدق المسيحيون بها .. ما هى؟

غمغم الراهب، محدقا فى الآخر بعينيه الغائرتين:

- إنك تحاكى القط الذى يلهو بجرذ صغير، إنها لذة خسيسة تلك التى تستشعرها فى الحديث معى ، على هذا النحو ، خبرنى اين اعتقلتم جاربى وكيف ؟

- ليس من المباح لنا ان نكشف للسجناء، دونما سبب ، اسرار عمل ديوان الحاكم.

فجأة، توقف الركب فوق الرمال الكابية، وشرع رجال الحاكم ينزلون كومة من حشيات القش، كانت على ظهر إحدى الدواب، فى مؤخرة الركب.

تطلع المترجم الى المشهد، بابتسامة تشي بالبهجة وقال:

- آه، أتعرف فيم سيستخدمون هذه الحشايا ؟

بدأ رجال الحاكم يلفون الحشايا حول اجسام السجناء، تركوا جاربي وحده وشأنه، سرعان ما حاكى السجناء، بروسهم المطلة من الحشايا ديدان السلال.

- الآن سيوضعون في زوارق وينقلون الى المياه الضحلة، والماء في هذا الخليج عميق حتى لتعجز عن رؤية القاع.

كانت المياه وئيدة الحركة تحدث الصوت المكرور ذاته، فيما هي تمضغ رمال الشاطيء ، غطت السحب صفحة السماء الرصاصية الدانية من البحر والبر.

- انظر هو ذا احد رجال الحاكم يحادث الأب جاربي.

بدا المترجم وكأنه يترنم بأغنيه، او هكذا كان طربه يوحي، اضاف:

- ترى ماذا عساه يقول؟ ربما كان يقول شيئا من هذا القبيل: إذا كنت أبا ملء جوانحك الرحمة المسيحية ، فعليك ان تشفق على هؤلاء التعساء الثلاثة، الذين تجلببوا القش، لا ينبغي ان تقف مكتوف اليدين، وتكتفي بمشاهدتهم ، وهم يلقون حتفهم!

الآن أدرك الراهب حق الإدراك ما الذي يرمي اليه المترجم، هز غضب جامح كيانه كله، كدفقة ريح عاصفة. لو انه لم يكن راهبا لما تورع عن لي عنق هذا الرجل.

- أما الحاكم فيقول إنه إذا ارتد الأب جاربي ، طيب، باختصار لن يلقى الثلاثة مصرعهم، على اية حال فقد صبأ هؤلاء التعساء الثلاثة بالفعل، أمس، في ديوان الحاكم ، دهسوا الأيقونة.

دهسوا.. ومع ذلك فهذه القسوة.. حتى الآن.

جمجم الراهب فى حديثه، لكن الكلمات خانته.

- ليست هذه الاسماك الصغيرة هي طريدتنا، ففي الجزر القريبة من الساحل لايزال هناك الكثيرون من الفلاحين، الذين أبقوا على ولائهم للمسيحية، ونحن نسعى وراء ارتداد الآباء ليكونوا قدوة لهؤلاء.

«هبنا حياة نقية، امنح الأمان لخطانا».

حاول الراهب ان يرتل «السلام لك يامريم المقدسة يانجمة البحر» لكن كلمات الصلاة لم تنبعث ، وإنما قفزت الى ذاكرته في موضعها صورة الزيزان، ترقش المساء بصوتها، قابعة على اغصان اللاجرسترمية الهندية، خط ا لدم المسود، الممتد على ارض الفناء، تحت الشمس الوهاجة.

لقد هبط هذه الأرض ليهب حياته للناس، لكن اليابانيين هم الذين يهبون حياته له الآن واحدا إثر الآخر، ماذا عساه يصنع؟ كان ممكنا، بحسب المذهب الذى تفقه فيه، حتى الآن ، ان يصدر حكما على اعمال بعينها، فيبين الصواب من الخطأ، والخبيث من الطيب، لو ان جاربى هز رأسه رافضا، فإن هؤلاء المسيحيين الثلاثة سيشقون طريقهم الى قاع الخليج، كالأحجار، أما إذا استسلم لأفانين اغواء رجال الحاكم، فلن يعنى ذلك إلا التخلى عن عمره بأسره، ماذا عساه يصنع؟

- أى رد يطرحه هذا الجاربى؟ قيل لى إن اول شيء في المسيحية هو الرحمة وإن الله هو الرحمة ذاتها.. اوه.. انظر الى القارب!

فجأة.. تعثر اثنان من المسيحيين الثلاثة في اندفاعهما الى الامام، لكأنما كانا يلوذان بالهرب، لكن رجال الحاكم كانوا يدفعونهما دفعا، فيهرعان الى الانطلاق ، حتى سقطا ، وتمددا على الرمل، وحدها مونيكا، التى بدت كإحدى

نيدان السلال، وقفت تحدق فى البحر الساجي. انبعث فى فؤاد الراهب عبق ثمرة الخيار، التى انتزعتها من صدرها، ومنحتها اياه، وتردد صوتها الضاحك :

- ارتد! ارتد!

صرخ بالكلمات فى قرارة فؤاده متاديا جاريبى، الذى كان يصغى لرجال الحاكم، وقد أولى ظهره للراهب.

- ارتد ! لابد ان ترتد!

احس بالعرق ينحدر على جبينه، اغمض عينيه، ثم اشاح بوجهه عن المشهد، الذى سيصافع ناظريه حين يفتحهما، وان ادرك اى جبن شاب ما صدر عنه.

صامت انت، حتى فى هذه اللحظة تلتزم الصمت؟ حين فتح عينيه، كانت نيدان السلال الثلاث تواجه الزورق، ورجال الحاكم يدفعونها فى خشونة دفعا.

سأرتد سأرتد، ارتفعت الكلمات حتى بلغت حلقه، لكنه كظم انفعاله، حاول منع نفسه من التلفظ بها عاليا، الآن تبع اثنان من رجال الحاكم، يحملان الحراب السجناء، رفعا اطراف ثوبيهما حتى الخصر، استقلا الزورق، الذى رجرجته الأمواج، فيما كان ينطلق مغادرا الشاطىء..

ثمة وقت لايزال ! لا تنسب هذا كله لجاريبى و لى.. هذه المسئولية عليك وحدك الاضطلاع بها. لكن جاريبى كان قد اندفع، واثبا الى الامام، رافعا كلتا يديه، انطلق مغادرا الشاطىء الى رحاب البحر، ناثرا سحبا من الرذاذ، دنا من القارب وصاح بشىء لا يبين ، مواصلا السباحة.

- إلهى استجب دعانا..!

لم يشب الصوت عتاب ، ولا غضب ، خبا ، فيما الرأس الفاحم يغوص ، وسط الأمواج.

ـ إلهي استجب دعانا!

انحنى رجلا الحاكم على حافة القارب، اغربا في الضحك، حتى بدت نواجذهما، راح احدهما ينقل رمحه من يد لأخرى، ساخرا من جاربي، الذي حاول الاقتراب من القارب، لكن الرأس ضاع في اللجة، وخمد الصوت، عاود الظهور فجأة، كمزقة من نفاية سوداء، تلطمه الامواج وهن الصوت عن ذي قبل، لكنه تردد هاتفا بشيء لا يبين مرارا وتكرارا.

نصب احد رجال الحاكم مسيحيا عند حافة القارب، دفعه بزج الرمح دفعة قوية، فسقط الشبح الملتف بالقش، كالدمية، في البحر، واحتجب عن العيان، اخيرا ابتلع البحر مونيكا. وحده رأس جاربي، الذي لاح كمزقة صوف وسط حطام زورق، طفا لبعض الوقت فوق سطح الماء، حتى غطته الأمواج القادمة من القارب.

ـ أمر رهيب. ايا كان عدد المرات التي يشاهده فيها المرء، يظل رهيبا.

قالها المترجم، منبعثا من مقعده، ثم فجأة انثنى مرتدا الى الراهب.. والمقت يتوهج في عينيه، اضاف:

ـ ايها الأب هل فكرت في العذاب الذي اوقعته بالعديد من الفلاحين، بسبب حلم يراودك، لا شيء الا لأنك تريد فرض حلمك الأناني على اليابان.. تطلع هو ذا الدم يتدفق من جديد، دم اولئك الجهلاء، يتدفق مرة اخرى.

استطرد، وكأنما يرغب في بصق الكلمات:

ـ كان جاربي على الأقل طاهرا، اما انت.. انت.. أوهى الناس ارادة، لست جديرا بلقب أب.

أيها القنديل، وداعا، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشل يدك.

ايها القنديل ، وداعا، وداعا، وداعا.

إذا حصبته بحجر تشل يدك.

انتهى المهرجان لكن الاطفال كانوا فى البعيد لا يزالون على غنائهم، كانوا فى دور نجازاكى يهبون الشحاذين وابناء السبيل الآن ألوانا شتى من الخضر، ترحما على ارواح الموتى، كانت اللاجرسترمية الهندية كعهدها أبدا ، والزيزان عاكفة على انشودتها اليومية، لكن هذه الاصوات راحت تتخافت شيئا فشيئا.

ـ كيف حاله؟

قالها احد رجال الحاكم، خلال جولته اليومية.

ـ كعهده يقتعد الأرض، محدقا في الحائط سحابة نهاره.

رد الحارس خافض الصوت، مشيرا الى الزنزانة، التى أودع الراهب بها.

تطلع رجل الحاكم، عبر النافذة ذات القضبان، الى الراهب الجالس على الأرض، تحت اشعة الشمس، موليا النافذة ظهره، كان يقضى يومه مواجها الجدار، يحدق في البحر المظلم، ورأس جاربى الفاحم الصغير طاف على سطحه، الآن يغوص المسيحيون الثلاثة كالفقاعات الى القاع، ملتفين بالقش.

حين يهز رأسه، ينجاب ما يرى، لكنه حين يغمض عينيه، يعود المشهد، عنيدا ليرتسم خلف اجفانه كرة اخرى.

قال المترجم، صادرا عن مقعده: «انت اوهى الناس ارادة، لست جديرا بلقب أب» عجز عن انقاذ المسيحيين، لم يستطع ، شأن جاربى ان ينطلق وراءهم حتى تغيبه الامواج، كان اشفاقه عليهم جارفا، لكن الاشفاق ليس عملا، لم يكن حبا، فالاشفاق ، شأن العاطفة لا يعدو ان يكون نوعا من الغريزة،

لقد تعلم هذا قديما، فيما كان يقتعد مقاعد الدرس الصلبة بالمعهد الديني، لكنها في ذلك الوقت لم تكن إلا معرفة نظرية .

تطلع! تطلع! هو ذا الدم يتدفق لأجلك، دم الفلاحين يتدفق منسكبا على الأرض.

ثم استمر خيط الدم متطاولا ، في حديقة السجن، التي عمها لهب الشمس. كان المترجم قد قال إن حلم المبشرين الأناني هو الذي سفح خيط الدم هذا، وقارن سيد شيكوجو هذا الحلم الأناني بالحب المفرط تبديه امرأة قبيحة، كان قد قال إن الحب الملحاح الذي تبديه هو وقر، لا طاقة للرجل باحتماله.

- مع ذلك..

تماوج امام عينيه محيا المترجم الباسم، ووجه سيد شيكوجو الريان، الممتلىء، أحدهما فوق الآخر.

- لقد هبطت هذه الأرض لتهب حياتك لهم، لكن الحق انهم يهبون حياتهم من اجلك.

تعمق الصوت الضاحك المفعم ازدراء، ناغرا في جراح الراهب كالإبرة، هز رأسه في وهن .لا ، ليس من اجله حاق الهلاك طويلا بالفلاحين ، لقد اختاروا الموت لأنفسهم. لأن الايمان ملأ قلوبهم ، لكن رده ما عاد يملك القوة ليلائم جراحه.

على هذا النحو، كرت الايام، احدها في اعقاب الآخر، بين اغصان اللاجرسترمية الهندية، تواصل صوت الزيزان الخالي من الحياة ، كعهده ابدا.

- كيف حاله؟

قالها احد رجال الحاكم، خلال جولته اليومية.

- كعهده ، يفتعد الارض، محدقا في الحائط ، سحابة نهاره.

رد الحارس ، خافض الصوت، مشيرا الى الزنزانة.

- لدى تعليمات من الحاكم بالحضور، وتفقد مجرى الأمور، كل شيء يمضى وفق خطة سيد شيكوجو.

ابعد رجل الحاكم وجهه عن القضبان، تلاعبت ابتسامة رضا على شفتيه، كتلك التي تعلو شفتي طبيب يتفقد تقدم احد مرضاه.

الأن انتهى العيد، ساد الهدوء شوارع نجازاكي ، في نهاية الشهر يحتفل بيوم لصلاة الشكر، ويقدم كبار رجال القرى من نجازاكي واورا كامي صناديق ملأى بالأرز الناضج مبكرا الى ديوان الحاكم. في الفاتح من اغسطس، يتعين على كل مسئول ومندوب بكل مدينة ان يمثل ، مرتديا ملابس التشريف البيضاء.. بين يدى الحاكم .

طلع البدر وئيدا ، ردت البومة والقمرية احداهما على الأخرى، في الأجمة الواقعة وراء السجن، في انشودة الليل . عاليا فوق الأشجار سبح البدر، في حمرة مخيفة، فيما هو ينسل من قلب السحب السوداء ، ثم يلجها كرة اخرى، تهامس الكهول متخوفين من ان العام المقبل قد تأتي ريحه بما لا تشتهي سفن الناس .

الثالث عشر من أغسطس ، في دور نجازاكي أعد الناس سلاطة السمك ، وطهوا البطاطا الحلوة والبقول ، في هذا اليوم قدم العاملون بالديوان للحاكم اسماكاً وكعكاً ، فقدم لهم بدوره الساكي والحساء والزلابية .

عكف الحرس ، في تلك الليلة ، على الساكي ، حتى وقت متأخر ، تناهت الأصوات الخشنة ورنين قرع الكئوس دائبة إلى مسامع الراهب ، أقعى على

الأرض ، وكتفاه المتهدلتان تستحمان فى سنا القمر الفضى ، الذى تخلل قضبان سجنه ، انعكس ظل شبحه الذاوى على الحائط ، بين الحين والآخر ، ينتفض لسماع سقسقة صرصور ، وسط الأشجار ، أغمض عينيه الغائرتين فى محجريهما ، مستطيبا الظلمة التى ضمته فى رحابها ، فى هذا الليل ، حين يغرق من يحبهم جميعا فى نوم عميق ، اخترم صدره ألم غامر ، فكر فى ليل آخر ، نعم، اقتعد رجل أرض حديقة الجسمانية الكابية ، التى تشربت حر النهار كله ، وحيداً، بعيداً عن حوارييه الراقدين ، وقال : «روحى حزينة حتى الموت» وغدا عرقه يحاكى قطرات من دم . كان ذلك هو المحيا الذى تراءى للراهب ، أطل مئات المرات فى أحلامه ، ولكن لم يبد الوجه العارق المضنى نائيا الآن فحسب ؟ لكنه الليلة ركز كل انتباهه على التعبير ، الذى وسم الوجنتين الناحلتين .

أترى استشعر ذلك الرجل بدوره فى تلك الليلة صمت الرب ؟ أترى ارتجف بدوره فرقاً ؟ لم يكن راغباً فى الظن بذلك ، مع ذلك فقد انبعثت هذه الفكرة ناهضة فى صدره ، حاول ألا يصغى للصوت الذى يحدثه بذلك ، هز رأسه مهتاجاً مرتين أو ثلاثاً ، يا للبحر المطير الذى غاص فيه موكيشى و ايشيزو موثقين إلى الأوتاد ! ياللبحر الذى تابع جاريى القارب الصغير على صفحته وجالد مهتاجاً ثم خبا طافياً مثلما قطعة خشب يحملها التيار ! يا للبحر الذى هوت فيه تلك الأجساد الملتفة بالقش ! امتد هذا البحر ، بلا انتهاء ملتفاً بالحزن . طوال هذا الوقت ، التزم الرب فوق البحر صمته ، الذى لا هوادة فيه «إيلى ، إيلى لماذا أرقلتنى!» مع ذكرى البحر الكابى ، اندلعت هذه الكلمات فجأة فى وعيه «إيلى ، إيلى ، لماذا أرقلتنى!» إنها الساعة الثالثة من يوم الجمعة ذاك ، ومن فوق الصليب دوى ذلك الصوت نحو سماء تحجبت بالظلمة ، كان الراهب يعتقد دائماً أن هذه الكلمات صلاة رتلها الرجل ، لا أنها انبعثت ازاء صمت الرب .

أثمة إله حقاً لئن لم يكن هناك إله ، فكم يغدو مضحكاً النحو الذى أنفق عليه نصف عمره ، يجوب بحاراً ممتدة بلا انتهاء ، ليهبط هذه الجزيرة العصية ، ويغرس البذور الصغيرة فى تربتها ، لكم تصبح مضحكة حياة الأعور ، الذى لقى حتفه ، فيما الزيزان تطلق العنان لصوتها ، فى وضح النهار ، كم تغدو مثيرة للسخرية حياة جاربى ، الذى سبح وراء المسيحيين ، الممددين على سطح ذلك القارب الصغير فى مواجهة الحائط ، ندت عن الراهب ضحكة عالية .

- ما الذى يثير ضحكك أيها الأب ؟

خمدت أصوات الحرس المنكرة فى سكرهم ، دنا أحدهم ، من الباب ، وطرح هذا السؤال .

رغم ذلك ، فقد استرد الراهب روعه ، حينما اشرقت الشمس ، واخترقت أشعتها العفية قضبان السجن ، فأفلت من سطوة الوحدة ، التى سيطرت عليه البارحة ، ومدد قدميه ، وأراح رأسه على الجدار ، وتمتم بكلمات من المزامير ، فى صوت أسيف : «ثابت قلبى يا الله ثابت قلبى . أغنى وأرنم . استيقظ يامجدى ، استيقظى يا رباب ويا عود أنا استيقظ سحراً» . فى طفولته ، كانت هذه الكلمات تنبعث فى ذهنه دائماً ، حين يرقب الريح فى هبوبها ، عبر زرقة السماء ، وخلل الأشجار ، لكن ذلك كان فى زمان لم يكن الرب فيه موضوعاً للخوف والاضطراب ، وإنما كان دانياً من الأرض يهب التناغم وفرحة الحياة .

بين الحين والآخر ، كان رجال الحاكم والحرس يتطلعون إليه عبر القضبان ، وقد توهجت عيونهم فضولاً ، لكن الراهب ما عاد يكترث ، حتى بالنظر إليهم ، وفى بعض الأحيان كان يأبى أن يمس الوجبات الثلاث التى تقدم له .

الآن أقبل شهر سبتمبر ، ذات أصيل طلق النسيم ، زاره المترجم ، على غير انتظار .

تحدث بطريقته المألوفة ، التي تداخلها روح المداعبة ، متلاعباً بمروحته ، وقال :

– أود أن تقابل اليوم شخصاً ، لا ، لا ، ليس الحاكم ، ولا من رجاله ، وإنما هو شخص أحسب أنك ترغب في لقائه .

ظل الراهب عاكفاً على صمته ، تجمدت عيناه الخاليتان من الحياة على الآخر ، كان يذكر بجلاء الكلمات التي قالها له ، في مناسبة أخرى ، لكنه لم يستشعر كرهاً له ، ولا غضباً منه ، كان أكثر اعياء ، حتى من أن يستشعر الكره .

مضى المترجم يثرثر ، بابتسامته الباهتة المعهودة :

– سمعت أنك لا تتناول الكثير من الطعام ، من الأفضل ألا تمعن التفكير على هذا النحو .

حينما فرغ من قوله هذا ، أمال رأسه ، وراح يذرع المكان جيئة وذهابا .

قال :

– ما الذي يعطل هذه المحفة ، لقد حان وقت وصولها ؟

لكن الراهب كان قد فقد اهتمامه بهوية من سيقابل ، لم يبد منه إلا جمود عينيه على شبح المترجم ، الذي لا ينى عن الحركة .

– الآن تناهت أصوات حملة المحفة ، عند مدخل السجن ، كانوا يحاورون المترجم .

- أيها الأب ، هيا بنا !

انتصب الرهب واقفاً ، في صمت ، شق طريقه إلى الخارج ، فاترا ، وبُدا أعملت أشعة الشمس أسنتها في عينيه ، احمرت حدقتاه واصفرتا اعياء ، وقف حاملا المحفة ، لا يسترهما إلا قماش ، التف حول خصريهما ، يحملان المحفة على كاهليهما ، ويحدقان في وجوم نحوه ، غمغما فيما كان الراهب يدلف إلى المحفة :

- لكم هو ثقيل ! كم هو ضخم !

اسدلوا ستار المحفة ، لتجنب فضول المارة ، وحتى لا يرى شيئا مما يجرى في الطريق . تناهت إلى مسامعه أنواع الأصوات كافة ، صراخ الأطفال ، رنين أجراس الرهبان ، أصوات البناء بين الحين والآخر ، كانت أشعة الشمس الغاربة تخترق الستار ، وتطلم وجهه ، لكن الصوت لم يكن هو وحده الذي ينسل إليه ، وإنما أضيفت إليه أنواع الروائح كافة ، منسابة إلى حيث كان ، عبق الأشجار والطين ، رائحة الدجاج ، الأبقار ، الجياد ، أغمض عينيه هنيهة ، ضم إلى صدره حياة أولئك الناس الذين يحيطون به ، ثم فجأة غمر صدره توق إلى محادثة الآخرين ، إلى أن يكون كالآخرين ، أن يسمع حديث الآخرين ، أن يلقي بنفسه في خضم حياة الناس ، نعم ، لقد ضاق بهذا ذرعا .. هذا الاختباء في كوخ الحطاب هذا ، ذلك التجوال عبر الجبال في ذعر من مطارديه ، رؤية المسيحيين يذبحون كل يوم أمام عينيه ، لم تعد لديه بعد القوة لاحتمال هذا كله مع ذلك .. «ملء قلبك ، بجماع روحك ، بكل عقلك ، بكل قوتك ..» كان هذا هو القسم الذي أقسمه ، ليصبح راهباً ، من أجل أمر واحد ، أمر واحد فحسب .

دلته الأصوات وحدها على أنهم ولجوا المدينة ، قبل ذلك كان ما يتناهى إلى سمعه هو قوقأة الدجاج وخوار الأبقار ، أما الآن فقد اخترق الستار وقع الاقدام

التي لا تكل ، وتناهى إلى حيث جلس ... أصوات الباعة والمشترين الصارخة ، انطلاق العربات وأصوات المتشاجرين الصاكة .

لم يكن يعنيه الآن إلى أين يمضي أو من سيقابل ، فكائناً من كان ، ستطرح الأسئلة المعهودة بعينها ، ويتواصل التحقيق ذاته عن عمله . وما التحقيق إلا أمر شكلي ، فشأن هيردوس حين واجه المسيح ، لم يكن الرد ليعني هؤلاء الناس في كثير أو قليل ، ثم لماذا رفض سيد شيكوجو قتله وحده وتركه على قيد الحياة دون أن يطلق سراحه ؟ أياً كان الأمر فإن خوض هذا العباب يبعث الضيق ، ويثير القلق .

- ها قد وصلنا .

أزاح المترجم العرق بكفه ، أوقف المحفة ، ورفع السجف . دلف الراهب إلى الخارج ، فلطمت أشعة الشمس الغاربة عينيه فجأة ، رأى رجال الحرس الذين لازموه في السجن أمامه ، لربما صحبوا هذا الرجل خوفاً من انطلاقه ومحاولته الهرب خلال الرحلة .

انتصبت ، في أعلى درج ، بوابة شامخة ، ومن خلفها لاح معبد صغير ، يسبح في سنا الشمس الراحلة ، وقد لاحت خلفه جبال كستنائية وصخور تترامى إلى البعيد ... داخل المعبد الموحش المعتم تبختر ديكان أو ثلاثة ، في صلف ، عبر أرجاء المكان ، أقبل كاهن شاب متطلعاً إلى الراهب بعينين تتألقان مقتاً ، احتجب عن الأنظار ، دون أن تند عنه كلمة تحية .. حتى للمترجم .

- لا يكن الكهنة لكم وداً ، أنتم معشر الآباء .

قالها المترجم ، وقد وشى صوته ببهجة ، فيما كان يعتقد الأرض ، ويتطلع إلى الحديقة . وأضاف :

– ليس الجلوس وحيداً طيلة النهار ، محدقاً في الحائط ، وغارقاً في التفكير
إلا سما تتجرعه ، كف عن هذا الهراء ، فلا جدوى من إثارة متاعب لا طائل من
ورائها !

لكن الراهب ، كالمعتاد ، لم يعر مضايقاته انتباهاً ، كان ماشتت تفكيره
هو أنه اشتم فجأة في هذا المعبد ، الذى يحترق فيه البخور ، وتفوح منه رائحة
الطعام الياباني ، رائحة غريبة ، وسط هذا كله ، كانت رائحة لحم .. اللحم
الذى أجبر طويلاً على الاقلاع عن تناوله ، فاكتسب حساسية بالغة نحو أدنى
رائحة له .

تناهى إلى سمعه ، من بعيد ، وقع أقدام ، كان أحدهم يدنو ، عبر
الممر الممتد .

– هل خمنت من الذى ستلقاه ؟

تصلب محيا الراهب ، هذه المرة ، للمرة الأولى أومأ مجيباً ، أحس بركبتيه
تخونانه ، ترتعدان نعم ، كان يعلم أنه يوماً ما لابد له أن يلتقى هذا الرجل ، لكنه
لم يظن أبداً أنهما سيلتقيان في مكان كهذا .

– طيب ، حان وقت لقائكما .

قالها المترجم ، بفرحة طاغية ، وهو يرقب شبح الراهب المرتجف ، أضاف :

– هذا هو أمر الحاكم .

– إينوى ؟

– نعم ، والآخر ، يود أن يراك بدوره .

أقبل فيريرا ، في أعقاب كاهن عجوز ، مرتديا كيمونو أسود اللون ، منكس
العينين ، كان الراهب القصير اللحيم ، الذى نفخ صدره منتعشاً ، في ثقة ،

يؤكد اذعان فيريرا ، الذى أوتى بسطة فى البدن ، وبدا بعينيه المنكستين كحيوان هائل ، يقاد من خطمه بحبل .

وقف الكاهن العجوز ، نظر فيريرا إلى الراهب ، دون أن تند عنه كلمة واحدة ، اقتعد الأرض فى ركن أنارته الشمس الغاربة .. ساد صمت قاتل هنيهة .

- أبت !

أخيراً ، تحدث رودريجيز ، بصوت راعش :

- أبت !

رفع فيريرا رأسه المنكس قليلاً ، وألقى نظرة على الراهب ، للحظة لمعت فى عينيه ابتسامة مستخزية وشعور عابر بالعار ، لكنه ما لبث أن حدج الآخر ، عامداً فى تحد ، بعينين لا تعرفان الانكسار .

ضاع الكلام من رودريجيز ، حينما استرد وعيه بكونه راهباً يبتلى بهذا الموقف ، كان قلبه أكثر امتلاء بالمشاعر من أن يفوه بكلمة ، لسوف يبدو كل ما يقوله كأنما هو كذاب يطلقه ، كما لم يرغب فى إثارة الفضول المتعالى ، الذى كان الكاهن والمترجم يرقبان به الموقف ، وهما يحدجانه بنظرات لا ترحم . ضاربت فى صدره المشاعر كافة ... الاكتئاب ، الغضب ، الحزن ، والمقت . صاح فى أعماق فؤاده : لم يبدو محياك على هذا النحو ؟ لست هنا لإدانتك ، لست هنا لأصدر حكماً عليك ، فلست بأفضل منك . حاول أن يغتصب ابتسامة ، لكن دمعة شهباء همت ، بدلا من الابتسامة ، من عينيه ، وتحدرت وئيدة على خده .

- أبتاه ، بعد العهد بلقائنا ...

أخيراً شق صوت رودريجيز الراجف الصمت ، كان يدرك والكلمات على شفتيه لاتزال ، كم تبدو حمقاء بلا معنى ، لكن شيئا آخر لم يخطر بباله .

مع ذلك ، ظل فيريرا على صمته ، وبسمة التحدى تتلاعب على شفتيه ، كان الراهب يدرك حق الإدراك كيف يمكن لهذه الابتسامة الواهنة المستخزية أن تتنحى، مفسحة المجال لهذا التعبير المفعم بالتحدى ، ولأنه كان يفهم ، راوده شعور بالرغبة في السقوط بموضعه ، مثل شجرة ذاوية .

تحدث رودريجيز ، لاهثاً على وجه التقريب ، بين مقاطع حديثه :

– قل ... شيئاً ... إن كانت بك شفقة عليّ ... فقل ... شيئاً !

أدرك فجأة ما الذى أراد أن يقوله ، بدأت كلمات غريبة ، كما لو كانت تتصاعد إلى حلقه . لقد اجتثت لحيتك ، كان هذا هو ما أراد أن يقوله ، لكنه لم يستطع فهم السر في أن مثل هذه المشاعر الغريبة قد عنت له ، تذكر أن فيريرا ، الذى عرفه مع جاربي في الأيام الخوالي ، كان يطلق لحية ضافية الطول ، كانت شيئاً يضفي على مظهره رقة ، تمازجها الجدية ، أما الآن فقد بدا جلد ذقنه وشفته العليا لامعاً ، شعر الراهب بأن هذا الجزء من وجه فيريرا يشد عينيه . كان يعكس بشكل ما حسية رهيبة .

قال فيريرا :

– ما الذى يسعنى قوله في هذا الموقف ؟

– انك تخدع نفسك .

– أخدع نفسي ؟ كيف استطيع أن أفسر لك ذلك الجانب من ذاتى الذى لا يشوبه خداع الذات ؟

نهض الراهب على ركبتيه ، حتى لا تفوته كلمة من الحديث الدائر بالبرتغالية ، وثبت دجاجتان أو ثلاث من الأرض إلى الشرفة ، وهى تدف بأجنحتها .

– أجئت هنا منذ وقت طويل ؟

– منذ حوالى عام ، فيما أظن .

– ما هذا المكان ؟

– معبد يدعى معبد «سايشوجى» .

التفت اليهما الكاهن العجوز ، الذى كان يحدق أمامه ، مثل تمثال حجرى لبوذا ، حينما سمع كلمة «سايشوجى» .

– أودعت ، بوورى ، فى سجن بمكان ما من نجازاكى ، لست أدرى موقعه على وجه الدقة .

– أعرفه فى ضواحى المدينة .

– ما الذى تفعله طوال اليوم يافيريرا ؟

– ارتسمت لمحة من الالم على محيا فيريرا ، وهو يضع يده على ذقنه الحليقة .

تدخل المترجم هذه المرة ، ليتحدث باسم فيريرا :

– يقضى سوانو المبجل يومه عاكفاً على الكتابة .

– أترجم بأمر من الحاكم كتاباً فى الفلك .

قالها فيريرا مسرعاً ، كما لو كان يرغب فى إغلاق فم المترجم ، أضاف :

– نعم ، هذا هو ما أعكف عليه ، فلى بعض النفع ؛ إذ يستفيد منى أهل هذه البلاد ، لدى اليابانيين إلمام ومعارف من كل الألوان ، ولكن غريباً مثلى لا يزال بوسعه أن يقدم يد المساعدة ، فيما يتعلق بالفلك والطب ، وهناك بالطبع فى هذه البلاد معرفة متميزة بالطب مستمدة من الصين ، لكنه مما له جداوه إضافة بعض

المعارف ، شأن الجراحة ، والشيء عينه ينطبق على الفلك ، ولهذا السبب طلبت من القائد الهولندى أن يعيرنا منظاراً وبعض العدسات ، هكذا فلست بلا جدوى فى هذه البلاد ، وبمقدورى أداء بعض الخدمات ، أجل بمقدورى ذلك .

حدج الراهب فيريرا ، الذى واصل الحديث بإصرار ، لم يستطع فهم السر فى أن الرجل استرسل فجأة في الحديث . مع ذلك ، فقد شعر ، بشكل ما ، أن بوسعه أن يفهم الدافع النفسي وراء تأكيده المستمر لكونه ذا نفع لهذه البلاد . لم يكن فيريرا يخاطبه وحده ، فقد كان المترجم والكاهن موجودين بدورهما ، وقد أرادهما فيريرا أن يسمعاه ، أضف إلى ذلك أنه واصل الحديث ليبرر وجوده فى نظر نفسه : «لست بلا جدوى فى هذه البلاد» .

أحس بالأسف وهو ينظر إلى فيريرا ، نعم ، كانت الرغبة فى أن يكون مفيداً للآخرين وأن يساعدهم ، هى الرغبة الوحيدة والحلم الذى لا ثانى له لرجل وهب نفسه للرهبنة ، فعزلة حياة الراهب لا تطبق مخالبها ، إلا حين يتجرد من النفع للآخرين . أدرك الراهب أن فيريرا لم يستطع ، حتى بعد ردته ، أن يهرب من تركيبه النفسى القديم ، الذى وجهه دائماً ، بدا مستميتا فى تمسكه بحلمه القديم بأن يساعد الآخرين ، تماما كامرأة مخبولة تدفع بثديها إلى طفل وليد .

غمغم رودريجيز :

- أسعيد أنت ؟

- من ؟

- أنت !

اتقدت عينا فيريرا ، المفعمتان بالتحدى ، مرة أخرى ، وقال :

- فى مفهوم السعادة تحتشد أنواع العناصر الموضوعية كافة .

لم يكن هذا ما اعتدت أن تقوله ... ارتفعت هذه الكلمات إلى شفتى الراهب ، لكنه قمعها ؛ فهو فى النهاية لم يأت إلى هنا ليحاكم فيريرا ، على ردته وتخليه عن رعيته ، لم تكن لديه رغبة فى أن ينكأ ذلك الجرح الغائر ، تحت سطح ذهن الآخر ، والذى حاول أن يخفيه .

تحدث المترجم ، من مكانه بين الرجلين ، محدقاً بخبث فى وجهيهما .

– الأمر كذلك ، إنه يساعدنا نحن اليابانيين ، بل هو يحمل كذلك اسماً يابانياً:سوانو شوان ، ويعكف على تأليف كتاب آخر ، يدور حول تفنيد تعاليم المسيح واظهار أخطار المسيحية ، وعنوانه باليابانية «جينجروكو» .

فى هذه المرة لم يستطع فيريرا المسارعة بإيقاف المترجم ، حول ناظريه للدجاج ، الذى يدف بأجنحته ، محاولا اكتساب مظهر من لم يسمع ما قاله الآخر .

واصل المترجم حديثه :

– طالع الحاكم المخطوط ، وأشاد به ، ويقول إنه بديع التأليف ، كان ينبغي أن تطلع عليه بنفسك ، فلديك وقت طويل فى السجن .

الآن أدرك الراهب بجلاء لم كان فيريرا يتحدث مسرعاً ومتعجلاً عن ترجماته فى الفلك . فيريرا ، الرجل الذى اضطر بأمر من سيد شيكوجو أن يجلس إلى مكتبه كل يوم ، فيريرا ... الذى كان يكتب أن هذه المسيحية ، التى وهبها عمره ، كانت ديناً زائفاً . أحس بأن بمقدوره أن يرى فيريرا منحنياً ،، وهو يعمل ريشته فى الورق .

قال رودريجيز :

– ياللضراوة !

– ما الذى يتسم بالضراوة ؟

– ضار ، أسوأ من أى تعـذيب ، لا أستـطيع التفـكير فيمـا هـو أكثر خسة من هذا .

فجأة لمح الراهب ، فيما كان فيريرا يحاول أن يشيح بوجهه ، دمعة شهباء تتألق فى عينيه . الكيمونو اليابانى الاسود ! الشعر الكستنائى معقوصاً إلى الخلف على الطريقة اليابانية !

الاسم : سوانو شوان . رغم ذلك فمازال هذا الرجل على قيد الحياة . يا الهى! صامتا أنت لاتزال ، عاكفاً على صمت عميق مازلت فى حياة كهذه !

– سـوانو شـوان ، لم نأت بهـذا الأب إلى هنا اليـوم لمجرد اجـراء مناقشـة مستفيضة .

كـان المتـــرجم هو الذى انبــرى للحديث ، التـفت إلى الكاهن العـجـوز ، الجالس كتمثال حجرى لبوذا ، على الأرض ، التى انارتها أشعة الشمس الآفلة ، وقال :

– ها ، إن الكاهن مثقل بالعمل بدوره ، انجز عملك سريعاً !

الأن بدا فيريرا وقد تجرد من روح القتـال ، التى اعتصم بـها قبلا ، كـانت الدمعة الشهباء لا تزال عالقة بأهدابه ، تواصل تألقها ، لكن الراهب خالجه شعور بأن قوام هذا الرجل قد انكمش فجأة ، فبدا ضئيلا .

قال فيريرا بصوت متعب :

– قيل لى بأن على دفعك إلى الردة ، انظر إلى هذا !

أشار بهدوء إلى أذنه ، حيث كان ثمة أثر لجرح ، كان أثراً بنياً ، كذلك الذى تخلفه الحروق .

- هذا النـــوع من التعذيب يدعى بالحفرة ، ولعلك سمعت به ، فيقيدونك بحيث لا تستطيع تحريك يديك أو قدميك ، ثم تدلى رأسك على عقب ، وتعلق فى الحفرة .

مدّ المترجم يديه ، كأنما داخل الفزع قلبه ، فشرع يدفع خطراً داهماً ، أخذته الرجفة لمجرد تذكرة ، قال :

- هذه الفتحات تجترح خلف الآذان ، حتى لا تلقى حتفك على الفور ، فينساب الدم قطرة ، قطرة ، فقطرة ، وقد ابتدع الحاكم إينوى هذا النوع من التعذيب .

تراءى محيا إينوى أمام الراهب ، الأذنان الكبيرتان ، البشرة الريّانة ، والوجه اللحيم ، ارتسم أمام عينيه ذلك الوجه ، على نحو ما كان حينما راح إينوى يتلاعب بالقدح ، مديراً إياه بين يديه ، فيما هو يرتشف الماء الفاتر . هذا هو الوجه الذى تلاعبت على ملامحه ابتسامة ، تشى بالموافقة ، حينما كان الراهب يجادل دفاعاً عن موقفه . ولقد قيل بأنه حينما نزل العذاب بساحة رجل آخر ، جلس هيرودس يتناول العشاء ، على مائدة زانتها الزهور .

واصل المترجم حديثه :

- تأمل الأمر ملياً ، لعلك الراهب المسيحى الوحيد الذى بقى فى هذه البلاد ، الآن ها أنتذا قد وقعت بين أيدينا ، وما من أحد ينشر التعاليم بين الفلاحين ويلقنهم مذهبك ، ألست تجد نفسك بلا جدوى؟

الآن ضاقت عينا المترجم فجـــأة ، لان صوته ، مكتسباً نغمة رقيقة ، وهو يقول :

- لقد سمعت ما قاله شوان ، إنه يترجم كتب الفلك والطب ، ويساعد المرضى ، ويعمل لصالح الآخرين ، فكّر فى هذا أيضاً . وكما يواصل الكاهن

العجوز تنكير شوان ، فإن السير فى درب الرحمة يعنى أن تدع الذات ، لا ينبغى لأحد أن يكترث بجعل الآخرين يعتنقون دينه ، فمساعدة الآخرين هى درب بوذا ولب تعاليم المسيحية ، عند هذه النقطة يصبح الدينان شيئاً واحداً ، ما جدوى إن كنت تسير فى الطريق الحق أم لا ، إن سوانو يكتب هذا فى مؤلفه .

حينما فرغ من حديثه ، تطلع إلى فيريرا ، مناشداً عونه .

انصب ســـنا الشمس الأفلة كله على ظهر فيريرا المكتهل ، الناحل ، الذى كسته الاثواب اليابانيــة ، حدّق الراهب فى هذا الظهر النحيــل ، وعبثا راح يبحث عن فيريرا ، الذى حـظى بتـوقيره ، فى المعـهد الدينى بلشبونة ، فى الزمن الخالى . أما الآن فلم تراوده مشاعر الازدراء نحوه ، وإنما ملأ صدره الإشفاق ، الذى يســـتشعره المرء نحو كائن ينبض بالحياة ، ويتوهج بها ، حين يفقد حياته وروحه .

همس فيريرا ، فى وهن ، خافض الصوت :

– طوال عشرين عاماً .. طوال عشرين عاماً ، كدحت فى هذه البلاد ، خبرتها خيراً منك قال الراهب ، رافعا صوته ، فى محاولة لتشجيع الآخر :

– خلال هذه السنوات العشرين ، أنجزت عمـلاً رائعاً ، من موقعك كرئيس للإرسـاليـة ، لقد طالعت ، بعظيم الاجلال ، الرسائل التى بعثت بها إلى رئاسـة الجمعية .

– طيب ، من يقف أمـامـــك الآن هو شبح داعية عجوز ، ألحقت الدعوة الهزيمة به .

– لا تهزم الدعوة أحداً ، وحين يغمرنى الموت وإياك ، سيستقل داعية آخر مركباً فى ماكاو ، ويهبط سراً بقعة ما من ساحل هذه الأرض .

تدخل المترجم ، مسرعاً :

- يقيناً سيعتقل ، وحين يعتقل داعية جديد ، فإن الدم الياباني هو الذي يشخب ، ما أكثر ما حدثتك بأن اليابانيين هم الذين يلقون حتفهم ، من أجل حلمك الأناني ، لقد حان الوقت الذي ينبغي أن تدعونا فيه وشأننا .

كرر فيريرا ، بصوت تعرى من الانفعال :

- طوال عشرين عاماً ، كدحت في هذه الارسالية ، والشيء الوحيد الذي أعرفه هو أن ديننا لا يضرب جذوره في هذه الأرض .

صاح رودريجيز ، بصوت عال ، هازاً رأسه :

- ليس الأمر جذراً لم يضرب في الأرض ، وإنما هو جذر يقتلع .

لم تند حركة من فيريرا ، إزاء صيحة الراهب الصاكة ، ردّ خافض الرأس ، كالدمية ، دونما انفعال :

- هذه البلاد مستنقع ، سيأتي حين من الدهر تدرك ذلك بنفسك ، هذه البلاد مستنقع مخيف على نحو يفوق ما يمكن أن يحلق إليه خيالك ، حينما تغرس شجيرة في هذا المستنقع ، فإن الجذور تشرع في التحلل ، تشحب الأوراق ، وتذوي ، وقد غرسنا شجيرة المسيحية في هذا المستنقع .

- أتى على هذه الشجيرة حين من الدهر نمت فيه وازدهرت .

- متى ؟

للمرة الأولى ، حدّج فيريرا الراهب بنظرة مباشرة ، فيما تلاعبت على خديه الغائرين مطالع بسمة من يشفق على صغير ، لا يدرى من أمر الدنيا شيئاً .

- حين هبطت أنت هذه الأرض ، لأول مرة ، كانت الكنائس يشاد صرحها ،

فى كل مكان ، والإيمان يضوع عطره كعبير الزهور فى البكرة الندية ، واليابانيون يتسابقون للتعميد ، مثلما احتشد اليهود عند نهر الأردن .

– وماذا إذا افترضنا أن الرب ، الذى آمن به هؤلاء المسيحيون ، لم يكن الإله الذى تتحدث عنه التعاليم المسيحية ...

قالها فيريرا ، مغمغما بالكلمات وئيداً ، وابتسامة الإشفاق على حالها ، تتلاعب ماتزال على شفتيه .

استشعر الراهب غضباً يستعصى على الفهم ، متصاعداً من أعماق فؤاده ، شدّد قبضتيه ، دونما وعى ، وحدث نفسه يائساً : «تعقل ، لا تخدعنك شقشقة اللسان هذه ، فالرجل المهزوم يستغل أى وسيلة لخداع النفس ، دفاعاً عن ذاته» .

قال بصوت عال :

– إنك تنكر مالا سبيل إلى انكاره .

– كلا ، على الاطلاق ، فما آمن به اليابانيون فى هذا العهد لم يكن إلهنا ، وإنما ربهم . لقد فشلنا طويلاً في إدراك هذا ، واعتقدنا جازمين أنهم أصبحوا مسيحيين .

اقتعد فيريرا الأرض ، في إعياء ، انفتح ذيل الكيمونو ، الذى يرتديه ، كاشفاً عن ساقين عاريتين ، متسختين ، كقصبتين من خشب ، أضاف :

– لا أقول هذا دفاعاً عن نفسى ، ولا رغبة في إقناعك ، ففى اعتقادى أن أحداً لن يصدق ما أقول ، فلن ترفض أنت وحدك تصديقى ، وإنما سيمتد هذا الرفض إلى الدعاة فى جوا وماكاو والدعاة الأوربيين بأسرهم ، ورغم ذلك فبعد كدح دام عشرين عاما عرفت اليابانيين ، وأدركت أن جذور الشجيرة ، للتى غرسناها ، قد تحللت شيئاً فشيئاً ، ودون أن ندرك ذلك .

– القديس فرانسيس كزافييه ...

اندفع رودريجيز مقاطعاً الآخر ، وقد عجز عن مواصلة السيطرة على نفسه :

– القديس فرانسيس كزافييه لم تخطر بباله هذه الفكرة ، حينما هبط أرض اليابان .

أومأ فيريرا برأسه :

– حتى ذلك القديس أخفق في أن يلحظ هذا ، لكن اللفظ الذى استخدمه للاشارة إلى الرب هو «الله» لم يتحرج اليابانيون فى تحريفه إلى «الهليو» «أى الشمس العظيمة» ذلك أنه بالنسبة للمسيحيين الذين كانوا يعبدون الشمس لم يكن ثمة فارق بين اللفظين . ألم تقرأ الرسالة التى تحدث فيها كزافييه عن ذلك الخطأ ؟

– لو أن كزافييه أتيح له مترجم محنك ، لما حدث مثل هذا الخطأ الغريب والهامشى .

– لا ، يبدو أنك لا تفهم ما أقول .

ارتسم الضيق عصبياً ، للمرة الأولى ، على صدغى فيريرا ، وهو يطرح هذا الرد ، وواصل حديثه :

– لست تفهم شيئا ، والجمع الذى أقبل إلى هذه البلدان ، ليرضى فضوله ، من أديرة جوا وماكاو باسم الدعوة ، لا يفهم شيئاً بدوره ، منذ البداية عمد هؤلاء اليابانيون ، الذى خلطوا بين الله والهليو ، إلى تحوير وتغيير إلهنا ، وشرعوا فى خلق شىء مختلف ، حتى حين انجاب الخلط اللفظى ، استمر التحوير والتغيير ، بعيدا عن الأنظار ، وخلال فترة الدعوة المجيدة ، التى أشرت إليها ، لم يؤمن اليابانيون برب المسيحيين ، وإنما بتحريفهم لصورة هذا الرب .

ببطء ، مضغ الراهب هذه الكلمات ، بين أسنانه :

- حوروا وغيروا الهنا ، وخلقوا شيئاً مختلفاً ، بل لم يكن إلهنا أصلا ؟

- لا ، فقد تغير رب المسيحيين ، في أذهان اليابانيين .

- ما هذا الذى تقول ؟

دفت الدجاجات ، التي كانت تنقر الطعام في هدوء على الأرض العارية ، منطلقة نحو أحد الأركان لدى سماعها صيحة الراهب الصاكة .

- ما أقوله أمر بسيط ، أنت وأمثالك لا ترون في التبشير إلا مظاهره ، ولا تضعون لبه موضع الاعتبار ، صحيح ، كما قلت ، أن الكنائس قد شيدت ، خلال السنوات العشرين ، التي أمضيتها كادحاً في كيوتو ، كيوشو ، شيوجو ، سينداي، والمدن الأخرى ، كما أنشئت معاهد دينية ، في اريما وأزوسى ، وتنافس المسيحيون في إقبالهم على المسيحية ، وقد قلت لتوك إنه كان هناك مائتا ألف مسيحي ، وإن كان هذا الرقم متحفظاً ؛ فقد أتى حين من الدهر كان هناك أربعمائة ألف مسيحي .

- ذلك أمر يبعث على الفخار .

- فخار ؟ نعم ، ذلك إذا كان اليابانيون قد آمنوا بالرب الذى كرزنا بتعاليمه ، ولكن اليابانيين لم يصلّوا في الكنائس ، التي رفعنا عمادها ، لرب المسيحيين ، لقد حوروا هذا الرب ، بما يتفق ومنهاج تفكيرهم ، على نحو ما كان يمكن أن يخطر لنا قط على بال . فإذا ما أسميت هذا إلهاً ...

نكس فيريرا عينيه ، وتلجلجت شفتاه ، كأنما عنّ له خاطر :

- لا ، ليس هذا إلها ، وإنما هو يحاكي فراشة طالها نسيج عنكبوت ، في البداية تبدو يقيناً كالفراشة ، ولكن في اليوم التالي لا يعود ثمة شبه يربطها

بالفراشة ، إلا الجناحان والجذع ، أي مظهرها الخارجي ، لقد فقدت جوهرها الحق ، وغدت هيكلا ، لقد أصبح إلهنا في اليابان مثل تلك الفراشة ، التي طالها نسيج العنكبوت ، يدوم شكله الخارجي ، لكنه غدا بالفعل هيكلاً .

- هراء ! لا أريد سماع شقشقة لسانك ، لم أمكث في اليابان قدر ما قضيت انت على أرضها ، لكني رأيت الشهداء بعيني هاتين .

حجب الراهب وجهه براحتيه ، فانساب صوته ، من خلال أصابعه :

- بعيني هاتين رأيتهم يلقون حتفهم ، وهم يتوهجون إيماناً .

اصّاعدت أمام عيني خياله ، باعثة الألم ، ذكرى البحر المحاصر بالمطر ، والوتدان الاسودان طافيان على سطحه وما كان بوسعه أيضاً أن ينسى الأعور ، الذي قتل في وضح النهار ، وارتسمت على صفحة ذهنه ، عميقة ، فلا تمحي ، صورة المرأة ، التي منحته الخيار ، وقد حولت إلى سلة ، أغرقت في البحر ، إذا كان هؤلاء الناس لم يلقوا حتفهم من أجل إيمانهم ، فأى تجديف بحق الانسان . ليس ما يقوله فيريرا إلا محض افتراء .

بجلاء ، وثقة بالنفس ، ومعتمدا الضغط على مخارج الحروف كافة ، قال فيريرا :

- لم يؤمنوا برب المسيحيين ، لم يقدّر لليابانيين ، حتى اليوم ، أن يدركوا جوهر الرب ، ولن يدركوه أبدا .

هبطت هذه الكلمات على قلب الراهب كثقل صخرة هائلة لا يتزحزح ، وبشيء من ذلك العنفوان ، الذي كان كامناً في قلبه ، حينما سمع لأول مرة في طفولته عن وجود الله .

– ليس بمقدور اليابانيين أن يفكروا في إله مفارق للإنسان تماماً ، فهم لا يستطيعون التفكير في وجود ، يتجاوز ما هو إنساني .

– المسيحية والكنيسة حقيقتان تتجاوزان البلاد والبقاع كافة ، ولئن لم يكن الأمر كذلك فأي جدوى فيما تقوم به من دعوة ؟

– ما يتصوره اليابانيون هو إنسان بهي الطلعة ، جليل المقام ... وهم يدعون هذا بالرب ، يطلقون اسم الرب على شيء يتمتع بنوعية الوجود ذاته ، الذي للإنسان ، لكن هذا ليس الرب ، الذي تكرز الكنيسة باسمه .

– أهذا هو الأمر الوحيد ، الذي تعلمته من الأعوام العشرين ، التي انفقتها في هذه البلاد ؟! . أومأ فيريرا موافقاً ، في شرود :

– أجل ، هذا الأمر وحده ، وهكذا فقدت الارسالية معناها بالنسبة لي ، سريعاً تحللت الشجيرة ، التي جلبتها إلى هذا المستنقع حتى الجذور ، وقدر لي ألا ألاحظ هذا طويلاً ، وألا أعرفه .

سيطر شعور مرير بالاستسلام ، يستعصي على محاولة الكبح ، على الراهب ، لدى سماعه كلمات فيريرا الأخيرة ، وهن سنا الغروب ، استطالت الظلال شيئاً فشيئاً على الأرض ، وتناهى إلى سمع الراهب من البعيد قرع الطبول الخشبية المكرور ، وصوت الكهنة يرتلون آيات حزينة النغم ، همس في مواجهة فيريرا :

– نعم ، لست فيريرا الذي عرفته .

رد فيريرا ، منكس العينين :

– حقا لست فيريرا ، وإنما أنا رجل تلقى من الحاكم لقب واسم سوانو شوان ، ولم أتلق الاسم وحده ، وإنما زوجة وأطفال الرجل ، الذي قضى نحبه قتيلاً .

حلت ساعة الدب . مرة أخرى ، عاد الراهب إلى المحفة ، التف به رجال الحاكم والحرس ، انطلق الركب على الطريق ، ادلهم الليل ، فما من داع يدعو القلق إزاء المارة الفضوليين ، الذين يتطلعون إلى المحفة . كان رجال الحاكم قد سمحوا له برفع السجف ، ولو أنه شاء لكان بوسعه أن يلوذ بالهرب ، لكنه لم يعد يشعر برغبة في القيام بذلك . كان الطريق ضيقاً ، أفعوانى الالتواء ، ورغم أن الحرس حدثوه بأنهم لا يزالون في المدينة ، فقد كانت الدور الريفية لا تزال متكاكئة تحاكى الأكواخ ، حينما تجاوزوها ، لاحت هنا وهناك أسوار المعابد ، مترامية الأطراف ، والأجمات ملتفة الأشجار ، فلم تكن نجازاكي قد اكتسبت بعد معالم المدينة . علا القمر خلف الأشجار المعتمة ، وبدا كأنه يشق طريقه أبداً ، مع المحفة نحو الغرب .

علا القمر خلف الأشجار المعتمة ، وبدا كأنه يشق طريقه أبداً ، مع المحفة ، نحو الغرب .

تساءل رجل الحاكم ، الذى مضى بجواده إلى جوار المحفة ، في رقة :

– أتشعر بتحسن الآن ؟

حينما بلغوا السجن ، تمتم الراهب بكلمة شكر للحرس ولرجال الحاكم ، ثم دلف إلى الداخل ، سمع صوت المزلاج الكئيب يرتج خلفه . انقضى وقت طويل منذ كان هنا ، وها هو ذا قد عاد ، بدا كما لو أن دهرا انقضى ، منذ سمع هديل القمرية المتقطع في الأجمة ، كان هذا اليوم الواحد طويلاً ، ومؤلماً ، بالمقارنة بالأيام العشرة السابقة ، التي قضاها بالسجن .

لم يكن لقاؤه بفيريرا مثار دهشة ، راح يفكر في ملامح العجوز ونهجه ، وما طرأ من تغيير عليه ، كان هذا شيئاً توقعه ، منذ هبط هذه الأرض ، لم يكن هيكل

العجوز الناحل ، فيما هو يدب عبر الممشى مقبلاً من بعيد ، أمراً مفزعاً ، الآن لم يعد هذا كله يهم ، لم يعد يهمه . لكن ما مدى صدق ما قاله ؟

اقتعد الــراهب الأرض ، محدقاً في الحائط الأجرد ، فيما انسابت أشعة القمر ، عبر القضبان ، فغطت ظهره بسناها . أما كان فيريرا يتحدث على هذا النحو دفاعاً عما جنته يداه وتغطية لضعفه ؟ بلى ، هذه هي الحقيقة ، طبعاً ، كان الأمر كذلك . وواصل شق منه التأكيد على هذا ، لكن دفقة خوف اعتصرته فجأة ، فراح يتساءل عما إذا كان ما قاله فيريرا صحيحاً حقاً ، قال إن هذا شخصاً واحداً ، إلى عدد أولئك الذين تراجعوا في خوف ، من أمثاله ، ليشاركه الآخرون خوره ووحدته .

راح في الظلمة ، يسائل نفسه عما إذا كان فيريرا غافياً الآن . لا ، لا يمكن أن يكون نائماً . لابد أن العجوز قابع في الظلمة بأحد أركان المدينة ، وعيناه تحدقان فيما أمامه ، ماضيا أغوار عزلته ، ووحدته هذه أكثر برودة وإثارة للفزع من تلك التي يحتملها في زنزانته بهذا السجن ، كان يحاول استدراج الآخرين إلى الدرب الذي أراده ، ليضيف ضعفاً إلى ضعف . إلهي ، أما تنقذه ؟ لقد قلت ملتفتاً إلى يهوذا : «اعمل ما أنت تعمله ولا تبطيء» ، أتراك ستعد هذا الرجل أيضاً في عداد القطيع الذي هجرته ؟

هكذا استشعر للمرة الأولى بعضاً من احترام الذات والرضا عنها ، وهو يقارن وحدته وحزنه بما يشعر به فيريرا ... واستطاع في هدوء أن يطلق ضحكة ، ثم افترش الأرض العارية الصلبة ؛ لعل طيف النعاس يواتيه .

الفصــل الثـامن

أقبل عليه المترجم زائرا ، في الصباح ، كرة أخرى ، بادره قائلا :

- لعلك أدرت الأمر في ذهنك ؟

لم يبد حديثه في هذه المـرة كمداعبة القط للفأر ، لاح محياه كالحاً ، أضاف :

- لقد حدثك سوانو بجلية الأمر ، فكف عن هذا العناد ! لسنا ندعوك إلى أن تدهس الأيقونة بملء الإخلاص ، ألا تجتاز هذا الإجراء الشكلي فحسب ؟ مجرد الشكل لا غير ! وعندئذ يغدو كل شئ على ما يرام .

لـزم الراهب الصمت ، وقد تجمدت عيناه على نقطة في الجدار ، لا يتحول عنها ، لم يكن ذلك راجعاً إلى أن زلاقة لسان الآخر تثير ضيقه ، وإنما انزلق ما قاله عبر أذنيه دون أن يعني شيئاً له .

- الآن هيـا ! لا تثـر المزيد من المتـاعب ، لا أسـألك أن تدهس الأيقـونة ، والإخلاص يغمر قلبك ؛ فالأمر يحزنني نفسي بدوري .

- لم لا تعلقوني في الحفرة ؟

- لا يزال الحاكم يقول إنه من الأفضل إقناعك ، وجعلك تتقبل تعاليمنا .

ضم الراهب ركبتيه إلى صدره ، هز رأسه رافضا ، كطفل عنيد ، فتنهد المترجم تنهيدة طـويلة ، واعتصم بالصمت قليلاً . طنت ذبابة حوله ، دافة بجناحيها .

- الأمر جلي ... طيب ، لا مناص ، إذن .

هـوى صـوت المزلاج الكئيب ، حينما أعيـد إلى موضعه ، على أذنـى الراهـب ، فعـلم أن النقـاش المنطقى قـد انتهى ، مع انبعـاث ذلك الصوت المقيت .

لم يكن بوسعه أن يقدر إلى أى مدى سيمكنه احتمال التعذيب ، غير أنه بشكل ما لم يعد يحمـل لبـدنه المضنى ذلك الرعب ، الذى أثاره فيه ، حينما كان يضـرب ضائعاً فى الجبـال ، كان الألـم قد خدره ، أحس بأن من الخير للموت أن يسارع إلى معـانقته ما وسعته المسـارعة ، إذا ما كـان هـو السـبيل الوحيـد للإفـلات من هـذا الانتظـار اليومى ، بل لعل الحيـاة فى رحـاب عذاب التفكـير فى الـرب واليقـين بـدت شيئا مقيتاً ، ضـرع فى قـرارة فـؤاده أن يجلب وهـن ذهنـه وجسـده المـوت عاجلاً . طفـت وراء جفنيه ، كـرؤية محمـوم ، رأس جاربى ، الراحـل إلى أعماق اليم . لكم حسد رفيقـه ! نعم ، لكم حسـد جـاربى ؛ إذ نجـا من هـول عـذاب كهذا الذى يعانيه !

كما توقع ، لم يقدم له الإفطار ، فى صباح اليوم التالى ، فتح الباب فى الظهيرة ، وأطل عملاق عار حتى الخصر ، لم يكن قد رآه من قبل . أحكم قيد يدى الراهـب ، حتى أنه ما إن يحـرك جسـمه قليلا حتى يحـز الحبل فى رسغيه ، فتند صيحة ألم كظيمة عن شفتيه ، وفيما كان يقيد يديه خلف ظهره ، راح يصب عليه سيل إهـانات لم يسـتطع الراهب فهمها ، وحدث نفسه قائلا : «أخيرا آن الأوان» . لكن هـذا الشعور ، لدهـشته ، صحبه انتعاش وابتهـاج ، لم يعهدهما قبلا .

اقتادوه إلى الخارج ، احتشد الفناء ، السابح فى النور ، بثلاثة من رجال الحاكم وأربعة من رجال الحرس والمترجم ... اصطفوا جميعاً ، يحدقون فيه ،

فتطلع إليهم ، مركزاً على المترجم ، وقد تلاعبت ابتسامة على شفتيه ، تشى بشعوره بالانتصار ، حدث نفسه بأنه أيا كانت الظروف ، فما من انسان يستطيع الإفلات من براثن الغرور ، تذكر مبتهجاً أنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد لاحظ تلك الحقيقة .

شدد العملاق قبضته على الراهب ، ورفعه بخفة بين ذراعيه ، فوضعه على ظهر حصان ، بلا سرج ، لم يكن يبدو حصاناً ، وإنما بالأحرى حماراً ، هزيلاً ، يتضور جوعاً ، ترنح على الطريق متقلقلاً ، وفي أعقابه رجال الحاكم والحرس والمترجم .

غص الطريق باليابانيين ، انتظاراً لمقدم الركب . ابتسم لهم الراهب ، من فوق حصانه . كهول فغروا أفواهم دهشة ، صبية يقضمون ثمار الخيار ، نسوة كن يضحكن أول الأمر ، يحدقن في الراهب كالبلهاوات ، وفجأة يتراجعن مرتاعات ، حين تلتقي أعينهن بعينيه ، كان الضوء يترامى على كل وجه من هذه الوجوه ، ملقيا ظلالاً شتى . طن خلف أذنه شئ ، لاح كتلة بنية اصابته ، كان روث حصان ، لطخه أحدهم به .

عقد العزم على ألا يدع البسمة تغيب عن شفتيه ، هو ذا يشق شوارع نجازاكي ، على ظهر حمار ، ثمة رجل آخر دخل بيت المقدس ، راكباً حماراً أيضاً ، وقد كان هذا الرجل هو الذى علمه أن أكثر الاختلاجات ، التى ترتسم على محيا انسان ، نبلاً إنما تتجسد في الرضا بملء الحبور بالهزء والإهانة . لسوف يحافظ على هذا الرضا ، حتى النهاية ، فهو ذا محيا مسيحى وسط جمع الكفرة .

جمع رهط من الكهنة البوذيين ، مفصحين عن مشاعر العداء نحوه ،

جمعهم ، تحت شجرة ضخمة ، أقبلوا بقضهم وقضيضهم ، فالتفوا بالحمار الذي اعتلاه ، ولوحوا بالهراوات مهددين ، كأنما ليهددوه ، ويفتنوه عن دينه. تطلع إلى العيون من حوله ، متسائلا عما إذا كان سيجد مؤمنا يعتصم بالتقية ، لكنما عبثاً بحثت عيناه ، فما من وجه حوله إلا دفعه العداء أو المقت أو الفضول . هناك في قلب الجمع لمحت عيناه رجلاً لاح كأنما هو كلب يستجدي الاشفاق ، دونما وعي تصلب الراهب في مكانه ، كان الرجل كيشيجيرو .

ملتفاً بالخرق ، وقف في صدر الصف الأول ، منتظراً ، حينما صافحت عيناه مقلتي الراهب ، انكمش ، حاول مسرعاً الاختفاء ، وسط الجمع ، لكن الراهب ، من موضعه فوق ظهر الحمار المتواني ، كان يعلم حق العلم أي مسيرة طويلة قطعها الآخر ، مقتفيا أثره ، وسط هؤلاء الكفرة جميعاً كان هذا الرجل وحده هو الذي يعرفه .

(هدئ من روعك ، هدئ من روعك ، لست غاضباً الآن ، ليس إلهنا غاضبا) أومأ الراهب برأسه نحو كيشيجيرو ، كأنما ليهبه العزاء ، الذي يمنح للتائب بعد الاعتراف .

تقول السجلات إن الجموع رافقت الراهب في الطريق من هاكاتا إلى كاتسوياما ، ثم اخترقت شوارع جوتو ، وقد جرت العادة بأن يأمر الحاكم بالدعاة في اليوم السابق لإنزال العقاب بساحتهم ، فيطاف بهم عبر نجازاكي تجريساً لهم . كان المكان الذي يمضي الركب إليه دوماً هو سوق نجازاكي العتيق ، حيث تنكفئ الدور بعضها على البعض الآخر ، ويتلاطم الناس خضماً من بشر ، وفي اليوم التالي لتجريسهم ، كانوا يدفعون إلى ساحة التعذيب .

كانت جوتو - ماشى على عهد أومورا سوميتارا ، حينما فتح مرفأ نجازاكى لأول مرة ، هى مستقر المهاجرين من جزر جوتو ، ومن فوقها كان يمكن للمرء أن يلمح خليج نجازاكى ، متلألئا ، تحت شمس الأصيل ، تدافع الجمع ، مطبقاً على الركب ، على نحو ما يفعل فى المهرجانات ، وكل يحاول أن يلقى نظرة على البربرى ، الأجنبى ، على صهوة الحصان ، المجرد من السرج ، ما إن يحاول الراهب أن ينصب قامته المعذبة ، حتى ترتفع صيحة مقت ، يمازجها المزيد من الفرح الصارخ .

كان قد حاول أول الأمر أن يغتصب ابتسامة يرسمها على شفتيه ، أما الآن فقد تصلب وجهه ، ولم يعد ذلك ممكناً ، فما وسعه إلا أن يغمض عينيه ، محاولاً حجب الوجوه ، التى عكف أصحابها على السخرية منه والهزء به ، ويا لها من وجوه ناتئة الأسنان ! تساءل عما إذا كان ذلك الرجل قد ابتسم ، فى رفق ، حينما أحدق الجمع بقصر بيلاطس ، صارخين ، هاتفين ، وقد أخذ الغضب منهم كل مأخذ ، حدث نفسه بأنه حتى ذلك الرجل عجز عن اجتراح مثل هذا الأمر «فى زمان الآلام المقدس هذا زد لنا فى رحمتك» . تهاوت كلمات الصلاة من شفتيه ، مثلما يتهاوى الحصى ، وحينما استمر فى ترتيلها ، تثاقلت فى الخروج ، مثقلة بالمشقة ، تشتت تفكيره ، ازاء الألم المبرح المنبعث من الحبل ، الذى راح يقضم رسغيه حينما ارتج بدنه ، لكن ما أناخ بكلكل الحزن على صدره كان عجزه عن أن يحب هؤلاء الناس ، مثلما سبق للمسيح أن أحبهم .

- طيب ، أيها الأب ، كيف الحال ؟ أما يقبل أحد ليمد لك يد العون ؟

تساءل المترجم ، مسايراً إياه ، فجأة هتف به :

- أما تجد عن يمين أو يسار إلا صيحات المقت ؟ ما أعجب أن تهبط هذه

الأرض من أجلهم ، فلا يحس أحدهم أنه بحاجة إليك ، أنت رجل بلا جدوى ... بلا جدوى ..

للمرة الأولى ، اندفع الراهب صائحاً ، وعيناه تقدحان شرراً :

– رغم ذلك ، في هذا الجمع من يصلي في أعماق سكون فؤاده .

– الآن سأحدثك بشيء ، أتوافق على الإصغاء ، منذ وقت طويل كانت هناك إحدى عشرة كنيسة هنا في نجازاكي ، إلى جوار مائتي ألف مسيحي ، في هذا الجمع أناس كانوا يوماً مسيحيين ، لكنهم الآن يهزأون بك بكل قوتهم ، وعن عمد و ليبرهنوا لمن يلتقون بهم أنهم ليسوا مسيحيين .

– صب الاهانات عليّ ، كيفما طاب لك ، فما تزيدني إلا شجاعة .

– الليلة ...

ضحك المترجم لاطماً بطن الحصان بجمع كفه :

– ... الليلة ، الليلة سترتد ، قال إينوى هذا بوضوح تام ، وحتى الآن لم يقل إن أبا سيرتد ، إلا وصدق فيما قال ، حالفه الصواب في حالة سوانو ، وسيحالفه في حالتك أيضاً .

فرك المترجم كفيه ، في حركة توحي بالثقة المتناهية ، ثم تراجع عن مكانه ، إلى جوار الراهب «في حالة سوانو» ... لم تعلق بذهنه إلا هذه الكلمات ، عمته الرجفة ، على ظهر الحصان الأجرد ، فراح يجالد الكلمات ، لعلها تنأى عن ذهنه .

فيما وراء الخليج ، سحق السحاب عموداً ذهّب سنا الأصيل حواشيه ، لاحت له هذه السحب ، لعلة لا يدريها ، قلعة عملاقة ، تنهش في

السماء ببياضها الشاهق . كثيراً ما شهد من قبل أعمدة من سحب ، لكنها لم تثر فيه قط مثل هذه المشاعر . الآن بدأ يدرك جمال الترتيلة التي رددها المسيحيون ، والتي سمعها لدى هبوطه أرض اليابان ، «إنا على دربنا ، إنا على دربنا ، إنا على دربنا إلى معبد الفردوس ، إلى معبد الفردوس ... إلى المعبد العظيم» ، كان عزاؤه وسلوانه الوحيد هو التفكير في ذلك الآخر ، الذى سبقه على درب الخوف والرعدة ، ثم تحل بهجة التفكير في أنه ليس وحيدا ، ففي هذا البحر عينه احتمل هذان الفلاحان اليابانيان العناء نفسه ، يوما بكامله ، قبل أن يرحلا بعيداً ، إلى معبد الفردوس النائي ، فجأة أفعمت صدره فرحة وثّابة ، حين فكر بأنه توحد مع هذين اليابانيين توحد مع جاربى ، توحد مع ذلك الرجل ، الذى ثبتت المسامير كفيه على الصليب ، ألح عليه محيا ذلك الرجل ، صورة تتدفق حياة ، وتتوهج حيوية ، المسيح تحت العذاب، المسيح الصابر ، دعا من أعماق فؤاده أن يدنو وجهه من ذلك المحيا .

نحى رجال الحاكم الجمع ، رافعين سياطهم ، فتفرق أيدى سبا في خنوع ، والذعر ملء العيون ، فاتسع الطريق أمام الركب ، الذى تناهبته العيون .

أخيراً ، أسدل الستار على الغسق ، وهوت الشمس الآفلة ، متوهجة على سقف معبد ، إلى يسار الطريق . خلف المدينة مباشرة ، لاح جبل ، وكأنه يطفو محلقاً في السماء ، الآن تناوشه من جديد أحجار وقطع من الروث ، تهاوت عليه ، فأصاب بعضها وجهه .

سايره المترجم ، مواصلا إلحاحه :

– هلم الآن ! لست أدعوك لما فيه ضير ، ارتد ، قل كلمة واحدة ، أرجوك ! لئن فعلت هذا ، فلن يعود بك حصانك إلى السجن أبداً .

– إلى أين تمضون بى الآن ؟

– إلى ديوان الحاكم ، لا أريد لك العذاب ، أرجوك ، لست أدعوك إلى ما فيه ضير ، ما عليك إلا أن تنبس بهذه الكلمة : «إنى ارتده .

كظم الراهب غيظه ، اعتصم بالصمت على ظهر حصانه الأجرد ، شخب الدم من وجنته ، منثالاً إلى نقنه . تطلع إليه المترجم ، مضى حزيناً ، وقد ارتسم الحزن على محياه ، وارتاحت كفه على بطن الحصان .

انحنى ليلج الزنزانة الغارقة فى ديجور دامس ، فجأة لطمته رائحة كريهة ، فألزمته موضعه . كانت رائحة بول نفاذه ، كان البول يغطى الأرض تماماً ، وقف للحظة جامداً ، محاولاً قمع القئ المتصاعد داخله ، بعد برهة استطاع أن يميز الجدران فى قلب الظلام ، تلمس الحائط ، مستكشفاً طريقه فى أنحاء الغرفة ، فجأة ارتطم بحائط آخر ، مد ذراعيه على اتساعيهما ، فأدرك أن أطراف أصابعه يمكن أن تمس الجدارين كليهما ، فى وقت واحد ، أوحى له هذا بحجم الزنزانة التى زج فيها .

أرهف السمع منصتاً ، لكنه عبثا راح يصغى ، استحال عليه أن يعرف فى أى موضع من مبنى ديوان الحاكم أودعوه ، لكن الصمت القاتل أكد له أنه ليس هناك أحد بقربه . كانت الجدران من خشب ، وفيما راح يتلمس الجانب العلوى منها ، اكتشفت أصابعه انثناء كبيرا ، عميقاً ، ظنه فى البداية ضلعاً بين الألواح ، لكنه شعر على نحو ما كذلك أن

الأمـــر ليـس على هـــذا النحو . حينما مضى متلمساً الجـــدار بأصبـــعه ، أدرك تدريجيـــاً أنه حـــرف - تلاه حرف - وكالضرير تلمـست أصابعه طريقها عبر الحـــروف المنهمـرة ، فـألفـاها تؤلف «مجــدوا الرب» بعدها لم تلمس أصابعـــه شيئاً ، لربمـا حفر داعيـة هذه الكلمات ، حينـما زج بـــه في هذا السـجن ، لعلها تكـون عـوناً لمـن يـأتي على دربـه ، لم يكن هـــذا الداعيـة مرتداً ، وهو في سجنه هذا ، وإنمـا كان يتوهـج إيماناً ، هنا أفعم انفعال عارم صدر الراهب ، وحيداً في العتمة ، حتى بلغ مشارف الدمع ، حينما فكر فيما يمكن أن يكون قد وقع . راوده شعور بأن ثمة قوة تمنحه حمايتها ، حتى النهاية ، على نحو ما .

لم يدر إلى أي حـد أوغـل الليـل في مسـيرته . كان المترجم ورجـال الحـاكم الذين لا عهـد له بـهم يواصـلون طـرح الأسـئلة ذاتها عليـه : من أين أقبل ، وإلى أي جمعـية ينتمي ، وكم داعية في ماكاو ، لكنهم لم يدعـوه إلى التخـلي عن دينـه ، بل وبدا كأن المترجم غـير نغمة حديثه تماماً ، حيث مضى يؤدي واجبـه ، في الترجـمة ، بوجه خـلا من أي انفعـال ، حـينما انتـهى هذا التحقيق العبثي ، زجوا به في هذه الزنزانة .

«مجدوا الرب» . أسـند رأســه إلى الحـائط ، وسـبح في التفكير بــذلك الرجل الــذي أحبه ، مثلما يستحضر شـــاب محيـا صديقه الأثير ، الـذي غـــاب عنـــه . كان قد اعتاد ، منـذ زمن بعيد ، أن يستحضر في عزلته محيا المسـيح ، ورغـم ذلك فمنذ وضعـــوا أيديـهم عليـه ، وبصفـــة خاصة منذ سـجنه في تلك الزنـــزانة القـريبة من الأجمـة ، حيث يتنـاهى إليـه حفيف ورق الشـجر ، أفـعم صـدره شـعـــور آخر مبـاين ، لـدى انبعـاث ذلـك المحيا ، ناهضا وراء عينيه المغمضتين ، الآن في قلب الظلمة ، لاح لـه هـــذا

المحيا دانياً ، لفه الصمت في البداية ، لكنه رمقه بنظرة أفعمت أسى ، ثم بدا كما لو كان يحادثه : «حينما تتعذب ، معك أتعذب ، سأظل حتى النهاية إلى جوارك» .

فيما كان يفكر في هذا المحيا ، امتد به التفكير إلى جاربي كذلك ، سرعان ما سيلحق به . تراءى له ذلك الرأس الفاحم في أحلامه ، في بعض الأحيان ، تطارد القارب ، ثم تدلف إلى أعماق اليم ، عندما كان الخجل يستبد به ، فلا يملك تفكيراً في ذاته ، هو الذي تخلى عن المسيحيين ، كان التفكير في هذا أمراً لا يحتمل ، حتى أنه كان يحاول أحيانا الإقلاع عن التفكير في جاربي تماماً .

تناهى إليه صوت ناء ، بدا كصوت كلبين يتعاركان نابحين . أرهف السمع ، لكن الصوت كان قد توقف ، ثم تواصل فترة طويلة ، أدرك أنه شخير شخص ما ، لابد أن أحد الحراس كان يصدره غارقا في نوم ، حملته إليه وفرة الساكي .

تواصل الشخير ، متقطعاً لفترة ، مرتفعا حيناً ، منخفضاً حيناً آخر ، شأن صوت صدرعن ناى بين يدى عازف مبتدئ ، هو ذا في هذه الزنزانة المظلمة يغلبه انفعال رجل يواجه الموت ، فيما رجل آخر يصدر شخيره هانيء البال ... بدت له هذه الفكرة مثيرة للسخرية بلا حدود ، غمغم في هدوء لنفسه متسائلا عن السر في أن حياة البشر تبدو حافلة بمفارقات غريبة .

كان المترجم قد أكد له ، عن يقين ، أنه سيصبأ الليلة (آه لو علم حقيقة مشاعرى ...) ندت عنه ضحكه هينة ، فيما هو يبعد رأسه عن الحائط ، وهذه الأفكار تمر بذهنه ، طفا أمام عينيه محيا ذلك الحارس ناعم البال ،

الذي يصدر هذا الشخير ، في نومه العميق ، لئن كان شخيره عالياً ، على هذا النحو ، فمن المحقق أنه لا يخشى أن ألوذ بالهرب ، بهذا حدث نفسه ، رغم أنه لم يكن يعتزم الهرب على الإطلاق ، وليشغل ذهنه دفع الباب بكلتا يديه ، لكن الباب كان مرتجاً من الخارج فلم يستطع زحزحته عن موضعه .

عرف أن حتفه آت ، لكن مشاعره - ويا للغرابة - لم تكن تساير عقله .

نعم الموت يدنو . حينما توقف الشخير ، اعتصره سكون الليل الهائل ، لم يكن الأمر راجعاً إلى أن ذلك السكون لم تشبه نأمة ، ومثلما تطفو الظلمة فوق الأشجار ، هبطت رهبة الموت فجأة ، فسكنت قلبه ، وأفعمته بالفزع ، لوى يديه ، صارخاً بصوت عال ، عندئذ تراجع الفزع، كارتداد الجزر ، لكنه أقبل كرة أخرى ، هادراً ، كالمد . حاول أن يصلي ضارعا ، فتناهت إليه متقطعة كلمات : «وكان عرقه مثل قطرات دم» . حينما تراءى له ذلك الوجه الناحل ، لم يستشعر العزاء في التفكير بأنه قد عرف بدوره الرعب ذاته ، ساعة الاحتضار . مسح جبينه بكفه ، انبعث واقفاً ، راح يذرع الزنزانة الضيقة ، ليشغل نفسه ، فما كان بوسعه أن يظل في موضعه ، كان عليه أن يتحرك .

أخيراً ، تناهى إليه صوت يتردد بعيداً ، ولئن كان هذا صوت الجلاد ، مقبلاً لينزل به العذاب ، فذلك خير له من الظلام البارد ، الذي راح يمزقه ، متغلغلا في لحمه ، على نحو يفوق ما يمكن لأي سيف أن يجترحه ، ألصق أذنه بالباب ؛ لعله يسمع طرفاً مما يقول صاحب هذا الصوت .

بدا كما لو أن شخصاً يقرع آخر ، تجاوب صوت ، ينم عن الكراهية

والمقت ، مع آخر يتوسل ضارعاً ، كانت الملاحاة تتوقف في البعيد ، ثم لا تلبث أن تبدو كما لو كانت تدنو من موضعه ، فيما كان يصغي ، شقت أفكاره مجرى مختلفاً تماماً ، حدث نفسه بأن السر في أن الظلام يخيفنا هو أنه لا يزال في أعماقنا ذلك الخوف الغريزي ، الذي كان الرجل البدائي يستشعره ، حين يحتجب عنه النور ، كانت تلك هي الفكرة المجنونة ، التي وثبت إلى ذهنه .

وبخ رجل شخصاً ما ، بقوله :

– ألم أقل لك إن عليك الانصراف تواً ؟

عندئذ ، صاح من وجه إليه التقريع ، بصوت باك :

– إني مسيحي ، دعوني أقابل الأب !

بدا الصوت مألوفا ، على نحو ما ، نعم ، إنه صوت كيشيجيرو .

– دعوني أقابل الأب ! دعوني أقابل الأب !

– صمتاً ! لئن واصلت الصياح على هذا النحو ، لأذيقنك طعم عصاي !

– اضربوني ! اضربوني !

طوال الوقت ، ظل الصوت على اختلاطه بصوت آخر .

– من هذا ؟

تساءل صوت ثالث .

– يبدو أنه معتوه ، إنه كالشحاذ ، لكنه منذ الأمس يواصل القول بأنه مسيحي .

فجأة ، ارتفع صوت كيشيجيرو ، مردداً كالصدى :

- أبتاه ، اغفر لي ! جئت لأدلي باعترافي ، وأتلقى الغفران على يديك ، فاصفح عني !

- عم تتحدث ؟

تناهي صوت ، يحاكي ذلك الذي ينبعث عن شجرة تهوى ، فيما كان الجلاد يلطم كيشيجيرو .

- ابتاه . اصفح عني !

أغمض الراهب عينيه ، وراح يستحضر صامتا كلمات الإحلال من الذنوب ، فعلق طعم مرير بلسانه .

- ولدت ضعيفاً ، ومن يضعف فؤاده لا يملك أن يلقى حتفه شهيداً ، ماذا عساني أصنع ؟

آه ، لم جئت إلى هذه الدنيا ؟

انحبس الصوت منكسراً ، مثلما تسكن النسمة ، ثم تردد في البعيد .. فجأة تراءى أمام الراهب كيشيجيرو ، على نحو ما كان لدى عودته إلى جوتو .. الرجل الأثير وسط رفاقه المسيحيين ، لو لم يكن ثمة اضطهاد ، لقضى هذا الرجل ، يقينا ، حياة هانئة ، يعيشها مسيحياً طيباً .

- لم جئت إلى هذه الدنيا ؟ لم ؟ ... لم ... ؟

دفع الراهب أصابعه في أذنيه ، ليحجب هذا الصوت ، الذي ترامى كنباح كلب بعيد عن سمعه .

نعم ، لقد همس بكلمات إحلال كيشيجيرو من خطاياه ، لكن الكلمات لم تنبعث من أعماق قلبه ، وإنما صدرت عن شعور بالواجب ، باعتباره قساً ، لهذا بقيت ثقيلة على لسانه ، مثلما تبقى نكهة طعام مر في الحلق ، حقاً

إن كرهــه لكيشيجيرو قد انقضــى الآن ، وتبدد ، لكن نكــرى قيــامه بتسليمه إلى أيـدى جــلاديه ظلت منقــوشـة على سطح ذاكــرته ... رائحـة الأسـمـاك المقــددة التى جعله يقتاتها ، الظمأ اللاهــب الذى أعقبها ، ظلا راسخين ، لا سبيل إلى محوهمــا ، رغم أنه لم يعد يكن له كرها ، أو يستشعر غضباً ، إلا أنه لم يســتطع اقتلاع شعوره بالازدراء ، مرة أخرى لاك كلمات التحذير ، التى خاطب بها المسيح يهوذا .

كان قد عجز ، منـذ زمـن بعيد ، عـن فهم هـذه الكلمات ، حينـما طالعـها فى الإنجيل ، لم يقتـصـر الغمـوض على هــذه الكلمـات ، وإنما امـتـد إلى دور يهوذا فى حـياة ذلك الرجل ، لم ضم هذا الرجل إلى رهط حـوارييه الرجل الذى سيسـلمه إلى شــانئيه ؟ لم مضى فى طريقه مثل هــذا الـوقـت الطــويل وكأنه لا يعلم شيئا رغم إلمــامه بنـوايا يهوذا ؟ أمـا كان يهوذا دمية استخدمت لصلب المسيح وتمجيده ؟

مع ذلك .. مـع ذلك ... إذا كـان هــذا الرجــل هو الحب نفـسه ، فلم انتـهى إلى نبذ يهــوذا ؟ لقـد شــنق يهوذا نفســه فى حقـل الدم ، أتراه نبذ ليتدهدى فى ظلام أبدى ؟

كانت هذه الشـكوك تتناهبه ، حـتى حـينمـا كان طــالبا بالمعـهـد الدينى ، وقسـا يدرج بأول الطـريق ، تتدافع فى ذهنه ، كفقـاعات تطفـو على سطح الماء ، فى مـسـتنقع راكـد . فى مـثل هذه اللحـظات كـان يحـاول التـفكيـر فى هذه الفقاعات باعتبارها أمــوراً تشوب نقاء إيمانه ، لكنها الآن تحدق به ، فى إلحاح لا يقاوم .

هز رأسـه ، تنهد ملء رئتيه ، لســوف تحـل الديـنـونة ، فتنجلى الأسـرار ؛ إذ لــم يوهــب الانسـان اكتناه حقـائق أحجيات الكتـاب المقدس جميعها .

مع ذلك ، فقد أراد أن يكتمه غور السر . كان الراهب قد قال له عن يقين : «الليلة يقينا ستصبأ» لكم تبدو قريبة من الكلمات التي خاطب بها ذلك الرجل بطرس «قبل أن يصيح الديك اليوم تنكرني ثلاث مرات» . مازال الفجر بعيداً ، لم يحن وقت صياح الديكة بعد .

آه ، ذلك الشخير مرة أخرى .كان يحاكي صوت طاحونة ، يديرها الهواء . اقتعد الراهب الأرض الغارقة في البول ، وراح يضحك كمن به مس . يا للانسان من مخلوق غريب ! هو ذا الشخير الأبله ينبعث عاليا تارة ، خفيضاً تارة أخرى ، شخير غر ، رقد دون أن تمسه رهبة الموت . تمدد ، غارقاً في نومه ، كالخنزير ، فاغراً فاه الضخم ، مطلقاً شخيره ، على هذا النحو ، أحس الراهب أن بمقدوره أن يرى وجه ذلك الحارس الغافي رؤية العين ، خيل إليه أنه لابد أن يكون وجهاً لحيماً ، أثقله الساكي ، حد السكر ، متفجراً بالعافية ... لكن الوجه كان رهيباً في عين ضحاياه . فضلا عن هذا فإن هذا الحارس لم يكن رفيع القدر في ضراوته . وإنما كانت ضراوته هي ضراوة شخص وضيع إزاء الحيوانات ، حيوانات تقصر عنه قوة . كان قد رأى أمثاله في ريف البرتغال ، وعرفهم حق المعرفة ، هذا الرجل لم تخطر بباله خاطرة عن العذاب ، الذي سيحيق بالآخرين ، جراء ما تأتيه يداه . كان أمثاله هم الذين قتلوا ذلك الرجل ، الذي كان محياه هو أسمى وأجمل محيا يمكن لبشري أن يحلم به .

أجل ، ويا له من شئ مقيت أن يبتلى ، في هذه الليلة الأكثر أهمية في عمره بمثل هذا الضجيج الشكس المنكر .. فجأة أفعم الغضب صدره ، حينما أدرك هذه الحقيقة ، أحس بأن حياته تزدرى ، وحينما توقف

الشخير لحظة ، بدأ يقرع الحائط بجمع يده ، لكن الحارس ، شأن الحواريين الذين رقدوا في الجسمانية ، دون أن يخطر لهم عذاب ذلك الرجل على بال ، لم ينهض من نومه شرع يلطم الحائط بجنون ، فانبعثت عندئذ ضجة الباب ، فيما كان يفتح ، ومن بعيد تناهى وقع اقدام تسرع إلى حيث كان .

- أيها الأب ، ماذا دهاك ؟ ماذا دهاك ؟

كان المترجم هو الذى يتحدث ، رن صوته محاكيا صوت قط يتلاعب بطريدته ، وأضاف :

- الأمر مفزع ، مفزع ، أليس من الخير لك ألا تكون عنيداً ؟ لو أنك قلت : «إنى أرتد» لصار كل شئ على ما يرام ، عندئذ سيكون بمقدورك أن تريح ذهنك المكدود ، وأن تلتقط أنفاسك .

رد الراهب عبر الظلام :

- لا شئ يثير حفيظتى إلا هذا الشخير .

صمت المترجم فجأة ، كأنما ألقمته الدهشة حجراً :

- أتحسبه شخيراً ... ذلك .. سوانو أسمعت ما قال ؟ إنه يحسب هذا الصوت شخيراً .

لم يكن الراهب قد عرف أن فيريرا يقف إلى جوار المترجم .

- سوانو قل له ما هذا الصوت !

سمع الراهب صوت فيريرا ، ذلك الصوت الذى كان يصغى إليه ، كل يوم ، فى الأيام الخوالى ، كان صوتا خفيضا يخالجه الإشفاق .

- ليس هذا شخيراً ، وإنما هو أنين المسيحيين المعلقين فى الحفرة .

وقف فيريرا هنالك متحجرا ، في موضعه ، وقد نكس رأسه ، كدابة هرمة ، كمانته أطل المترجم من الباب برأسه ، محدقاً فيما أمامه . انتظر ، طال انتظاره ، لم تصل إلى أذنيه نأمة واحدة ، همس قلقا بصوت أجش :

- أعتقد أنك لم تلق حتفك . أوه كلا . كلا . فمن المحرم على المسيحى أن يطفئ بيده نور الحياة ، الذى منحه الله إياه ، سوانو ! سنوكل باقى الأمر لك .

قالها منصرفاً ، وسرعان ما طوته الظلمة ، وإن رددت صدى وقع اقدامه .

لم تند حركة عن فيريرا ، حينما انداح في الموت وقع الاقدام ، وإنما وقف صامتا ، منكس الرأس . بدا جسده طافيا في الهواء ، كالشبح ، ناحلاً كقصاصة من ورق ، صغيراً كطفل . حتى ليظن المرء أنه من المستحيل أنه يمسك بكفه .

قال مطلا من الباب :

- إحم إحم ! أتسمعنى ؟

لم يحر الكاهن جواباً ، فكرر فيريرا الكلمات عينها ، وأضاف :

- في مكان ما ، على ذلك الحائط يمكنك العثور على حروف حفرتها هناك «مجدوا الرب» . ما لم يكونوا قد محوها . ستجد الحروف على الحائط الأيمن .. أجل في الوسط .. أما تلمستها بأصابعك ؟

ما من صوت ند عن الزنزانة ... وحدها قبعت الظلمة ، التى تكوم الراهب فى رحمها ، داخل الزنزانة ، والتى بدا أنه من المستحيل أن تكتنه العين حجبها .

تردد صوت فيريرا ، واضحاً ، فاصلا المقاطع أحدها عن الآخر :

- كنت هنا مثلك ، زجوا بي ها هنا ، كانت تلك الليلة أكثر عتمة ، وأشد برداً من أي ليلة في حياتي .

أسند الراهب رأسه المتثاقل ، على الحائط الخشبي ، أصغى شارداً إلى كلمات الكهل ، حتى وإن لم يقل ذلك فيريرا ، فإنه كان يعلم أن تلك الليلة كانت أشد ظلاماً من أي ليلة سبقتها ، كان يعرف ذلك حق المعرفة . لم تكن تلك هي المشكلة ، وإنما المشكلة أنه لا ينبغي أن تنطلي عليه أحابيل فيريرا ... إغواء فيريرا الذي زج به في الظلام مثله ، وها هو ذا الآن يدعوه ليسير على دربه .

- لقد سمعت هذه الأصوات بدوري ، سمعت أنين الرجال الذين علقوا في الأخدود .

فيما كان فيريرا ينهي كلماته ، بلغت الأصوات التي تشبه الشخير مسامعهما ، مرتفعة حيناً ، خفيضة حيناً آخر ، لكن الراهب كان يعلم الآن جلية الأمر ، كانت لهاث وأنين بشر عاجزين ، تدلوا في أخدود العذاب .

بينما هو مقعي هنا في الظلام ، ثمة من يئن ، والدم يتقاطر من أنفه وفمه ، إنه حتى لم ينتبه إلى هذا ، لم يرتل صلاة ، وإنما ضحك ، أذهلته هذه الفكرة بذاتها ، لقد حسب هذا الصوت شيئاً يبعث على الضحك ، وقد أغرب في الضحك بصوت عال ، لقد صدق في عماء غروره أنه هو وحده في هذه الليلة يشارك ذلك الرجل عذابه ، ولكن ها هنا إلى جواره تماماً أناس يشاركون في العذاب ، على نحو يفوقه كثيراً

غمغم صوت ، لم يكن صوته ، في أعماقه : لم هذا الجنون ؟ أتدعو نفسك راهبا؟ راهب أخذ على عاتقه أن يحمل عذاب الآخرين ؟ صاح بصوت عال :

- إلهي ! أكنت حتى هذه اللحظة تسخر مني ؟

- «مجدوا الرب» . لقد حفرت هذه الكلمات على الحائط .

كرر فيريرا قوله ، وأضاف :

- ألا تستطيع العثور عليها ، ابحث مرة أخرى !

جرف الغضب الراهب ، صاح بصوت أكثر ارتفاعاً عن ذي قبل :

- أعرف . صمتاً ! ليس من حقك الحديث على هذا النحو.

- ليس من حقي ؟ يقيناً ، ليس من حقي ، أصغيت طوال الليل إلى أصوات الأنين هذه ، فما عاد بمقدوري أن أمجد الرب ، لم أرتد لأنني علقت في الأخدود ، طوال ثلاثة أيام ، أنا ، من يقف أمامك ، علقت في أخدود امتلأ بالبراز المتحلل ، لكني لم أفه بكلمة واحدة تخذلني أمام الرب .

رفع فيريرا صوتاً ، بدا كالهدير ، وهو يصيح :

- إن السر في ارتدادي ... هل أنت على استعداد للسماع ، اصغ ! لقد زجوا بي هنا ، وأصغيت إلى أصوات هؤلاء الناس ، الذين لم يجترح الله شيئا من أجلهم .. لم يأت شيئاً واحداً من أجلهم ، توسلت ضارعاً بكل قوتي ، لكن الله لم يصنع شيئاً .

- صمتاً !

- ليكن ، تضرع إليه ،لكن أولئك المسيحيين يعانون عذاباً رهيباً ، لا يمكن لك

حتي أن تفهمه ، منذ الأمس ، المستقبل ، والآن في هذه اللحظة عينها .لم ينبغي أن يذوقوا العذاب على هذا النحو ؟ وفيما هذا يحدث فإنك لا تفعل لهم شيئا ، والله .. إنه لا يفعل شيئا بدوره .

هز الراهب رأسه مهتاجاً ، وضع سبابتيه كلتيهما في أذنيه ، لكن صوت فيريرا اندلع ، دونما رحمة إلى سمعه ، متشابكاً مع أنين المسيحيين . كف ! كف ! يا إلهي حان الأوان كي تكسر هذا الصمت . ينبغي ألا تظل صامتاً ، برهن على أنك العدل ، أنك الخير ، أنك الحب ، ينبغي أن تقول شيئاً ؛ لتظهر للدنيا أنك الجلال .

ارتمي ظل هائل على روحه ، مثلما يرتمي ظل جناحي طائر محلق على شراع سفينة . أعاد جناحا الطائر إلى ذهنه ذكرى الطرق العديدة التي لقى المسيحيون حتفهم بها . في ذلك الوقت أيضاً كان الله يعتصم بالصمت ، حينما هطل المطر وسط الغمام على البحر كان صامتاً ، حينما قتل الأعور تحت أشعة الشمس الوهاجة ، لم يقل شيئاً ، ولكن وقتها كان بمقدور الراهب احتمال الأمر ، أو بالأحرى كان قادراً على أن يدفع الشك الرهيب بعيداً عن أعتاب ذهنه . أما الآن فالأمر مختلف . لم يواصل الرب صمته فيما هذه الأصوات المتألمة تتصاعد ؟

– إنهم الآن في ذلك الفناء .

تناهى صوت فيريرا الأسيف ، هامساً إلى مسمعه .

– ثلاثة مسيحيين تعساء معلقون الآن ، علقوا هناك منذ قدومك .

لم يكن العجوز يكذب ، أرهف السمع ، فجأة تكشف الأنين ، الذي بدا صوتاً واحداً عن صوت مزدوج ... صوت يئن عالياً (أبداً لم يخفت)

تشابك الصوت المرتفع مع الصوت الخفيض ، صادرين عن شخصين مختلفين .

– حينما أمضيت تلك الليلة هنا ، كان هناك خمسة أشخاص علقوا في الأخدود ... خمسة أصوات تناهت إلى سمعي ، مع زفيف الريح ، قال رجل الحاكم :

«لئن صبأت ، لنخرجن هؤلاء الناس من الأخدود ، نحطم اغلالهم ونضع دواء على جراحهم» أجبت : «ولم لا يرتد هؤلاء الناس؟» ضحك رجل الحاكم ورد قائلا : «لقد صبئوا مرات عديدة ، لكنك مادمت لم تصبأ فلا مجال لإنقاذ هؤلاء الفلاحين» .

من بين دموعه ، قال الراهب :

– وأنت ... أنت كان عليك أن تصلي .

– لقد صليت ، وواصلت الصلاة ، لكن الصلاة لم تجترح شيئاً ، لتخفف عذابهم ، شق ما خلف آذانهم ، وانسكب الدم وئيداً ، عبر هذا الشق ، وخلال الأنف والفم . أعرف ذلك حق المعرفة ؛ لأني جربت هذا العذاب ذاته ، حينما أنزل ببدني . الصلاة لا تجترح شيئاً لتخفيف العذاب .

تذكر الراهب كيف أنه لاحظ حينما التقى فيريرا ، لأول مرة ، في سايشوجي ، آثاراً تشبه أثر الحرق في صدغيه ، بل تذكر لون الجرح البني ، الآن تصاعد المشهد كاملاً ، خلف جفنيه المغمضين ، راح يلطم رأسه بالحائط ؛ ليطرد ما تخيله من ذهنه ، وقال :

– سيلقى هؤلاء الناس بهجة أبدية ، نظير هذا العذاب ، الذي لاقوه في الأرض.

قال فيريرا :

– لا تخدع نفسك ! لا تخف وهنك وراء تلك الكلمات المزوقة !

– وهنى ؟

هز الراهب رأسه نافياً ، لكن ثقته بنفسه كانت قد تبددت ، قال :

– ماذا تعنى ؟ إنما بسبب ايمانى بخلاص هؤلاء الناس ...

– إنك تضفى على نفسك اهمية تفوق ما لهم ، أنت مشغول بخلاصك ، لئن قلت إنك سترتد فإن هؤلاء الناس سيرفعون من الاخدود ، سينجون من العذاب ، وها أنتذا ترفض أن تفعل ذلك ، وما هذا إلا لأنك ترتعد فرقاً من أن تخذل الكنيسة ، ترتعد فرقاً من أن تغدو طريد الكنيسة مثلى .

اندلعت كلمات فيريرا حتى الآن فى نفس واحد من غضب ، لكن صوته راح يتخاذل تدريجياً ، وهو يقول :

– رغم ذلك ، فقد كنت فى موضعك ، فى تلك الليلة السوداء الباردة ، كنت مثلما أنت الآن ، ومع هذا أتسلك الآن مسلك الحب ؟ ينبغى على الراهب أن يحيا مقتديا بالمسيح . ولو أن المسيح كان هنا ...

لزم فيريرا الصمت لحظة ، ثم فجأة انطلق متحدثاً ، بصوت قوى :

– يقينا لصبأ من أجلهم .

تراجع الليل ، متخاذلاً أمام الفجر ، بدأت الزنزانة ، التى ظلت حتى الآن كتلة من ظلمة فاحمة ، تأتلق بحجر واهن من نور شاحب .

– يقيناً كان المسيح سيرتد عن دينه لمد يد العون لهم .

قال الراهب ، حاجباً وجهه بكفيه ، وقد تشنج صوته ، منساباً من خلل

أصابعه :

- لا . لا . لا . لا .

- من أجل المحبة كان المسيح سيرتد ، حتى لو كان ذلك يعنى التخلى عن كل ما يحظى به .

- كف عن تعذيبي ! إليك عنى ، إليك !

صاح بها الراهب مهتاجا ، لكن الرتاج كان قد نزع عن موضعه ، وفتح الباب. فتدفق ضياء الصباح الشاحب ، إلى الزنزانة .

قال فيريرا ، ممسكاً فى رفق بكتف الراهب :

- ستؤدى الآن أكثر أعمال المحبة ، التى اجترحت حتى الآن ، إيلاما .

اجتر الراهب قدميه عبر الدهليز متعثراً ، تقدم خطوة فخطوة ، كما لو كانت اغلال ثقيلة من الرصاص تثقل قدميه ، مضى به فيريرا قدماً ، في غبش الصباح الرفيق بدا الدهليز بلا انتهاء . لكن هناك ، في النهاية ، انتصب المترجم ، ومعه حارسان ، وقد لاحوا كالدمى السوداء تماما .

- سوانو ، هل انتهى الأمر ؟ أنخرج الأيقونة ؟

قالها المترجم ، واضعا الصندوق ، الذى كان يحمله ، على الأرض ، أخرج منه لوحة منقوشة من الخشب .

- ستؤدى الآن اكثر أعمال المحبة ، التى اجترحت حتى الآن ، إيلاماً .

كرر فيريرا قوله السابق ، فى رفق ، وأضاف :

- سيدينك اخوانك في الكنيسة ، مثلما أدانونى ، لكن ثمة ما هو اكثر أهمية من الكنيسة ، أكثر أهمية من الدعوة : هو ما توشك الآن على اجتراحه .

هى ذى الأيقونة ، الآن ، عند قدميه .

ثبتت مطروقة نحاسية ، ساذجة ، على كتلة مرمدة من الخشب القذر ، جرى تجذعها مثل موجات صغيرة ، امتد امامه وجه المسيح ، القبيح ، متوجاً بإكليل من الشوك ، والذراعان ، الناحلان ، الممتدان على اتساعهما . تطلع الراهب ، بعينين غائمتين ، مضطربا ، فى صمت ، إلى الوجه ، الذى يصافحه الآن ، للمرة الأولى، منذ هبط هذه الأرض .

قال فيريرا :

- آه ! تشجع !

- إلهى ، منذ زمن بعيد ، بعيد ، أمعنت التفكير مرات لا حصر لها فى محياك، عشرات المرات جال بخاطرى ، خاصة منذ هبطت هذه الأرض ، حينما اختفيت فى جبال توموجى ، حينما عبرت إلى الجزيرة ، فى قارب صغير ، حينما ضربت ضائعاً فى شعاب الجبال ، حينما رقدت فى ليل السجن ، حينما كنت أصلى ، كان محياك يتجلى لى ، وحيداً كنت أمعن التفكير فى محياك ، وأنت تمنح البركات ، وحينما ظفر بى شانئىّ، منحنى محياك ، على نحو ما بدا حينما حملت الصليب ، الحياة ، عميقاً حفر هذا المحيا فى روحى ، الشيء الأكثر بهاء ، والأقرب إلى القلب ، فى الدنيا ، كان يحيا فى قلبى ، الآن بهذه القدم سأدهسه .

لاحت أشعة الشمس الأولى ، تألق النور على عنقه الطويل ، الممتد ، كعنق دجاجة ، وعلى كتفيه الهزيلين . أمسك بالأيقونة بيديه ، قريبها من عينيه ، ود لو ضم إلى وجهه ذلك الوجه الذى دهسته كل هذه الاقدام الكثيرة ، حدق دائباً ، بنظرة محزونة ، فى الرجل ، الذى يتوسط الأيقونة ،

وقد أبلته ، ودفعته غائراً في الخشب ، دهسات لا تفتأ تتكرر . تحدرت دمعة من عينيه .

– آه ، الالم .

قالها مرتعداً .

– إن هو الا اجراء شكلي ، ما أهمية الشكليات ؟

راح المترجم يستحثه ، أضاف :

– ما عليك إلا أن تجتاز الإجراء الشكلي بالدهس .

رفع الراهب قدمه ، أحس بألم ثقيل كئيب ينتابها ، ليس هذا اجراءً شكلياً ، لسوف يدهس الآن ما كان يعده أكثر الأشياء بهاء في الحياة ، يدهس ما عده اكثر الأشياء نقاء ، يدهس ما أفعمه بالمثل العليا ، وبأحلام الانسان ، لشد ما تؤله قدمه . عندئذ ، حدثّ المسيح ، القابع في البرونز ، الراهب : «ادهس! ادهس! إنني أعرف ، خيراً من الجميع ، الألم ، الذي يعترى قدمك . ادهس ! فقد جئت إلى هذه الدنيا ليدهسنى البشر ، حملت صليبى لأشارك الناس ألمهم ....» .

وضع الراهب قدمه على الأيقونة . اندلع الفجر ، وفى البعيد صاح الديك .





الفصل التاسع

لم ينهمر المطر مدراراً في ذلك الصيف . في هدأه المساء ، كانت نجازاكي تتقد بالحرارة والرطوبة ، كحمام بخار ، حين يترامى الغسق ، يدفع النور ، المنعكس عن الخليج ، المرء للإحساس بالحر خانقاً ، تدلف العربات ، التي تجرها الثيران ، إلى المدينة ، مثقلة بأجولة القش ، فتتألق العجلات ، مرسلة سحباً من الغبار الأشهب ، وحيثما مضى المرء ، اشتم الهواء مثقلاً برائحة السماد .

انتصف الصيف ، تدلت القناديل من طنف النور ، وأركان المتاجر الضخمة ، حيث زخرفت بالزهور والطيور والفراشات ، ورغم أن المساء لم يزح أستاره بعد ، فقد تجمع الأطفال ، صائحين بأغنيتهم :

أيها القنديل ، وداعاً ، وداعاً ، وداعاً ،

إذا حصبته بحجر تشل يدك .

أيها القنديل ، وداعاً ، وداعاً ، وداعاً ،

إذا حصبته بحجر تشل يدك .

انحنى مطلاً من النافذة ، وراح يترنم بالأغنية ، هامساً بها لنفسه ، لم يفهم مغزى ما يصدح به الأطفال ، لكنه كان بشكل ما يعانق شيئاً حزيناً ، يحفه الشجن . لم يدر ما إذا كان هذا نابعاً من الأغنية في ذاتها ، أم من قلب من يشدو بها .

في الدار المجاورة ، كانت امرأة ، متهدلة الغدائر حتى الخصر ، تعد ثمار

الخوخ والعناب والبقول على أحد الرفوف . كان هذا الرف مخصصاً لأرواح الموتى، وكان العيد أحد الاحتفالات التي يقيمها اليابانيون ؛ ليبعثوا العزاء في الأرواح ، التي يفترض أنها تعود في اليوم الخامس عشر ، بعد رحيلها ، إلى دورها . لم يعد المشهد بالنسبة له مناسبة نادرة ، فهو يتذكر على نحو غامض أنه قرأ شيئاً عنه في القاموس الهولندي ، الذي أعطاه فيريرا إياه .

انغمس الأطفال في عبثهم ، اصطفوا وراحوا يحملقون فيه ، بينما كان مطلاً من النافذة ، ظلوا يصيحون : «بولس المرتد ، بولس المرتد !» بل وألقى البعض بالأحجار عبر ، النافذة .

- أولاد أشقياء !

قالتها المرأة ذات الغدائر ، منثنية توبخ الأطفال ، وتطردهم بعيداً ، راقبهم يعدون بعيداً بابتسامة حزينة ، فكر في عيد كل القديسين في لشبونة ، تأمل أوجه الشبه بهذا العيد ، هذا العيد الذي توقد الشموع خلاله في نوافذ لشبونة .

كانت داره تقع في سوتوراماسي ، فوق أحد المنحدرات العديدة في نجازاكي ، وما كان له أن يغادره ، الا بتصريح من ديوان الحاكم . كانت تسليته الوحيدة أن يطل من النافذة ، مشاهداً الناس في غدوهم ورواحهم . في الصباح ، تمر النسوة حاملات صناديق الخضر على رءوسهن ، قادمات إلى المدينة من أومورا و ايساهايا ، عند الظهيرة يقطع الطريق رجال ، لا تسترهم الا أثواب شدت حول خواصرهم ، يغنون بأصوات مرتفعة ، تتبعهم خيول ناءت ظهورها بما تحمل . في المساء ، يهبط المنحدر كهنة يقرعون أجراسهم . كان ينظر إلى مشاهد حياة اليابان تلك متشرباً التفاصيل جميعها ، كأنما كان عليه ، عقب ذلك ، أن يصفها لشخص ما ، حين يعود إلى داره في وطنه ، عندئذ يخطر بباله أنه لن يرى أرضه كرة أخرى ، فتعبر ظلال ابتسامة استسلام مريرة وجنتيه .

في مثل هذه المناسبات ، تطفو مشاعر اليأس في صدره ، بينما يعكف على تأمل الأمر بأكمله . لم يدر ما إذا كان المبشرون في ماكاو وجوا قد سمعوا بارتداده ، لكنه توصل مما سمعه من التجار الهولنديين ، الذين يسمح لهم بدخول البلاد في ديجيما ، إلى أن النبأ ربما كان قد بلغهم . وهذا يعنى أنه طرد من رحاب الإرسالية .

لم يطرد من الإرسالية فحسب ، وإنما جرد من حقوقه كراهب كافة ، وربما كان الدعاة ينظرون إليه بحسبانه خارجاً عن الدين ، كان يغمغم محدثاً نفسه عاضاً شفتيه : «ما أهمية هذا كله ، ليسوا هم الذين يحكمون على قلبي ، وإنما إلهنا» .

رغم ذلك ، فثمة أوقات في الليل تصاعد هذه الرؤية أمام عينيه ، وتعصف الفكرة المعنبة بروحه ، عندئذ يصرخ ، دونما وعي ، ويقفز من فراشه ، كأن التحقيق يطارده ، كالحكم الاخير يوم الدينونة ، متوهجا بالحياة وبالتجسد .

– ماذا تفهمون ؟ أنتم أيها الرؤساء في ماكاو وأنتم في اوربا !

أراد أن يناظرهم وجهاً لوجه ، في الظلمة ، وأن يدافع عن نفسه :

– إنكم تحيون حياة هادئة ، ناعمي البال ، في «بلهنية» ، في مكان لا تهب فيه عاصفة ، ولا يحل عذاب بساحة أحد ... إلى ها هنا ينبغي أن تحملوا لواء الدعوة ! هناك توقرون بحسبانكم قصص الرب العظيمة ، ترسلون بالجنود إلى ساحة المعركة المحتدمة ، لكن القادة ، الذين يصطلون ، إلى جوار النار ، في خيمة ، لا ينبغي أن يوجهوا اللوم إلى الجنود ، الذين ظفر العدو بهم أسرى ... (ولكن كلا ، لا يعدو أن يكون هذا تبريراً أصطنعه لذاتي ، إنني أخدع نفسي)

هزّ الراهب رأســه ، فى وهـن (لم أحاول حتى الآن القيـام بهـذا الدفاع البشع عن الذات ؟) .

لقد سقطت ، ولكن يا إلهى ، أنت وحدك تعلم أننى لم أتنكر لإيمانى . لسوف يتسـاءل رجـال الدين لم زلت قـدمي . أكان ذلك لأن عذاب الأخدود كان أمراً عصى الاحتمال ؟ أجل ، فمـا كان بمقدورى احتمـال أنين أولئك الفلاحين المعلقين فيـه ، وفيما راح فيريرا ينفث كلماته الغاوية ، ظننت أننى حين أرتد فإن أولئك الفلاحين البؤساء سيعرفون طريق الخلاص . أجل ، كان الأمر كذلك . ورغم ذلك فإنى أتساءل فى نهاية الأمر عما إذا كان هذا الحديث عن المحبة لا يعدو فى نهاية الأمر أن يكون تعلة نتعلل بها لنبرر ضعفنا .

إنى لأقر بهذا ، فلست أخفى ضـعفى ، وإنى لأتساءل عمـا إذا كان ثمة مـا يميزنى عن كيشيجيرو ، ورغم ذلك فإنى أعلم أن إلهى مختلف عن الرب ، الذى يكرز باسمه فى الكنائس .

قبعـت ذكرى هـذه الأيقونة ، تلك الصـورة الحـارقة ، وراء جفنيه . لقد وضـع المترجم عـند قدمه كتلة خشبية ، عليها قطعة من نحـاس ، حفر فيهـا صـانع يابانى مـحيا ذلك الرجل ، لكن ذلك المحيا كان مـختلفاً عن ذلك الذى تأمله فى البرتغال ، روما ، جوا ، وماكاو . لم يكن مسيحاً أفعم محياه . جلالاً ومجداً ، لم يكن وجـهاً وسـمه بالبـهاء احتمـال الألم ، كمـا لم يكـن مـحيا يفيض بقوة الارادة ، التى ترد الغـواية . كان مـحيا الرجل ، الذى قبع عند قدميـه آنذاك مهزولاً ، شفه الاعياء .

دهس الكثيرون من المسيحيين بأقدامهم حتى اسودّ الخشب المحيط به من آثار الاقدام . أما الوجه ذاته فقد تقصر من طول الدهس . هذا الوجه المقصر هو الذى

نظر إلى الراهب فى أسى ، راح يحدثه فى شجن ، كأنما العينان تتحدثان ، وتناشدان : «ادهس ! ادهس ! إنى هنا لتدهسنى » .

فى كل يوم كانوا يمضون به للتحقيق على يدى «الأوتونا» ، وهو من الشخصيات القيادية بالمدينة ، ويعد ممثلاً لها ، فى كل شهر كان يقبل بأردية مختلفة ، ثم دفع به إلى ديوان الحاكم .

مرات عديدة استدعاه رجال الحاكم ، عن طريق الأوتونا ، ثم دفع به مجدداً إلى الديوان ، ها هنا كانت تعرض عليه أشياء معينة ، عجز رجال الحاكم عن الحكم عليها ، وكانت وظيفته أن يقرر ما إذا كانت ذات صبغة مسيحية ، كانت بحوزة الأجانب القادمين من ماكاو أشياء شتى غريبة ، وكان فيريرا أو الراهب وحدهما بمقدورهما أن يحكما ، على الفور ، بما إذا كانت تنتمى إلى نوعية الاشياء ذات الصبغة المسيحية ، التى يحظرها القانون . حينما ينتهى عمله يتلقى بعض الفطائر أو النقود من ديوان الحاكم ، مكافأة على عمله .

كلما مضى إلى ديوان الحاكم فى ماكاتا ، ألفى المترجم المعهود ذاته ورجال الحاكم عينهم هناك ، فيحيونه دائماً بروح المجاملة . لم يكن ثمة مجال اطلاقاً لإذلاله ، أو معاملته باعتباره مجرماً ، بل الأمر على العكس من ذلك ، فقد كان مسلك المترجم يوحى بأنه لا يتذكر اطلاقاً ما حدث فى الماضى ، أما هو فقد كان يبتسم ، وكأن شيئاً لم يكن . رغم ذلك ، فما أن تطأ قدمه أرض المكان حتى يحس بألم طاغ ، يعيد إليه ذكرى : لا يستطيع أى منهما أن يقربها ، وإنما يتعين عليه تجنبها دائماً ، كان الأمر يتصاعد على نحو خاص ، حينما يمر بغرفة الانتظار ، لأنه من خلالها كان يمكن أن يلمح الدهليز المظلم ، على مبعدة من الفناء ، ها هنا، فى ذلك الصباح

الشاحب ، هوى في حضن فيريرا ، من ثم اعتاد أن يشيح بوجهه، في عجلة يشوبها الحرج .

أما عن فيريرا فقد حظرت عليه مقابلته حسب مشيئته . كان يعلم أنه يقطن في تيرماشي ، قرب سمايشوجي ، لكن تبادل الزيارات كان محظوراً عليهما . والمرة الوحيدة التي التقيا فيها حدثت حينما أقبلا إلى ديوان الحاكم ، بصحبة الأوتونا ، كانا ، كلاهما ، يرتديان الملابس ، التي تلقياها من الديوان ، حيا أحدهما الآخر بلغتهما اليابانية الغريبة ، حتى يمكن للأوتونا أن يعرف ما يقولانه .

في الديوان ، حرص على التظاهر بالهدوء التام ، لكن مشاعره حيال فيريرا كانت تستعصي على الكلمات ، تضاربت في فؤاده مشاعر متشابكة ، كتلك التي يمكن أن تسود قلبي رجلين ، يواجه أحدهما الآخر ، لئن كان يكره فيريرا ، فذلك لا يرجع إلى أنه الرجل الذي قاده إلى السقوط ، (لم يشعر بكره أو مقت جراء هذا) وإنما لأنه يجد في فيريرا جرحه الغائر ، على نحو ما هو عليه تماماً . كان شيئاً لا يطاق أن يرى وجهه القبيح ، على صقال وجه فيريرا ... فيريرا الجالس أمامه مرتدياً الملابس اليابانية عينها ، مستخدماً اللغة اليابانية ذاتها ، ومثله مطروداً من رحاب الكنيسة .

ها ! ها ! ها !

كان فيريرا ينبعث ضاحكاً ، بصوت مستخز ، أمام رجال الحاكم .

– هل جاءت الشركة الهولندية إلى إيدو ؟ في الشهر الماضي ، حينما كنت في ديجيما ، كانوا يقولون إنهم سيمضون إلى هناك .

يحدق الراهب صامتاً في فيريرا ، يلتقط مشهد العينين الغائرتين والكتفين

المتهدلتين ، يصغى إلى الصوت الأجش . لقد غربت الشمس على هاتين الكتفين في سايشوجى ، حينما التقيا لأول مرة ، هوت اشعة الشمس ، وكأنها تسوط هاتين الكتفين .

لم تقتصر مشاعره ، حيال فيريرا ، على الازدراء والكراهية فحسب ، وإنما كان هنالك كذلك شعور بالإشفاق ، شعور مشترك بالإشفاق على الذات ، بين رجلين اقتسما المصير ذاته . أجل كانا يشبهان توأمين بشعين . جالت بخاطره هذه الفكرة فجأة ، فيما كان يتطلع إلى ظهر فيريرا ، كل منهما يكره قبح الآخر ، يزدرى الآخر ، لكن هذا ما كانا عليه ... توأمان لا يفترقان .

حين ينتهى عمل ديوان الحاكم ، يكون الليل عادة قد أرخى سدوله ، تندفع الخفافيش بين البوابة والأشجار ، تدف عبر السماء الأرجوانية ، يومىء رجلا الاوتونا ايماءة العارف بجلية الأمر أحدهما للآخر ، وينطلق كل منهما بالأجنبى الذى عهد به اليه ، ذات اليمين وذات اليسار ، وفيما يرحل إلى البعيد يختلس النظر نحو فيريرا ، يلقى فيريرا بدوره نظرة مختلسة نحوه ، لن يلتقيا إلا فى الشهر المقبل . وحينما التقيا ، لم يستطع أحدهما أن يسبر أغوار عزلة الآخر .

الفصل العاشر

مقتطفات من يوميات جوناسين

الكاتب بالشركة الهولندية فى دجيما بنجازاكى

يوليو ١٦٤٤ (يونيو ، عام الشوهو الأول)

الثالث من يوليو : غادرت السفن الصينية المرفأ ، تم الحصول على تصريح للسفينة «ليلو» بالرحيل ، فى الخامس من يوليو ، ينبغى أن تنقل إليها غداً الفضة، إمدادات حربية ، بضائع مختلفة ، مع إنهاء كل التجهيزات .

الثامن من يوليو : تمت تسوية الحسابات الختامية مع التجار ، الصيارفة ، أصحاب الدور ، والسيد شيرويمون . دونت بأمر الرئيس أوامر بشأن البضائع المرسلة إلى هولندا ، ساحل كورومانديل ، وسيام ، على أن تشحن فى الرحلة التالية .

التاسع من يوليو : اكتشفت أيقونة للعذراء مريم ، فى دار أحد المواطنين هنا ، زُج بأهل الدار تواً فى السجن ، ومنه إلى التحقيق ، تبع ذلك البحث عن الرجل الذى باعهم إياها والتحقيق معه ، يقال إن الراهب سوانو شوان ، وهو من الصابئة ، والراهب رودريجيز ، وهو من الصابئة البرتغاليين كذلك ، قد شهدا التحقيق .

قبل ثلاثة أشهر ، عثر على عملة معدنية ، تحمل صورة أحد القديسين فى دار مواطن هنا ، وتقول شائعة إن أهل الدار جميعاً قد اعتقلوا ، ووضعوا تحت التعذيب ؛ لإجبارهم على التخلى عن دينهم ، إلا أنهم رفضوا الردة ، ناشد

الراهب رودريجيز ، الصابىء البرتغالى ، الحكومة الرحمة مراراً ، لكن احداً لم يصغ إليه ، فقد حكم عليهم بالاعدام ، ويقال إن الرجل وزوجه وابنيهما حلق نصف شعر روسهم ، وجرسوا فى المدينة ، على ظهور خيول مهزولة ، طوال اربعة ايام . وقد سمعت أن الأبوين أعدما ، قبل أيام ، بالتعليق من الأقدام ، وأن الابنين قد أودعا السجن ، بعد رؤية هذا المشهد .

رست بالمرفأ ، حوالى وقت الغروب ، سفينة صينية ، كانت حمولتها تتألف من السكر والآنية وكمية محدودة من الحرير المنسوج .

الفاتح من أغسطس : وصلت سفينة صينية قادمة من فوشو ، وعليها بضائع متنوعة ، فى حوالى الساعة العاشرة ، تعرف الحرس هوية سفينة مبحرة ، على بعد ستة أميال ، خارج خليج نجازاكى .

الثانى من أغسطس : بُدىء فى الصباح تفريغ السفينة المذكورة ، بأعلاه ، وقطع شوط طيب فى ذلك .

حوالى الظهيرة ، أقبل كاتب الحكومة ومساعده إلى حجرتى ، يتبعهما جمع من المترجمين ، وجرى سؤالى لمدة ساعتين ، وكان السبب فى ذلك أن سوانو شوان ، الصابىء ، الذى يقيم فى نجازاكى ، و رودريجيز ، الصابىء البرتغالى ، قد أبلغاهما بأن قرارا اتخذ فى ماكاو بإرسال رهبان على متن سفن هولندية من الهند ، ويقول سوانو إن الرهبان سيختفون من الآن فصاعدا تحت ستار القيام بأعمال وضيعة ، يعهد بها الهولنديون اليهم . وقد حذرنا الكاتب قائلاً إن الشركة ستواجه صعوبات خطيرة ، إذا ما وقع شىء كهذا ، ونصحنا بالتزام الحرص البالغ ، فإذا ما جاء راهب إلى اليابان من الآن فصاعدا على متن سفننا ، ووجد من المستحيل الهبوط إلى البر ، بسبب اليقظة فى المراقبة ، وحاول العودة على سفننا من حيث جاء ، وتم الامساك به ، فإن ذلك سيجر الخراب على الهولنديين ،

وأعلن أنه من حيث إن الهولنديين يدعون أنفسهم برعايا سموه الامبراطورى ورعايا اليابان ؛ فمن الطبيعى أنهم يستحقون العقاب ، شأنهم فى ذلك شأن اليابانيين ، إذا ما تورطوا فى مثل هذا الأمر . وسلمنى بيانا باللغة اليابانية ، أصدره الحاكم ، نصه كالتالى :

ترجمة البيان

«شهد الراهب سوانو ، الذى ألقى ملك هاكاتا القبض عليه ، فى العام الماضى، أمام السلطات العليا فى إيدو ، بأن هناك الكثيرين من الكاثوليك الرومان بين صفوف الهولنديين وفى هولندا ، وأكد كذلك أن الهولنديين قد استقدموا رهباناً فى كمبوديا ، وأعلنوا أنهم ينتمون إلى المذهب ذاته ، وأنه تقرر التحاق الرهبان بالشركة الهولندية فى اوربا كعمال وبحارة وذلك للابحار إلى نجازاكى باليابان على ظهر سفن الشركة . ولم تستطع الحكومة تصديق الأمر ، وتشككت فى أنه ينوى الاساءة للهولنديين بالشهادة ضدهم ؛ حيث إن البرتغاليين والأسبان فى عداء عظيم مع الهولنديين ، لكن سوانو شوان أكد أن هذا ليس افتراء ، وإنما هو حقيقة ؛ ولهذا السبب فإن الحاكم يأمر الرئيس بالتحرى عما إذا كان هناك كاثوليك رومان بين ضباطه وبحارته ، وإذا كان الحال كذلك ، فعليه الإبلاغ عنه ، فإذا ما عثر مستقبلاً على كاثوليكى رومانى قادم إلى اليابان ، عن طريق سفينة هولندية ، دون أن يتم ابلاغ الحاكم ، فإن الرئيس سيواجه مأزقاً خطيراً» .

الثالث من أغسطس : تم الانتهاء ، وقت الغروب تقريباً ، من تفريغ السفينة المشار إليها بأعلاه ، سأل الحاكم اليوم عما إذا كان على ظهر هذه السفينة مدفعى يمكنه استخدام مدفع هاون . تم إرسال بولس فير ، الكاتب المساعد ، إلى السفينة للقيام بالاستفسارات اللازمة ، ولكن لم يتوافر المطلوب ، وتم ابلاغ ذلك .

أمرني الحاكم بالاستفسار عن هذا في كل سفينة تأتي من الآن فصاعدا ، وبإبلاغ الأمر ، إذا كان هنالك مثل هذا المدفعي .

الرابع من أغسطس : في الصباح ، زار السفينة السيد هونجو ، وهو ساموراى صغير الرتبة مندوبا عن الحكومة ، وقام بتفتيشها بدقة ، حتى شمل التفتيش الصناديق ، الملقاة في الأركان جميعها ، قال إن هذا التفتيش الدقيق يرجع إلى الراهبين الصابئين في نجازاكي ، اللذين شهدا أمام السلطات العليا بأن كاثوليك رومان في صفوف الهولنديين قد يجيئون على متن السفن الهولندية ، وقال إنه لولا هذا التشكك الجديد ، لكان التفتيش أخف وطأة عن العام الماضي ، وأوضح هذا لضباط السفينة كذلك . بناء على طلبهم ، صعدت إلى ظهر السفينة بنفسي ، وفي وجودهم نصحت البحارة بأنه إذا كان أحدهم قد خبأ أي شيء له علاقة بالمذهب الكاثوليكي الروماني ، فعليه بإبرازه ، ولن يتعرض لعقاب ، وتلوت على مسامعهم بصوت عال القوانين واللوائح ، التي ينبغي على بحارة السفن الالتزام بها ، وبما أن السيد هونجو قد رغب في اطلاعه على ما قلت لهم ، فقد أوضحت له الأمر تفصيلاً ، عندئذ غادروا المكان ، قائلين إنهم سيرفعون هذا للحاكم ، ليصفو خاطره .

عند الغروب تقريباً ، رست سفينة صينية بالمرفأ قادمة من شوانشو ، تألفت حمولتها الرئيسية من الأقمشة رقيقة النسج والأطلس والكريب الصيني ومنسوجات أخرى قيمتها المقدرة هي ثمانون خاناً ، يضاف إلى هذا السكر وبضائع متنوعة .

السابع من أغسطس : شدّ وثاق الابنين ، اللذين سبق أن ذكرت نبأ اعدام أبويهما ، وجرسا على ظهور خيول هزيلة ، مع ضحية ثالثة ، مروا قرب الشركة ، إلى ساحة الاعدام ، حيث قطعت رءوسهم .

١٦٤٥ (نوفمبر ، ديسمبر عام الشوهو الثانى) :

التاسع عشر من نوفمبر : وصلت سفينة صينية قادمة من نانكينج ، وعلى متنها بضائع ، قيمتها ثمانمائة أو تسعمائة خان ، بينها حرير خام ابيض واقمشة رقيقة النسج وأطلس مصنع وقماش مقصب بالذهب ودمقس وما إلى ذلك . وجلبت معها انباء مفادها أن ثلاث أو أربع سفن ستصل إلى هنا ، فى خلال شهر ونصف الشهر . قيل لنا إن بوسعهم أن يحصلوا بسهولة على تصريح هناك بالإبحار كما يشاءون إلى اليابان ، إذا ما دفعوا المبالغ المستحقة للمندوب السامى ، التى تتراوح ما بين مائة إلى ستين تايل ، بحسب مقدار حمولاتهم .

السادس والعشرون من نوفمبر : وصلت سفينة صغيرة ، قادمة من شانج - شيو (ربما شانج - شو) بحمولة تتألف من الكتان وحجر الشب والأوعية ، تقدر بأكثر من ملء صندوقين ذهباً .

التاسع والعشرون من نوفمبر : أقبل مترجمان ، فى الصباح ، إلى مقر الشركة ، بناء على أمر من الحاكم وأريانى منظومة ، طبعت تحت صورة للعذراء مريم ، تقول :

«افرحى ، يا من أنعم الله عليها ، الرب معك ، مباركة أنت فى النساء» .

قالا إن هذه الصورة تم الحصول عليها من كاهن بالقرب من شيمونوسكي ، وسألانى بأى لغة كتبت وما معناها . قالا لى كذلك إن الراهب رودريجيز ، البرتغالى الصابىء ، وسوانو شوان ، قالا إنهما لا يستطيعان فهم هذه العبارة ، لأنها ليست مكتوبة باللاتينية أو البرتغالية أو الايطالية . كانت «السلام لك يا مريم» مكتوبة بالهولندية ، ومطبوعة على يد بلجيكى يتحدث لغتنا . يقينا إن سفننا هى التى جلبتها ، لكننى قررت التزام الصمت ، إلى أن يتم إجراء المزيد من

التحريات. أما عن الحروف فقد أجبت بالصحيح ، حيث إنه من المؤكد أن الراهب رودريجيز وسوانو شوان قد شرحا الأمر لهم .

الثلاثون من نوفمبر : عظيم ، في الصباح الباكر حملنا الموجه والبارود إلي سطح السفينة ، وانهينا تحميل باقي حمولتها ، توجهت في الظهيرة إليها ، تلوت أسماء أفراد الطاقم ، سلمت الوثائق ، ولدى عودتي إلي مقر الشركة ، استضفت بنجوى ومساعديه على مائدة حافلة بالطعام والشراب . قبل أن يحل الظلام ، انقلبت الريح شمالاً بغرب ، فلم تغادر «الأوفرشي» المرفأ .

الخامس من ديسمبر : حوالي الظهيرة ، جاء المترجم ؛ ليسألني عن الجهات التي نشتري منها البضائع ، التي نستوردها ، أجبته بأن الصين وهولندا هما المصدران الرئيسيان للإمداد ، أراد أن يعرف ما إذا كانت ستحدث ثغرة في الإمداد ، إذا ما كف الصينيون عن القدوم إلى اليابان .

حاولت الحصول على معلومات عن الرهبان الصابئين ، منذ وصولي إلى اليابان . يقال إن يابانيا يدعى توماسى أراكى قد مكث في روما طويلا ، وعمل ياورا للبابا ، وقد أقر بأنه مسيحي ، مرات عديدة ، أمام السلطات ، لكن الحاكم اعتقد أن الرجل خرف بحكم تقدمه في السن ، وتركه وشأنه ، وفيما بعد علق في الأخدود يوما وليلة ، فارتد ، غير أنه مات والإيمان ملء قلبه . وفي الوقت الحالي ، ليس هناك على قيد الحياة إلا اثنين ، احدهما برتغالي ، يدعى شوان ، كان فيما مضى الأسقف الموفد من جمعية اليسوع هنا ، وقد أظلم قلبه ، أما الآخر فهو راهب ، يدعى رودريجيز ، من لشبونه بالبرتغال ، وطئ الأيقونة المقدسة في ديوان الحاكم ، وكلاهما يقطن نجازاكي ، في الوقت الراهن .

التاسع من ديسمبر : قدمت للسيد سالبوروزيايمون علبة صغيرة ، تحتوى المراهم المنوعة ، كتلك التي أهديت للامبراطور وسيد شيكوجو ، وعقاقير أخرى ،

قبلها ممتنا ، ذكر أن الحاكم قد سر سرورا بالغا لمشاهدة القائمة المحلقة بالعلبة التي توضح باللغة اليابانية مفعول كل مرهم .

رست سفينة قادمة من فوشو فى المرفأ هذا المساء .

الخامس عشر من ديسمبر : غادرت المرفأ خمس سفن صينية .

الثامن عشر من ديسمبر : غادرت أربع سفن صينية المرفأ ، طلب أربعة أو خمسة من بحارة سفينة قادمة من نانكينج تصريحا بالذهاب إلى تونكينج أوكوشين ، على ظهر سفينة صينية أخرى ، لكن الحاكم رفض الاستجابة لطلبهم .

سمع أحد الملاك التجاريين لشركتنا بهذه الجزيرة بأن شوان ، الصابئ ، عاكف على كتابة العديد من الأشياء، عن الهولنديين والبرتغاليين ، وأنه سيبعث بها فى القريب العاجل للبلاط الامبراطورى . أوشكت أن اتمنى الموت لهذا الوغد ، الذى لا يتقى الله ، فلن تنال شركتنا إلا المتاعب بسببه ، لكن الله سيرعانا ويكفلنا بحمايته . رست سفينتان يابانيتان ، أمام مقر الشركة فى الأصيل ، سنرحل على ظهر إحداهما وأدوات الانتشال على الأخرى . مع المغيب تقريبا حضر المترجمون ، إلى مقر الشركة . مصطحبين الخدم لمرافقتنا إلى كاميجاتا . كان أحدهم منظفا للثياب ، يتحدث هولندية طليقة . أردت أن يمضى معنا ليعمل طاهيا ، لكن رينبى وكيشيبى أبلغانى بأن الحاكم حظر علينا أن نصطحب من يتحدث الهولندية . لم أثق بما يقولان ، واعتقدت أنهما كانا يريدان المضى فى الأمر ، على نحو ما يرغبان ؛ لذا قلت لهما إن اللغتين اللتين لا غناء عنهما هما اليابانية والهولندية ، وأن البرتغالية ، لا الهولندية ، هى اللغة التى ينبغى أن تكون موضع نفور ومقت ، وأنه ليس هناك مسيحى يابانى واحد يتحدث الهولندية ، فيما استطيع أن اسمى اثنى عشر مسيحيا يتحدثون البرتغالية .

الثالث والعشرين من ديسمبر : غادرت سـفينة صغـيرة من فوشو الميناء ، مع الغروب وصلت سـفينة صينيـة ضخـمـة ، عند فم الخليج ، وبسـبب الريح المعاكس ، قـامت زوارق التـجديف بقطـرها خـلال الليـل إلى نجـازاكى ، كـان هناك الكثـيرون على السـطح ، ومـعـهم الرايات الحـريرية ، وأحـدثوا ضـجـة عظيمة بالطبول والصنوج .

نجازاكى ، فى الفاتح من يناير : ثمة رجل يجوب الشوارع ، من دار إلى دار ، قـارعا طبلا كـالنقرزان ، وعـازفا على الناى . فـيمـا النسـوة والأطفـال يمنحـونه الهبات، من مـواضـعهم بالنوافذ التى أطلوا . منـها ، هذا هو اليوم الذى يقوم فيه شحـاذان أو ثلاثة من فوياتسـو وكاكويبار بتشكيل فـرقة تعتمر القبعات المدلاة بالأشرطة المزركشة ، وتجوب الشوارع ، مرددة أغنية تدعى «يارا» .

الثـانى من ينـاير : بدأ أول أعـمـال العـام فى دور التـجـار ، وهـا هـم يزينون حـوانيتهم ، منذ الفـجر ، مسـدلين سـتـائر جديدة على الأبواب ، وبائع ثمـار خيـار البحر يزور الدور جميعها .

الثـالث من ينـاير : النـاس يؤدون عـادة الدهس على الأيقـونـة، فى هذا اليـوم يمضى الأوتونا ، ومـعـهم علية القـوم ، ليتلقـوا خـشبـة الأيقونة قـادمين من إيدو ، امازاكارا، فوناتسو ، فو كورو ، ويمتحنون بها . حرص أهل كل دار على ممارسة عـادة وطء الأيقـونة بـأقدامـهم، عكفت الدور جمـيـعـها على تنظيف الطريق، وهـا هـم الآن ينتظرون جمـيـعـا فى هدوء الأوتونا وعلية القـوم ، أخيـرا ، من بعـيد ، يتـردد الإعـلان عن القـدوم بصـوت مـرنم، كـأنشـودة : «ها قـد أقبلوا ....». وفى كل دار، تصـطف العـائلة، فى غـرفـة إلى جـوار المدخل، يقف الجـمـيع منتـبـهين ، فـى انتـظار الحـفل ، الذى يوشك أن يبدأ. تبلغ الأيقـونة مـا يتـراوح من سبـع إلى تسـع بوصـات طولا ، وأربع إلى ست بوصـات عرضـا، وعليـهـا ثبتت صـورة للعذراء والوليد ، أول

من يدهس هو رب الدار ، ثم الزوجة ، فالأطفال . على الأم التي تضم وليدها بين ذراعيها أن تدهس أيضا ، وإذا كان ثمة مرضى بالدار ، فإنهم ينبغي أن يحملوا أيضا في حضور رجال الحاكم ، على لمس الأيقونة بأقدامهم ، من مواضعهم بفراش المرض .

في الرابع من يناير ، وعلى غير انتظار ، تلقى استدعاء من ديوان الحاكم . كان المترجم قد وصل ، وبصحبته محفة ، سكنت الريح ، لكن السماء لاحت كئيبة ، جهمة . كان يوما قرا (ترى هل يرجع ذلك إلى الاحتفال بدهس الأيقونة ؟) بدا الطريق المنحدر مختلفا تمام الاختلاف عنه في اليوم السابق ... إذ أصبح الآن ساكنا ، هادئا ، حد الموات ، كان أحد رجال الحاكم ، بزيه المراسمي ، في انتظاره بديوان الحاكم في هوناهاكنا ، قال :

- الحاكم ينتظرك .

جلس سيد شيكوجو ، منتصب القامة ، في القاعة ، التي وضعت بها مجمرة واحدة . حينما تناهى وقع الأقدام إلى مسمعه ، التفت بكليته إلى الراهب ، محولا نحوه ذلك الوجه ذا الأذنين الكبيرتين ، تلاعبت ابتسامة على شفتيه ، طائفة بخديه ، لكن صداها لم يتردد في عينيه .

قال :

- التحيات !

كان هذا لقاؤه الأول بالحاكم ، منذ ردته ، لكنه الآن لم يعد يستشعر العار ، في حضور هذا الرجل ، فهو لم يجالد سيد شيكوجو أو اليابانيين ، لقد أدرك تدريجيا أنه كان يجالد إيمانه ويقينه ، لكنه ما كان بمقدوره أن يتوقع تفهما من

سيد شيكوجو لشيء كهذا .

- مر وقت طويل منذ التقينا لآخر مرة .

أومأ إينوى ، مادا يديه فوق المجمرة ، أضاف :

- أحسب أنك ألفت نجازاكي تماما الآن .

ثم انثنى يسائل الراهب عما إذا كان يعاني أي مشقة ، طالبا أن يعلنه بذلك ، على الفور ، إن كان الأمر كذلك ، أدرك الراهب في الحال أن الحاكم يحاول تجنب أي اشارة إلى حقيقة ردته . أترى كان ذلك تقديرا لمشاعره ؟ أم هي ثقة المنتصر بنفسه ؟ بين حين وآخر ، كان الراهب يرفع عينيه المنكستين ، ليحدق في وجه الآخر ، لكن ملامح العجوز ، العارية من أي تعبير، لم تفصح له عن شيء .

- سيكون من الملائم لك ، في غضون شهر ، أن تمضي للإقامة في إيدو ، ثمة دار هناك أعدت لك أيها الأب ، إنها دار في كوبيناتشو ، المكان الذي اعتدت الإقامة فيه .

هل تعمد سيد شيكوجو استخدام كلمة «أب» ؟ لقد اخترقت مقاطعها لحم الراهب غائرة حتى العظام .

- بالإضافة إلى هذا ، وبما أنك ستقضي عمرك في اليابان ، سيكون خيرا لك أن تحمل اسما يابانيا ، من حسن الطالع أن رجلا يدعى أوكادا سانيمون قد لقي حتفه ، بمقدورك ، حينما تمضي إلى إيدو ، أن تأخذ اسمه على ما هو عليه .

نطق الحاكم هذه الكلمات ، في نفس واحد ، وهو يفرك يديه فوق المجمرة ، وأضاف :

- إن لهذا الرجل زوجة ، وسيكون مما لا يلائمك ، أيها الأب ، أن تظل وحيدا دوما ، من ثم فإن بمقدورك أن تتخذها زوجة لك .

أصغى الراهب إلى هذه الكلمات ، بعينين منكستين ، خلف جفنيه المغمضين تصاعدت صورة منحدر لا يفتأ يتدهدى عبره ، بلا انتهاء ، أن يقاوم ، أن يرفض ... لم يعد هذا أمرا ممكنا . أيا كان الأمر بالنسبة لحمل اسم ياباني ، فإنه لا يعتزم أن يمس زوجته .

تساءل إينوى :

- طيب ؟

هز كتفيه ، أومأ موافقا ، استولى على كيانه كله شعور باستسلام ، يمازجه الإعياء ، صوت ما بداخله تردد خفيفا : «ليكن ، لقد احتملت ضروب الإهانة كافة ، ولئن كنت وحدك تفهم الآن مشاعرى فذلك فيه الكفاية ، حتى إذا كان المسيحيون ورجال الكنيسة ينظرون إلى باعتبارى لطخة فى تاريخ الإرسالية فما عاد ذلك يعنيني» .

- أما قلت لك ، المسيحية لا تلائم بلاد اليابان هذه ، لا يمكن أن تضرب جذورها هنا . تذكر الراهب أن فيريرا قال بهذا ، على وجه الدقة ، في سايشوجي .

قال سيد شيكوجو ، محدقا فى رمال المجمرة ، خلال حديثه :

- لم تلق هزيمتك ، أيها الأب ، على يدى ، إنما ألحق مستنقع اليابان هذا الهزيمة بك .

- لا .... لا ....

دونما وعى ، رفع الراهب صوته ، خلال حديثه .

- لقد كان صراعي مع المسيحية في فؤادي .

عبرت بسمة ساخرة وجه إينوي .

- عجبا ، قيل لي إنك حدثت فيريرا بأن المسيح المنقوش على الأيقونة قال لك بأن تدهسه ، وأن ذلك هو السر في إقدامك على ذلك ، ولكن أليس ذلك على وجه الدقة هو خداعك لنفسك ؟ مجرد عبارة تستر بها عري ضعفك . إنني ، أنا إينوي ، لا استطيع التصديق بأن تلك يمكن أن تكون حقا كلمات المسيح .

قال الراهب ، منكسا عينيه ، وواضعا كفيه ، على ركبتيه :

- ليس لما تعتقد أهمية بالنسبة لي .

قال إينوي بصوت بارد :

- لربما تستطيع خداع آخرين ، ولكن ليس بمقدورك أن تخدعني . لقد سبق لي أن طرحت هذا السؤال على آباء آخرين : ما هو الفرق بين رحمة رب المسيحيين ورحمة بوذا ؟ ذلك أنه في اليابان يأتي الخلاص من جراء رحمة بوذا ، التي يعتمد عليها ، نتيجة لضعفهم ، الذي لا أمل في تجاوزه ، وطرح أحد الآباء ردا جليا : إن الخلاص الذي تبشر المسيحية به هو أمر مختلف ، ذلك أن الخلاص المسيحي ليس أمرا متعلقا بالتوكل على الله فحسب ... إنما على المؤمن ، فضلا عن هذا ، أن يتمسك بكل ما في وسعه بقوة القلب . ولكن في هذه النقطة بالتحديد حرفت تعاليم المسيحية ، وبدلت ، في بطء بالغ ، بهذا المستنقع المسمى باليابان .

أراد الراهب أن يصرخ : ليست المسيحية كما تظن ... لكن الكلمات التصقت بحلقه ، حينما أدرك أن أحدا لن يفقه كنه مشاعره الراهنة ، أيا كان ما يقول ...

لا أحد . لا إينوى ، ولا المترجم . جلس صامتا ، يصغى إلى كلمات الحاكم ، بعينين معتمتين ، وكفين استقرا على ركبتيه .

مضى إينوى فى حديثه :

- ربما لم يصل إلى علمك أن هناك فى جوتو وايكيتسوكى عدد كبير من الفلاحين المسيحيين . لكننا لا نوغل فى إلقاء القبض عليهم .

تساءل المترجم :

- ولم ؟

- لأن الجذور اجتثت ، فإذا ما كان قد قدر لرجال كهذا الأب أن يأتوا ، من أركان الدنيا الأربعة ، كرة أخرى ، لكنا بادرنا باعتقال المسيحيين من جديد .

قالها الحاكم ضاحكا ، وأضاف :

- لكننا لم نعد نخشى هذا ، ذلك أن الجذور ، إذا ما اجتثت ، فإن الشجيرة تذوى ، وتذروا الرياح أوراقها الصغيرة ، والبرهان على هذا هو أن الرب الذى يعكف عليه فلاحو جوتو وايكيتسوكى سرا قد تحول تدريجيا وتبدل ، فما عاد يشبه من قريب أو بعيد رب المسيحيين .

رفع الراهب رأسه ، وتطلع إلى وجه الحاكم ، حيث تلاعبت ابتسامة على الخدين وحول الشفتين ، لكن العينين كانتا جهمتين .

قال سيد شيكوجو ، فيما تنهيدة تتصاعد من أعماق صدره :

- لقد غيرت المسيحية ، التى جلبتموها إلى اليابان ، شكلها وغدت شيئا غريبا ، وتظل اليابان على حالها ، لا مناص من هذا ، أجل ، أيها الأب .

لم تكن تنهيدة مصطنعة ، كان صوته مفعما باستسلام أليم ، وبإيماءة وداع غادر المكان مع المترجم .

كانت السماء كعهدها كئيبة، جهمة ، والطريق يلفه البرد ، مضوا به في المحفة ، تحت السماء الرصاصية ، راح يحدق شاردا في البحر المترامي كابيا ، كالسماء التي تلفه . سرعان ما يرسلونه إلى إيدو ، وعده سيد شيكوجو بدار ، لكن ذلك لا يعنى إلا أنه سيودع بسجن المسيحيين ، الذي سمع به كثيرا ، وفي هذا السجن سينفق عمره ، أبدا لن يقدر له مرة أخرى أن يعبر البحر الرصاصي ، ليعود إلى الأرض التي شهدت مولده ، حين كان في البرتغال تساوى عنده أن يصبح داعية مع انتمائه إلى هذه الأرض ، كان قد اعتزم المضي إلى اليابان ، وأن يحيا الحياة ذاتها التي يحياها اليابانيون المسيحيون ، أيا كان الأمر ، فقد تحقق الآن تماما ما قدره ، أطلق عليه اسم اوكادا سانيمون الياباني ، غدا يابانيا . أوكادا سانيمون، ضحك بصوت خفيف ، بينما كان يتلفظ الاسم ، لقد خلع عليه القدر كل ما كان يمكن أن يتمناه ، منحه إياه على نحو ساخر ، فعليه وهو المترهبن ، أن يتخذ زوجة (لا أكن لك سخيمة ، إنما أضحك فحسب من مصير الإنسان ، لقد اختلف إيماني بك عما كان ، لكني على عهد محبتك مازلت باقيا) .

ظل حتى المساء واقفا ، مستندا إلى النافذة ، يرقب الأطفال . كانوا يمسكون بخيط طائرة ورقية ، ويعدون عبر المنحدر ، لكن الريح كانت ساكنة ، فسقطت الطائرة الورقية ، متراخية على الأرض .

ضرب المساء أطنابه ، نفذت الشمس الآفلة ، واهنة ، من فرجة في السحب ، راح الأطفال ، وقد سئموا اللعب بالطائرة ، يدقون أبواب الدور بعصي الخيزران صارخين :

– دعونا نضرب الخلد قبل أن يعيث فسادا .

بو – نو مى ، بو – نومى ، دعونا نمنح هذه الدار البركة ثلاث مرات .

دعونا نضرب بالعصا :

واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة .

حاول تقليد أنشودة الأطفال ، بصوت خفيض ، لكنه لم يحر إنشادا ... أحزنته هذه الفكرة ، ووراءه في الدار، راحت امرأة كهلة تقرع الأطفال ، كانت هى التى تحمل له الطعام مرتين كل يوم .

ساد المساء ، هبت نسمة ، أرهف سمعه ، مستعيدا ذكرى زفيف الريح ، عبر الأجمة ، حينما كان بالسجن . عندئذ ، وكما يحدث فى الليل دائما ، اصاعد محيا المسيح ، فى قلبه ، كان محيا الرجل الذى دهسه بقدمه .

– أبتاه ! أبتاه !

تطلع ، بعينين غائرتين ، إلى الباب ، حينما سمع صوتا ، بدا مألوفا بشكل ما .

– أبتاه ! أبتاه ! إنى أنا كيشيجيرو .

رد الراهب ، بصوت خفيض ، فيما كان يضم ركبتيه إلى صدره .

– لم أعد أبا ، امض سريعا ، وإلا حاق بك الأذى ، إذا ما عثروا عليك هنا .

– لكنك مازلت تستطيع الإصغاء إلى اعترافى .

– إنى من هذا لفى شك .

قالها الراهب ، وفي صوت خفيض أضاف :

- ما أنا إلا راهب ضل عن يقينه .

- إنهم في نجازاكي يدعونك بولس الصابئ . الجميع يعرفونك بهذا الاسم .

انبعث الراهب يضحك ، وكفاه تضمان ركبتيه إلى صدره لا تزالان ، كان يعرف ذلك ، ويعلم أنهم يدعون فيريرا باسم بطرس الصابيء ، ويلقبونه ببولس الصابيء ، في بعض الأحيان كان الأطفال يتحلقون داره ، مرددين اسمه ، بصوت عال ، كأنما يتغنون به .

- أتوسل إليك أن تسمع اعترافي ، طالما أن بولس المرتد نفسه كان بمقدوره الاصغاء للاعترافات ، أتوسل إليك أن تحلني من خطاياي .

حدث الراهب نفسه ، ليس الإنسان هو الذى يملك أن يحكم ، فالرب غير مطلع على ضعفنا .

قال كيشيجيرو ، مغرورق العينين بالدمع :

- أبتاه ، لقد أسلمتك لهم ، دهست على الأيقونة ، في هذه الدنيا أقوياء وضعفاء ، والأقوياء لا يستسلمون للعذاب ، ويمضون إلى الفردوس ، ولكن ماذا عمن هم مثلي ، الذين ولدوا ضعافا ، أولئك الذين حينما يعذبون ويؤمرون بأن يدهسوا الأيقونة المقدسة ...

لقد دهستها بدوري، للحظة استقرت هذه القدم على محياه ، دهست محيا الرجل ، الذى عاش في خاطري دوما ، المحيا الذى تجلى لي في الجبال ، في ارتحالاتي عبر شعابها ، في السجن ، على أفضل محيا ، على المحيا

الأكثر بهاء ، الذى يمكـــن لأى إنسـان أن يعــرفه أبدا ، على مـحيا من تقت دوما إلى محبتـه ، هو ذا الآن يطــل على بعينين أســيفتين من الأيقونة التى برتها الاقـدام . قـالت هـاتان العينان المفـعـمتـان عطفا : ادهس ... ادهــس ، فقدمك تعانى عذاب الألم ، لابد لها أن تعــانى ، شـأن الأقــدام التى دهســت هذه الأيقونة جميعها ، لكن الألم وحـده يكفــى ، وانى لأتفـهم عــذابك وألمك ، فمن أجل هذا أتمدد ها هنا .

- إلهى ، لقد ضقت ذرعا بصمتك .

- لم أكن صامتا ، وإنما كنت أتعذب ، إلى جوارك .

- لكنك أمـرت يهوذا بأن يمضي بعيدا : «اعـمل مـا أنت تعـمله ولا تبطئ» . فماذا أصاب يهوذا ؟

- مـا بهــذا تلفظــت ، وإنمــا قلــت ليهوذا أن يمضـى قدمـا ، فيما اعتزم ، مثلمــا حـدثتـك بأن تدهــس الأيقــونة ، ذلك أنـــه كـان يعـانى العـذاب الذى تلقـاه الآن .

كـان قــد هبــط بقدمه على الأيقونة ، التي صلبهـا القذر والدم ، ضغطت أصابع قدمه الخمسة على محيا محبوبه ، رغم ذلك ، فلم يدر سر دفق الفرح ، الذى غمره ، فى تلك اللحظة .

تدفق الراهب فى حديثه ، مواجها مدخل الدار :

- ليــس هناك أقـوياء ولا ضعفاء . هل بمقــدور أحد أن يقــول إن الضعفاء لا يتـعــذبون على نحــو يفوق الأقــوياء ؟ لما كـانت هــذه الأرض لا تقل احـدا غيرى فى الوقـت الراهـن يمكنه أن يســمع اعترافك فأنا لها ... رتل الصلوات بعد الاعتراف ... امض فى سلام !

رق كيشيجيرو باكيا ، ثم غادر الدار ، لقد منحه الراهب ذلك السر الذى لا يملك إلا راهبا لم يضل الطريق أن يمنحه ، يقينا سيدمغ اخوانه فى الرهبنة عمله ، بحسبانه انتهاكا للحرمات ، ولكن حتى لو أنه كان قد أقدم على التخلى عنهم فهو لم يتخل عن ربه ، إنه ليحبه الآن على نحو يختلف عن ذى قبل . كان كل ما وقع حتى الآن ضروريا للوصول به إلى سمت هذا الحب :

- إنى آخر الرهبان ، فى هذه الأرض ، لكن إلهنا لم يكن صامتا ، وحتى إن كان قد لزم الصمت ، فقد كانت حياتى ، حتى هذا اليوم ، تتغنى باسمه .

مختتم

مذكرات ضابط بالمقر المسيحى

العالم الثانى عشر للكانبون أو جرذ الماء الكبير

تصـــرف ، فـــى الوقــت الحـــالى ، لأوكـادا ســانيـمـون جـراية عـشـرة أشـخـاص ، وتصــرف لكل مـن بوكـوى ، يوحنـا ، نانهـو ، وجيكــان جـراية ســبعة أشخاص ، قدمــت الأتين بعــد إلى توتومينوكامى ، فى الســابع عشــر من يونيو .

مذكرة :

١ – سـايبى : العـمـر : ٥٠ عـامـا ، ابن عم زوجـة سـانيـمـون ، نجـار مـراكب بفوكاجاوا .

٢ – جينيمون : العمر : ٥٥ عاما ، ابن عم المشار إليها أنفا ، يعمل بخدمة دوى أوينوكامى .

٣ – سانوجو : ابن شقيق المشار اليها أنفا ، مع سايبى .

٤ – أداشى جوانزابورو : ذكر عنه أنه متدرب على يد بوكوى الصانع ، خلال عهد هوجو .

٥ – جينون : عم ابنة يوحنا ، يقيم في كاواجو . جاء مرة خلال عـهد هوجو ، أقبل مــرة أخرى لمقابلة يوحنا فى الســادس والعشرين من ابريل من عـام الجرذ هذا .

عام الأنبو الأول أو ثور الماء الصغير

التاسع من نوفمبر : لفــظ بوكــوى أنفاســه الأخيــرة ، متأثرا بمــرضــه ، فى الســادسة فـجـرا . قدم للتحــرى المفـتشــان كـيمـوارايومـون وأوشـيدا جينجويي ، ومع كل منهما مفتشون مساعدون ، حضر كذلك ضباط الشرطة شـوذايمون ، دنيمـون ، سـوبى ، جينسـوكوى ، وحضـر أيضـا رجـال الشـرطة ، اساتور سابور ويمون ، أراكاوا ، كايزويمون ، كاينون كالينمون ، فوكودا ، هاشير وبى ، هيتوتسوياشى ، مابابى . تم احراق الجثة بمعبد ماربون . الاسم البوذى للراحل ، بعد مـوته ، هو كـوجـان شـوتين زنجـومون . قـام انـوهايكويى والرقـيب كيكاداجور ايمون بتفتيش امتعة توكزايمون ، خادم بوكوى ، واطلقوا سراحه بعد اختباره بالأيقونة .

عام الأنبو الثانى أو نمر الغابة الأكبر

من العشـــرين من يناير ، وحتى الثامن من فبراير : عكف أوكادا سانيمون على كـتاب ، يتنصـــل فيه مــن دينــه ، بأمــر من توتومينـوكامى ، ترتب عــلى هذا أن أوكـاى شـــوزايمون وكـايو ونيمون وهو شـينوجينسـوكى قـد أعفــوا من واجب رصده .

السادس عشر من فبراير : عكف أوكادا سانيمون على وضع كتاب ، سيعفى كل من كايو ونيمون وكاواراجنيـجويى من واجب ملازمة سانيمـون ، من الثامن والعشرين من فبراير ، وحتى الخامس من مارس .

سيقوم أوكادا سانيمون بكتابة تنصل من دينه ، فى الفترة من الرابع عشر من يونيو ، وحتى الرابع والعشرين من يوليو ، فى مكتب إدارة الجبل ؛ ومن هنا يعفى من واجب ملازمته كايو ونيمون وكاوارا جنيجويى .

الخامس من سبتمبر : زج بيوحنا فى السجن ، سيودع هناك لبعض الوقت ، عقابا له على سلوكه المعوج ، سيشهد عملية الاستنطاق كل من روكويمون ، شوريمون ، سوبى ونيمون ، جينسوكي كاوارلوكامي ، يعهد بالواجب الشهرى على تسوكاموتو ، روكويمون ، وكايو ونيمون .

العام الرابع للأنبو أو تنين النار الأكبر

أودع كيشيجيرو ، تابع أوكادا سانيمون ، والذى جاء فى أعقابه إلى هنا ، السجن كذلك بسبب سلوكه المريب . لدى تفتيشه بمقر الحراس التابع للمقر المسيحى ، عثر على علبة تعويذة تتدلى حول عنقه ، وبها صورة يوقرها المسيحيون ، رسم على أحد وجهيها القديس بولس والقديس بطرس ، وعلى الوجه الآخر كزافييه وأحد الملائكة . استدعى كيشيجيرو من السجن ، وسئل عن موطنه وعن أقاربه . إنه من جوتو . وفى الرابعة والخمسين من العمر ، فى عام التنين هذا .

ثمة ما يثير الشك فى يقين هيتوتسوياشى ماتابى ، الذى ربطه الود بكيشيجيرو ، من هنا أودع ماتابى السجن كذلك ، إلى أن يبين أمر كيشيجيرو (تسقط هذه الفقرة) بما أن الصداقة تربط ماتابى بكيشيجيرو ، فإن معتقداته تصبح موضع شك ، ولهذا تم اتخاذ الإجراء السابق ، حينما تم التحقيق مع كوروزايمون وشينبى ، اللذين قيل بأنهما على صلة وثيقة بماتابى، تم تفتيشهما ذاتيا بدقة ، فى المكتب ، جرى فحص ملابسهما الداخلية والخارجية ، وما بجيوبهما من أوراق ، وما يحتفظان به من تعاويذ ، جميعها دونما استثناء (تسقط هذه الفقرة) جاء توتوميتوكامى إلى السجن ، واستدعى كيشيجيرو إلى المكتب ، وسأله عن مصدر التعويذة المسيحية .

أجاب على هذا بقوله :

«إن تابعا يدعى سايزابورو ، كان قد حل بهذا المقر قبل ثلاث سنوات ، قد أودعه إياها ، وحينما جاء إلى هذا المقر تركها كلية ، وعاد لشقه ، هكذا التقطناها ، واحتفظنا بها ، وتوكيمون البواب يعلم هذا «وهنا تم استدعاء توكيمون وسؤاله ، فقال : إنه شهد هذا المشهد ، ذات يوم من أيام الصيف ، لدى تجفيف الملابس . ردا على سؤال عما إذا لم يكن قد تلقاها من أوكادا سانيمون ، قال كيشيجيرو : «ليست هناك فرصة للحصول على أى شئ من سانيمون» الأمر الذى يعنى ، بحسب ايضاحه ، أن انعدام الفرصة يرجع إلى أن حارسين يرافقان سانيمون ، دائما ، حيثما وقعت عليه عين .

السابع عشر من سبتمبر ، جاء السيد توتومينوكامى بنفسه إلى إدارة الجبل ، استدعى ثلاثة أتباع إلى المكتب ، ليبحث ما إذا كانوا مسيحيين من عدمه ، استدعى كيشيجيرو وتوكويمون ، عقب ذلك ، وتم التحقيق معهما ، وأمر كذلك بتفتيش مساكن الحرس جميعا بدقة ، وكذلك المقار الرسمية الثلاثة ، ومقار الاقامة ، وحتى الزوجات والأطفال طلب منهم التجرد من ملابسهم الخارجية والداخلية ، أمام الضابط ، وبالطبع ، تم فحص صور بوذا ، التى يحتفظون بها ، وعند تفتيش سكن سوجياماشيشيرويى وكويورى جوزايمون اكتشفت ضمن أوراق عتيقة رقعة تضم كلمات مسيحية تحفظ عليها كايو ونيمون ، لرفعها إلى المدير ، حيث جاء بها : أب ، اسقف ، كبير اساقفة ، بابا .

الثامن عشر من سبتمبر : حضر السيد توتومينوكامى بنفسه إلى إدارة الجبل ، واستمع لإيضاح الاتباع الثلاثة ، فى المكتب ، استدعى كذلك هيتوتسوباشى ماتابى للتحقيق معه . تم التحقيق مع كيشيجيرو وتوكويمون ، عقب

ذلك . استدعيت زوجة اوكادا سانيمون وخادمته وربيبه ، حيث جرى التحقيق معهم ، استدعي سانيمون نفسه ، وجرت مساءلته عما إذا كان قد حاول اقناع كيشيجيرو باعتناق المسيحية ، فرد بأنه لم يحاول تغيير عقيدة المذكور الدينية ، عقب ذلك استدعي سوجياما ، شيشيروبى ، وسئل عن السبب فى احتفاظه برقعة ، تضم مناصب مسيحية ، عثر عليها لديه امس ، فقال : «خلال عهد هوجو اوانو كامى ، أمرنى كبير وكلائه باستظهار هذه الأسماء ، حيث كنت مسئولا عن مثل هذه الأمور ، وهكذا تلقيت هذه الرقعة من هاتورى ساهى ، وهو ضابط بالشرطة ، وقد تبين أن ما أدلى به صحيح ، وأمر بالعودة إلى حيث كان .

تم استدعاء كل من تاهى تابع كاساهاراجويمون بمعية الوزير تاتيباياسى ، وكذلك شنيبى الحارس ، الذى يعمل بواباً بغرفة سايتو تانومو ، وجرت مواجهتهما بكيشيجيرو ، للتحقيق فيما يتعلق بالصورة التى التقطاها ، تبين أن شنيبى قد التقطها بالفعل ، وقال تاهى المذكور اعلاه أنه رأى شنيبى يمسك بها ، وبناء عليه أمر تاهى شنيبى بالعودة إلى حيث كانا .

اليوم نفسه : علق هيتوتسوباشى ماتابى داخل السجن ، والضباط المسئولون هم : هيسانكي حنيمون ، أوكاداتوكوبى ، كاواسى سوبى ، وكاوارا جنيجوبى ، منذ ذلك الوقت تم تعذيب ماتابى مرات عديدة .

الثامن عشر من اكتوبر : عظيم . حضر الحاكم بنفسه إلى إدارة الجبل ، جاء كذلك المفتشان سایاما شوزايمون وتانيجوسار تاروبمون ، وعنيا هيتوتسوباشى ماتابى وزوجته ، على الحصان الخشبى ، استدعى نايتوشنيبى إلى المكتب . جرى التحقيق مع ماتسوي كوروبمون ، واعترف ، على وجه التقريب .

الرابع عشـر من نوفـمبـر : تم تعليـق البيـان المتعـلق بالإرشـاد عن المسيـحيين ، على المدخل الرئيسـي لإدارة الجبـل . وقام بهذه المهمة كاوارا جنيجوبى اوكاى جينجويمون وياماداً جيروبى ، وقد أعدت لوحة البيانات ذاتها بأمر من الحاكم .

بيــان

«منذ سنوات طويلة ، تم حظر اعتناق المسيحية ، ونهيب بالجميع الإرشاد عن الأشخاص المشتبه بهم ، وسيقدم ما يلى مكافأة المرشدين :

لمن يبلغ عن أحد الآباء : ٣٠٠ قطعة فضية .

لمن يبلغ عن أحد الاخوة : ٢٠٠ قطعة فضية

لمن يبلغ عن مرتد إلى المسيحية : كالسابق .

لمن يبلغ عن ملقن للتعاليم المسيحية أو معتنق له : ١٠٠ قطعة فضية .

سيمنح المرشد ، حتى وإن كان هو نفسه من ملقنى التعاليم المسيحية ، أو من من معتنقيها ، ٣٠٠ قطعة فضية ، أو بحسب وضع المتهم ، وإذا ما قام أحد بإيواء مثل هؤلاء الأشخاص ، ثم أفضت معلومات الآخرين لاكتشافهم ، فإن عقاباً قاسياً سيوقع به ، وبعائلته ، واقاربه ، وبرئيس حيه ، والعائلات القريبة منه . وتحرر ما سبق بياناً مناً» .

العاشر من ديسمبر : أودع يوحنا السجن ، أرسل الحاكم المديرين تاكوشى نايمون وهاتورى كتيمون ، وبحضور ضباط شرطة من قبل الحاكم سلم يوحنا البيان التالى :

«لقـد وجـه يوحنا ، الذى دأب على اتيـان سلوك مـخل ، لرهانه إلى كـايو جينزايمون وبرهن على أنه شخص سىء السلوك ، وكعقاب على هذا سيتم سجنه، وقد وجه إليه الأمر بتقبل العقاب سالف الذكر» .

أجاب يوحنا بأن تلك هى رغبته ، وانه يقبل العقاب عن طواعية ، وحينما اقتيد إلى السجن ، قدم كيس نقوده للضابط لحفظه ، فأودع بدار الحرس وزج بصاحبه فى السجن ، وتم فحص هذا الكيس ذاته ، بحضور المديرين وضباط الشرطة المرسلين من قبل الحاكم ، فعثر على سبعة عشر درايوه ، وبو واحد فى شكل عملات معدنية صغيرة ، وجرى فحص باقى أمتعة يوحنا وتسجيلها فى الدفتر المخصص لذلك ، وختمه ضابط الشرطة ، وأودعوه داره .

كان بين أمتعة يوحنا سلسلة وسوطان ومسبحتان ورسم بيانى فلكى .

عام الأنبو التاسع أو الديك الذهبى الصغير

الخامس والعشرون من يوليو : توفى اوكادا سانيمون ، متأثراً بمرضه ، فيما بين الثانية والثالثة . بعد ساعة القرد ، توجهت إلى الحاكم لإعلانه بهذا ، مع اوكاى جيجويمون وناروسى جيروزايمون . ارسل المديران تاكاهار سيكينومو واما جارى جوريمون توا إلى هنا ، من لدى الحاكم ، وضع ثلاثة من رجال الشرطة حرسا على جثة سانيمون .

السادس والعشرون من يوليو : حضر المحققون الستة التالية اسماؤهم إلى إدارة الجبل ، المفتشان اومورا يومون ، مورايا كاكودايو ، المفتشون المساعدون شيموبا ماسوى شيرو ، نومورا راى ، اوشيدا كانجورو ، وفوروكاو كايوزايمون ، وبحضور المديرين المرسلين من لدى الحاكم سلم البيان التالى للمفتشين :

صورة البيان

لقى أوكادا سانيمون ، الذى كان مودعا بالمقر المسيحى حتفه ، بعد دقائق من انتصاف الساعة الرابعة من أصيل الخامس والعشرين من يوليو ، وكان سانيمون المولود فى البرتغال بأوربا قد وضع تحت اشراف إينوى شيكوجو

نوكامى بداية فى عـام الكبـش قبـل ثلاثين عاما ، ثم جاء إلى المقر هنا ، فأودع النيابة المسيحية ، حيث ظـل مقيما ثلاثين عاما ، حتى عام الديك هذا ، حيث سقط طريح الفراش ، فى بداية الشهر ، وفقد شهيته ، وتدهور به الحال ، على الرغم من علاجه على يد طبيب السجن ايشيودتيكى ، وأخيرا لفظ انفاسه الأخيرة ، وكان فى الرابعة والستين من عمره . وباستثناء هذا ، فليس هناك ما هو غير مألوف هنا .

السادس والعشرون من يوليو

مجموعة هياشى شينانواوكامى

أوكاماجيروبمون

أوكاى جينجوريمون

كاوارا جنيجوبى

كاواسى سوبى

كايو ونيمون

بعـد الفحـص ، دفـن جثمـان سانيمون ، فى معبد ماروين بكوشيكاوا ، أقبـل من ماروين كـاهن يدعـى جينشو ، فأرسلت جثة سانيمون إلى هناك بالعربة ، حيث أحرقت ، واسـمه البوذى ، بعد موته ، هو مايوسين جوشين شينشى ، تم دفع رايو واحـدا واثنين بو ، لخـدمـة الجنـازة ، ومـائة بيكى كتكاليف للإحراق ، وقد دفعـت مصـاريف الجنـازة هذه من النقود التى خلفها سانيمون وراءه .

S I L E N C E



الصَّمت

رواية
NOVEL

يعتبر اليابانيون أن توازن إيقاعهم مع ما يحوطهم شيء بالغ الأهمية، ويجدون فيه سعادتهم.

وفي «صمت» يعتبر الكاتب أن البوذية، مثل كل الأديان، تطرح مسألة قوة الإنسان الداخلية التي ليس على الأرض مثيل لها، ولكن بعض الناس لا يرضون عن سعادتهم فيتصرفون كأنهم كثبان رملية، لا يمكنهم الاستقرار في مكان، ويبقون مشتتين طيلة العمر.

ويؤكد أندو أن الكثبان الرملية تنتهي بالتلاشي، وهذه الرواية التي تدور أحداثها في القرن ١٧، تمتلئ بالتساؤلات حول وصول المسيحية إلى اليابان. وبطل الرواية الياباني، يقوم بمرافقة أحد المبشرين القادمين من البرتغال، ويرى الكاتب من خلال مواقف بطله وتحولاته ان حب الله ينبسط أمام الإنسان في قوته وضعفه.

«صمت»

رواية تؤكد أن شمس الأدب تشرق أيضًا من اليابان.. ولعل نشر هذه الرواية، يؤكد الرغبة في الخروج من أسر الرواية الغربية..

ISBN: 9953 - 36 - 841 - 4



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨



دار الفارس